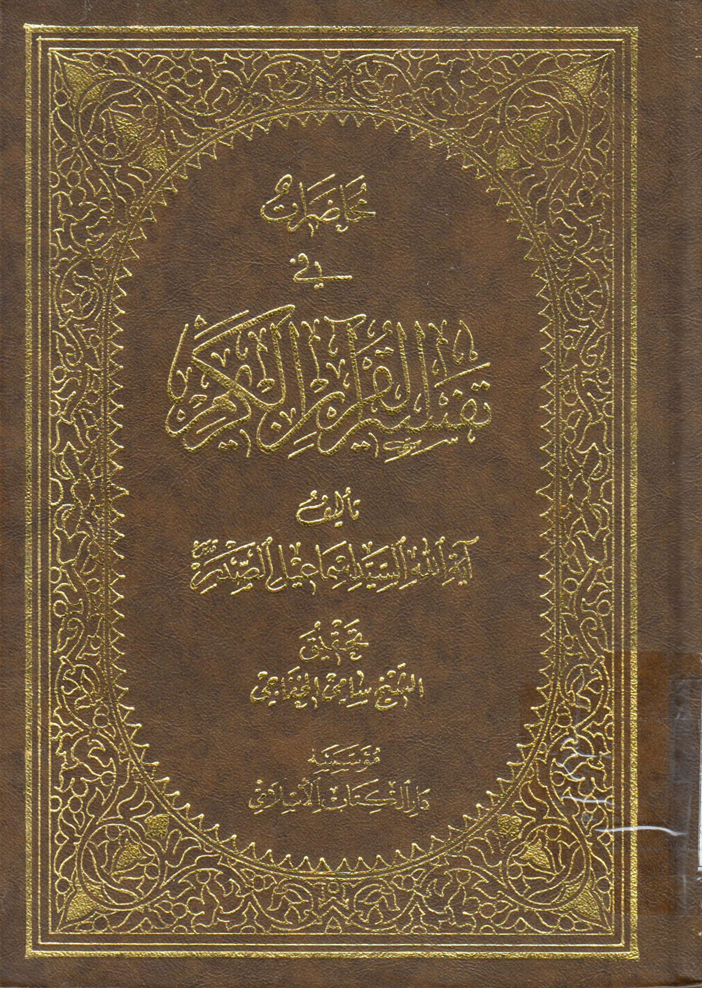

محاضرات في
تفسير القرآن الكريم
تأليف
آية الله السيد إسماعيل الصدر
تحقيق
الشيخ سامي الخفاجي
مؤسسة
دار الكتاب الإسلامي



تأليف
آية الله السيد إسماعيل الصدر قدس سره

محاضرات في تفسير القرآن الكريم

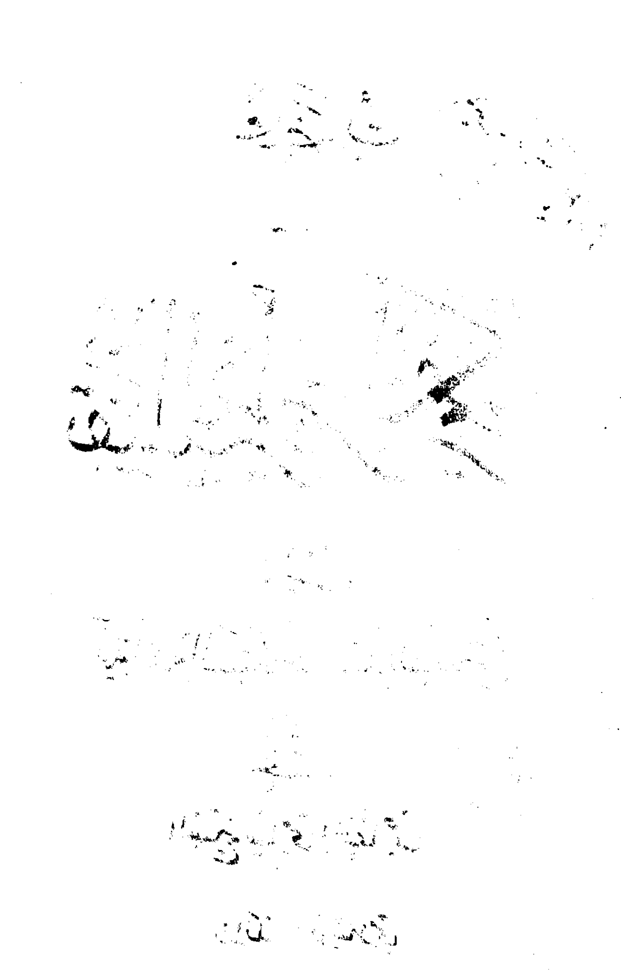
تأليف

آية الله السيد إسماعيل الصدر قدس سره

تحقيق

الشيخ سامي الخفاجي

دار الكتاب الإسلامي



اهداء

أهدي إليك أيُّها القُربانُ المتقبَّل والقُدوةُ العظيم هذا الجهد الضئيل شكراً ـ لاجزاءً ـ على أياديك وكلّنا نقف أمام ماسخوتَ به وأسديتَ موقف العاجز الذليل وسنبقى نعيش حياة الذلّ من بعدك وفي فيافي المتاهات حتى ننهج نهجك الذي أنرتَ وعبَّدتَ بفكرك وروحك ودمك فالحظ هديتي هذه بعين الرحمة التي كنّا في غمرتها نعيش وكنت تنظرنا بها قبل أن تلحق بأخيك صاحب هذا الكتاب.

مقدمة المحقق

بين يدي المؤلّف

بسم اللّه الرحمن الرحيم والحمدُلله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على سيّد المرسلين محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين.

وبعدُ: فلقد كان سيّدنا المترجَم له آيةً من آيات اللّه ـ تبارك وتعالى ـ علماً وعملاً، إخلاصاً وأخلاقاً، جهاداً وثباتاً، زهداً وتواضعاً ونكراناً للذات وهيبةً ووقاراً.

عاش رحمه اللّه فقيراً عفيفاً كريماً شريفاً، لم يتبجّح به فقره، ولم يضعف لمصائب دهره. كان في الفتن الهوجاء جبلاً أشمّ لا تُزعزعه العواصف، حتى إذا اشتدّت المحن وجدتَه ملاذاً للحيارى، وحينما تُظلم الدنيا يكون نوراً ومناراً، زكيّةً نفسهُ، خالصاً للّه قصدهُ، يُحِبّ ويُبغض في اللّه، ويرضى ويغضب للّه، لا تميل به الأهواء عن سمت الهدى، ولا يستذلّه أو يزيغ به طمع ولا هوى.

لقد عاش ـ رحمه اللّه ـ الفتنة الحمراء في بلادنا العزيزة، وكابد مرارتها، وجاهد أفكارها، وكان من الروّاد الذين أناروا السبل أمام السالكين حين

طبّقت دياجيرها، فكانت حياته جهاداً مريراً، وعملاً متواصلاً، ودعوة للّه خالصة، يحثّ خُطى الشباب المؤمن في طريق اللّه، ويجلّهم إجلال العلماء، فكُنّا حين نزوره مع ثُلّة من الشباب المتديّن، كان يقوم لنا تجلّة واحتراماً حين يبصر بنا على الباب، مرحّباً بنا أيّما تَرحاب، وكان يقول: هؤلاء الشباب المؤمن أفضل منّا ـ ويقصد نفسه الشريفة وأمثاله من العلماء الأزكياء ـ لأنّنا على هذا اللباس ابتنت حياتنا ومصالحنا ـ إنه رحمه اللّه يتّهم نفسه الشريفة وإخوانه المرتدين للزيّ الروحاني ـ أما هؤلاء الشباب المتديّن، فالمجتمع يحاربهم وهم صابرون مستمسكون بعُرى دينهم، و يعيشون هذه الأجواء الموبوءة بالانحراف والصدود عن اللّه تعالى، وهم ماضون على الصراط المستقيم بكل صبر وثبات، فلو أنهم انحرفوا لبارك لهم المجتمع انحرافهم، وقد آثروا رضا بارئهم، وأثاروا سخط مجتمعهم المنحرف بسلوكهم السويّ المرضيّ عند ربهم، فلم يُبالوا بسخط مَنْ عداه.

فكانت كلماته المخلصة تملأ القلوب إيماناً ونوراً، وتزيد الشباب المؤمن إصراراً وثباتاً.

صفته خَلْقاً وخُلُقاً:

كساه ربّ العزّة من الجلال أُبّهـةً، ومن العظمة بهاءً، ومن المهابة حُلَلاً، وزاده في الخَلْق بَسْطةً، وفي الخُلُق كمالاً، وفي المنظر جلالاً، فهو ذو شيبة مهيبة، وذو سماحة رحيبة، وذو رحمة و رِقّة وحِلْم عظيم، وخُلُق كريم.

ويكفيه فخراً أن يكون مُربّياً لأخيه العظيم مفخرة العصر، وفلتة الدهر، الإمام الصدر رضوان اللّه تعالى عليه.

سليل أسرة عريقة

ولا عجب أن يرث سيّدنا المترجم له كلّ هذه الأخلاق العالية، والخلال الحميدة، والفضائل والكمالات، وهو ينحدر من تلك الشجرة المباركة الباسقة، وهو سليل تلك الأسرة الباذخة الشرف العريقة بالفضل والفضيلة، التي أنجبت للحوزة العلميّة مفاخر وجهابذ بذّت الأقران، وأطواداً في العلم والاجتهاد والتقوى والصلاح، فكانوا مراجع للدين وزعماء للطائفة بجدارة واستحقاق:

فمن نابغة عصره ومفخرة زمانه الجهبذ الفذّ السيد صدرالدين محمد بن السيد صالح ـ رضوان اللّه تعالى عليه ـ أستاذ الشيخ المرتضى الانصاري ـ قدّس سره ـ والسيّد المجدّد الشيرازي ـ قدّس سره ـ والشيخ صاحب الجواهر ـ قدّس سره ـ والشيخ شريف العلماء ـ قدّس سرّه ـ .

إلى نادرة النبوغ في العلم والتقوى آية اللّه العضمى وحجته الكبرى السيّد إسماعيل الصدر نجل السيد صدر الدين الآنف الذكر. ولقد كان من جهابذة العلماء، وأساتذة الفقهاء، ومن خواصّ السيّد المجدّد الشيرازي الكبير ـ قدّس سره ـ ووريثه في الزعامة الدينية والمرجعية العامة مع زهده بها.

ثمّ ورث الزعامة الدينية من بعد آية اللّه العظمى السيد اسماعيل الصدر ـ قدّس سره ـ ابنُ عمّه المقدّس إمام العلم والتقوى وجهبذ الفقه وأُصوله والحديث ورجاله وأعجوبة التأليف والتحقيق سماحة آية اللّه العظمى السيد حسن الصدر قدّس اللّه نفسه الزكية، وقد أربت تآليفه على الثمانين في مختلف العلوم والفنون: من الكلام والعرفان والأخلاق والفقه الاستدلالي

والمجرّد وعلم الحديث والدراية والإجازة والرجال وعلم الفهارس والتصنيف والمناظرة وعلم اصول الفقه والنحو والتاريخ، هذا إلى ما كان يتمتّع به من أخلاق النبيّين.

ومن أعلام هذه الأُسرة الشريفة والدوحة المنيفة سماحة والد سيدنا المترجَم له النابغة الفذّ نادرة العلم والزهد والتقوى السيّد حيدر الصدر نجل السيّد إسماعيل الصدر الذي تقدم ذكره ـ رضوان اللّه تعالى عليهما ـ وقد كان أحد مراجع الطائفة، ومع هذا عندما رحل عن هذه الدنيا كانت عائلته بعده حائرةً في تدبير لُقمة العيش؛ لأنّه لم يترك لهم من حُطام هذه الدنيا شيئاً.

وأخيراً فقد كان من أعلام هذه الأُسرة الباذخة الشرف نابغة العصر ونادرة الدهر آية اللّه العظمى الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر ـ رضوان اللّه تعالى عليه ـ وهو أخو سيّدنا المترجم له، ويصغره بثلاثَ عشرةَ سنة، وهما الابنان اللذان خلفهما السيد حيدر الصدر ـ قدّس سره ـ مع بنت واحدة هي العلويّة الفاضلة السيّدة آمنة الصدر المعروفة ببنت الهدى. وهي عالمة عابدة زاهدة تلميذة أخويها العَلَمين ـ قدّس سرهما ـ ولقد كانت آية في الجهاد في الوسط النسائي، وقدوة المؤمنات وأُستاذتهن ومربّيتهن، عزفت عن الدنيا وزينتها، وأقبلت على ربّها مجاهدة بكل إخلاص ومثابرة ونشاط، حتى اغتالتها يد الخيانة والغدر مع أخيها العَلَم الصدر، ففارقا هذه الدنيا شهيدين مظلومين، يستصرخان كلّ الضمائر الحيّة الحرّة بأخذ ثأرهما وثأر السائرين على نهجهما، من أبناء الإسلام العظيم، في العراق الجريح.

سيّدنا المترجَم له:

هو حجّة الإسلام والمسلمين آية اللّه السيد إسماعيل الصدر رحمه اللّه وأرضاه.

ولد في مدينة الكاظميّة المقدّسة في شهر رمضان المبارك سنة (١٣٤٠) للهجرة.

درس المقدّمات والسطوح العالية على أيدي علماء الكاظميّة المقدّسة، وبعدها هاجر في سبيل طلب العلم إلى كبرى العواصم الدينيّة ومركز العلوم الإسلاميّة مدينة النجف الأشرف، وذلك في سنة (١٣٦٥) للهجرة؛ لينتهل العلم من منهله العذب، ويسبر غوره على أيدي فحوله الأعلام، فَتَلَمَّذَ في الفقه والأصول على أيدي أعلامٍ عظامٍ هم:

١ـ آية الله العظمى الشيخ محمد رضا آل ياسين قدّس سرّه.

٢ـ آية الله العظمى السيد محسن الحكيم قدّس سرّه.

٣ـ آية الله العظمى السيد عبدالهادي الشيرازي قدّس سرّه.

٤ـ آية الله العظمى السيّد أبوالقاسم الخوئي قدّس سرّه.

وقد أجازه في الاجتهاد أُستاذه آية الله العظمى السيد الشيرازي قدّس سرّه.

عودته إلى مسقط رأسه:

وبعد أن نال حظّاً وفيراً من العلوم الإسلامية العالية، وبعد ما بلغ رتبة الاجتهاد، عاد إلى مسقط رأسه ومرتع صباه وشبابه مدينة الكاظميّة المقدّسة؛ ليقضيَ فيها بقيّة أيّام حياته المباركة، وذلك بطلب ثُلّةٍ من أبناء منطقته الغيارى؛ ليستلم فيها مهامّ العالم العامل المربّي، ويشتغل بالتدريس

والدعوة إلى الإسلام وترويج تعاليم الدين الحنيف.

وقد أقام صلاة الجماعة في الصحن الكاظميّ المطهَّر قبل أن ينتقل إلى أحد مساجد الكاظميّة المهمّة، وهو مسجد الهاشمي؛ ليكون منطلقاً لمختلف نشاطاته الإسلاميّة المباركة.

ولم يقتصر ـ رضوان اللّه عليه ـ على دروسه العامّة في التفسير والأخلاق والعقيدة، بل كانت له دروس خاصّة في العلوم الإسلاميّة الحوزويّة العالية كان منها إعطاء بحث خارج على متن الرياض[1]. هذا ما أخبرني به سماحة العلاّمة المجاهد الحجّة السيد محمد طاهر الموسوي، وأنه كان يحضر البحث الخارج على متن الرياض عند سماحة سيدنا المترجَم له.

وبقي في مدينة الكاظمية المقدّسة مؤدّياً لواجبه الديني على أحسن وجه وأكمله حتّى وافاه الأجل طيّباً نقيّاً طاهراً، وذلك في شهر ذي الحجّة من سنة ١٣٨٨ للهجرة، ودفن ـ طاب ثراه ـ في النجف الأشرف في مقبرة العلاّمة السيد عبدالحسين شرف الدين قدّس سرّه.

لقد اهتزّت بغداد لنبأ وفاته، وكان لها وقع الفاجعة على نفوس محبّيه، وفي مختلف الحواضر العلميّة الدينيّة، وأُقيمت مجالس التأبين والفواتح على روحه الطاهرة في مختلف المدن العراقية، خصوصاً في مدينة الكاظمية المقدّسة، وأُلقيت فيها قصائد التأبين والرثاء والكلمات المؤثرة من مختلف طبقات الأمّة، وقد شاركتُ في ثلاثة مجالس تأبينية منها بقصيدتين كانت

(١) وهو رياض المسائل أو الشرح الكبير على المختصر النافع، و هو دورة فقهيّة استدلالية رصينة مضغوطة العبارة، يوصي كبار الأعلام بدراسته والمباحثة فيه لأهمّيّته، وهو للعلاّمة السيد على الطباطبائي قدّس سرّه.

الأولى بعنوان «فاجعة الصدر» قلتُ فيها:

كـيف أرْثيكَ ومن ذا يستـطيعُ ... وعـصاني الشعـرُ فالخطبُ مُريعُ
قـد فـقـدْنا أيَّ طَوْدٍ شـامخٍ ... هو حُصنٌ لهـدى الدينِ مَنيعُ
سـيّدي كُنْتَ الأبَ البرَّ لنا ... كلُّنا في فقـدِكَ اليومَ فـجيعُ
نحنُ أيتـامُكَ نبكي حسـرةً ... ولظى نارٍ بهـا تُكوى الضلوعُ
يا أبانا حسـرةٌ لا تنقـضي ... وقلوبٌ والـهـاتٌ ودمـوعُ
يـا أبانـا زفـراتٌ من دم ... أخـريفـاً قـد غـدا ذاك الربيعُ
وحنانٌ من فـؤادٍ خـافقٍ ... بالتُّقى ليس له حـقّاً رجـوعُ
وفـؤادٌ مُفْعَمٌ بالعطفِ وا ... حسـرتاهُ اغْتالَهُ الموتُ الفظيعُ
طودُ علمٍ وجـهـادٍ صـادق ... ضـمّهُ وا أسـفـا التُّربُ الوضيعُ
أيُّهـا ذا الموتُ مـا أنصـفْتَنا ... فـقـد ارْتاعَ بكَ اليومَ الجـميعُ
يندُبُ الدينُ نصـيـراً مُخْلصـاً ... هـو لِلّهِ لـدى الرَّوْعِ مُطيـعُ
تلكُمُ شـخصيّة قـد صـاغـها ... بالتُّقى إسـلامُنا الدينُ الرفـيعُ

وقلت في القصيدة الثانية:

لوعـةٌ في الفـؤادِ تُذري الدُّموعـا ... وأسىً يتـركُ الصـبـورَ جزوعـا
وَشَجـاً في النفـوسِ أجَّجَ ناراً ... فـأبى فيـه صبرُها أن يُطيعـا
حسرةٌ تمتري الدموعَ غـزاراً ... يوم أمسى جميعُنا مفجوعا
قـد فـقـدْنا الأبَ الأبرَّ فـوا ... لهـفي بسهم المنونِ أمسى صريعا
أيَّ شـأوٍ أخيٌّ يبلُغُ راثٍ ... لأبٍ بالحنانِ ضمَّ الجـمـيعـا
وعظيم مـجـاهـدٍ أيُّ فـذٍّ ... عـاشَ لِلّهِ صـابراً ومُطيـعـا
أيَّ شأوٍ سيـبلُغُ الشعـرُ فـيمن ... نال في زحـفـه المقامَ الرفـيعـا

أيّ شــأوٍ نعـــاتُهُ بالغـــوهُ | في زعيمٍ أغرٌّ جافى الهجوعا
إنّمـا الشعـرُ نفـثـة من فـؤاد | مضّه الحزنُ فاسْتحالَ دُموعا
إنّمـا الشعـرُ حسـرةٌ وهمـومٌ | هيَ لولم تُبثّ تُردي الفجيعا
سيّدي كُنتَ في الدُّجى بدْرَ تَمّ | كُنتَ نوراً وملجأً وربيعا
كُنْتَ شمساً لاترتدي ثوبَ ليلٍ | لامغيبٌ لها يُغشّي الطُّلوعا
كُنْتَ للمسلمينَ كهْفاً حصيناً | وملاذاً يُؤْوي اللهيفَ المَروعا
كُنتَ رَوْضاً يؤُمُّك الطيرُ حُبّاً | فَتَلَقّاهُ ناضـراً ومَريعا
كُنتَ للدينِ ناصـراً ومُعِزّاً | تسهرُ الليلَ لوسمعتَ أُضيعا

تصانيفه وتآليفه:

لقد ألّف ـ رحمه اللّه ـ كُتُباً عديدة في الفقه والأُصول والتفسير والرجال، ولكن ـ وممّا يؤسف له ـ لم تُشرق شمسُ الطباعة إلاّ على كتابينِ منها، وأطبق النسيانُ على الباقي:

الكتاب الأوّل: تعليقته على التشريع الجنائي الإسلامي، وقد خرج منه مجلّد واحد، أبدى سيّدنا ـ المترجمَ له ـ فيه رأي فقهاء الشيعة الإماميّة إلى جنب آراء المذاهب السنّيّة الأربعة في هذا الفرع الحيويّ المهمّ من الفقه الإسلامي العظيم، وعند اختلاف فقهاء الشيعة في مسألة تراه يوضّح الرأي السائد فيها، ثمّ يُعقّبه بالرأي الراجح في نظره الشريف وإن كان مخالفاً للمشهور.

وقد سدّ ـ رضوان اللّه عليه ـ بذلك فراغاً في المكتبة الإسلامية والدراسات الإسلامية القضائية، وتمّم بذلك الدراسة الناقصة للأُستاذ

عبدالقادر عودة؛ حيث درس التشريع الجنائي الإسلامي وفق المذاهب الإسلاميّة الأربعة فَحسْب، مقارَناً بالقوانين الوضعيّة، في هذا الحقل، فتمّمها سيدنا المترجَم له؛ لتكون تلك الدراسة وفق المذاهب الإسلامية الخمسة؛ ولذا فقد احتلّ هذا الكتاب مكانه المرموق في المكتبة الإسلامية، ونال الحظوة والمكانة اللائقة بشأنه عند المفكّرين والعلماء والباحثين.

بين يدي الكتاب

الكتاب الثاني: هو «محاضرات في تفسير القرآن الكريم»، وهوالذي نقدّمه للقارئ العزيز، وقد طبع لسيّدنا ـ المترجم له ـ هذا الكتاب في أوائل السبعينات؛ أي بعد رحيله عن الدنيا بعدّة سنين، ولم يحظَ ـ بحسب علمي ـ بإعادة طبعه إلاّ الآن؛ أي بعد مضيّ قرابة ربع قرن على طبعته الأولى.

وحيث إنّ الكتاب لم يطبع تحت إشراف المصنّف رحمه اللّه، ولم تُتِحْ له حوادثُ الدهر الغادر وصروفه وفتنه فرصةً لإعادة النظر فيما ألقاه كمحاضرات في التفسير على مجموعة من طلاّبه، ولم يكن في عمره الشريف متّسع لتنقيحه وتصحيحه وإتمامه؛ لهذه الأسباب وغيرها كانت الطبعة الأولى مليئة بالأغلاط المطبعيّة والسهو والسقوط والتصحيفات، ممّا دعانا إلى القيام بمهمّة تصحيحه وتخليصه ـ بحسب الجهد القاصر ـ ممّا أشرنا إليه من الأخطاء والنواقص؛ أداءً لبعض ما للمصنّف العظيم رحمه اللّه من حقّ علينا.

وإنّ هذا الكتاب يعُيد لي ذكرياتي بالمصنّف العظيم رضوان اللّه عليه، وذلك قبل ما يربو على ربع قرن، حيث حضرنا بعض محاضراته ـ هذه ـ

في التفسير، التي كان ـ رحمه اللّه ـ يهدر في إلقائها على طلابه ومريديه، كالسيل منحدراً من صبب، يكتسح من أمامه الغُثاء والأهواء، ويملأ القلوب والأفكار والأسماع ، ويهدي إلى صراط اللّه المستقيم، وتشعّ كلماته المخلصة بأنوار الهداية، فتشرق لها النفوس، وتستضيىء أعماقها، وتمتلئ بالطمأنينة والرضا.

لقد كان هذا الكتاب ـ الماثل بين يديك ـ مجموعة محاضرات ألقاها سيّدنا المصنّف ـ رحمه اللّه ـ في مسجد الهاشمي في مدينة الكاظميّة بعد صلاتي المغرب والعشاء في أواخر سنيّ عمره الشريف في تلك المرحلة من تأريخ أُمتنا المعاصر حيث الهجمة الإلحادية على عقيدة الأمّة ومقدّساتها التي كانت من أسباب هذه اليقظة الإسلاميّة؛ لذلك تجد هذا الكتاب يتّسم بالدعوة الصادقة إلى الإسلام، والروح العالية في توجيه أبنائه وتثبيتهم على محجّة الحقّ، ومعالجة الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام ويبثّونها كالسموم في أفكار الناس للقضاء على عقائدهم الحقّة، وبالتالي لإقصاء الدين عن الحياة؛ ليتسنّى لهم السيطرة على مقدّرات الأمّة، ونهْب خيراتها، وتوجيهها لخدمة الكفر والاستعمار العالَميَّين.

لقد كانت هجمةُ الأعداء على أُمّتنا شرسةً للغاية، استهدفت أخلاقنا وعقائدنا وديننا الحنيف، وكلّ سلوك قويم وخُلُق كريم، وكلّ شرف وروح خيّرة، استُخدمت فيها كلّ الأسلحة الفتّاكة والوسائل المتاحة لهم، وما أكثرها وأخبثها؟!

وهنا انبرى علماؤنا الأبرار ورُوّاد أُمّتنا الأخيار لمواجهة هذه الحرب الضروس ومنازلة هذا العدوّ اللدود، وتحصين الأمّة وشبابها ضدّ هذه

السموم والأمراض الخبيثة، لاقتلاع جذور الفساد الفكري والسلوكي الذي زرعتْه في نفوس أُمتنا المنكوبة الأيادي المجرمة لعدوّنا التاريخي الصهيوني والصليبي.

وكان سيّدنا الغالي ـ رضوان اللّه عليه ـ من أُولئك الروّاد الأوائل الذين نازلوا الأعداء بكلّ صبر وإصرار؛ دفاعاً عن أُمّتنا المظلومة وذيادة عن ديننا الحنيف، لم يدَّخروا وُسْعاً إلاّ بذلوه، ولم يتركوا سبيلاً مشروعاً إلاّ سلكوه، من أجل الوصول إلى الغاية المقدّسة في حفظ عقيدة الأمّة، والدفاع عن إسلامنا العزيز، وقد حقّقوا في ذلك نصراً عزيزاً، وبارك اللّه تعالى في جهودهم المخلصة، وكلّل جهادهم المرير بالنجاح الباهر، حتى دحروا الأعداء، وأفشلوا مؤامراتهم الخبيثة.

وهكذا قام سيّدنا ـ المترجَم له ـ بدوره الريادي في تلك المرحلة من تأريخ أُمّتنا في العراق العزيز على أحسن وجه، مع إخوانه الأبطال من أُولئك القادة العظام، من روّاد النهضة الإسلاميّة المباركة، واليقظة الدينيّة المقدّسة، وبقي ـ رضوان اللّه تعالى عليه ـ في أداء دوره هذا حتى توفّاه اللّه تعالى، واختار له الدار الآخرة ليلتحق بأجداده الطاهرين ميمون النقيبة طاهر النفس مطمئناً راضياً مرضياً مُلبِّياً لنداء ربّه المتعال: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَ ادْخُلِي جَنَّتِي﴾.(١)

وقد قمنا أداء لبعض حقّه العظيم علينا وعلى أُمّتنا بتصحيح هذا

(١) الفجر: ٢٧ ـ ٣٠.

الكتاب، وتقويم نصّه، وتقطيعه، وتزيينه بعلامات الترقيم الحديثة، وتخريج نصوصه من الآيات والروايات والأقوال.

وقد أعاننا في ذلك فضيلة صهري العزيز دام توفيقه، فقام بتخريج القسط الأكبر من نصوصه، سواء في ذلك الآيات والروايات والأقوال، وبذل غاية وسعه ولم يألُ جهداً في ذلك، فجزاه اللّه خير الجزاء.

ومع ذلك فلا ندّعي أنّنا قد قمنا بالواجب على أحسن وجه، بل نحن نعترف بالتقصير والقصور؛ لقلّة مصادرنا واعتماد المؤلّف ـ رحمه اللّه ـ كثيراً من المصادر القديمة النادرة التي قد يتعذّر تحصيل بعضها ويتعسّر تحصيل بعض آخر منها.

كما أنّ هذا الكتاب ليس له نسخة أُخرى أو طبعة ثانية لنقابله عليها، بل هو نسخة فريدة يتيمة، احتفظتُ بها منذُ قرابة عشرين عاماً؛ لتشقّ في أيّامنا هذه سبيلها إلى الظهور، وترى ـ بعد طول سُبات ـ عالَم النور، وذلك توفيق من اللّه تعالى، عسى أن نكون قد أوفينا بعض حقّ المصنّف العظيم ـ رحمه اللّه ـ علينا.

خصائص الكتاب ومزاياه:

يمتاز هذا الكتاب القيّم بعدّة مزايا وحسنات ـ قد لاتجتمع في سواه ـ نجملها للقارئ الكريم بما يلي:

١ـ طريقته في التفسير: من مزايا هذا الكتاب أنه اعتمد طريقة تفسير القرآن بالقرآن.

فالمصنّف ـ رحمه اللّه ـ وإن سار في تفسيره هذا على خُطى المفسّرين التقليديين متّبعاً طريقتهم في التفسير التجزيئي للقرآن العظيم ابتداءً من أوّل

سوره ـ الفاتحة فالبقرة... وهكذا ـ آية فآية، على أساس الأخذ بظاهر الآية إلاّ ما قام دليل معتبر على خلافه سواء كان هذا الدليل المعتبر الصارف عن الظاهر آيةً أو رواية أو دليلاً عقلياً قطعياً، مع الاستعانة باللغة والفهم العرفي.

أقول: إنّ المصنِّف ـ رحمه اللّه ـ مع اتّباعه لهذه السيرة العامّة للمفسّرين ركّز اهتمامه في تفسيره هذا وفي فهمه لآيات الكتاب العزيز على أساس تفسير القرآن بالقرآن.

وذلك لأنّ القرآن العظيم فيه تبيان لكلّ شيء، فكيف لايكون تبياناً لنفسه، ولأنّ القرآن العزيز ينطق بعضه ببعض، كما وصفه أميرالمؤمنين عليه السلام، ولأجل ذلك كانت هذه الطريقة محطّ نظر المصنِّف رحمه اللّه، كما أوضح ذلك في مقدمّة الكتاب.

٢ـ ركّز المصنِّف ـ رحمه اللّه ـ اهتمامه في تفسيره هذا على المسائل العقائدية المهمّة، وإقامة البراهين المتوالية على أُمّهات العقائد الإسلامية ودفع الشبهات المثارة حولها من قبل العدوّ الكافر المستعمر في حربه الفكريّة لعقائد أُمتنا المنكوبة ووجودها الحضاري العظيم لأجل إنهاء دوره القيادي وإفراغ روح الأمة من زخمها العقائدي.

وقد أشار المصنف ـ قدّس سرّه ـ إلى هذه المزيّة في مقدمة كتابه هذا،وأوضحنا ذلك فيما مرّ من مقدّمتنا هذه.

٣ـ كما يمتاز هذا الكتاب باشتماله على مجموعة بحوث مفصّلة شبه مستوفاة في مواضيعها:

كبحث البسملة الذي تناول فيه المسائل التالية:

اـ جزئية البسملة من كلّ سورة أو من خصوص سورة الحمد أو أنها آية

فذّة مستقلّة مع الاستدلال لكل رأي ومناقشة تلكم الأدلّة وإثبات رأي الشيعة في ذلك من كونها جزءً من كل سورة.

ب ـ مسألة الفعل المقدَّر في «بسم اللّه»، وهل هو «أقرأ» أو «إقرأ» أو «أستعين» أو «إستعِنْ» أو «أبتدئ» أو «إبتدئْ»؟

ج ـ معنى الابتداء باسم اللّه وحقيقة الاسم واتحاده مع المسمّى.

د ـ حقيقة لفظ الجلالة وهل هو اسم جنس للمعبود، أم عَلَم للذات، المقدّسة؟ وهل يصحّ أن يكون وصفاً؟.

هـ ـ معنى الرحمن الرحيم، والفرق بينهما، وسبب تكرار «الرحمن الرحيم» في هذه السورة.

وكبحث «مَالكِ يَوْمِ الدِّين»، والقراءات المعروفة، فيها، وترجيح قراءة «مالك»، والأدلّة على ذلك، ومناقشة أدلّة القراءات الأُخرى، ومعنى المالكية والملكية.

وبحث إعجاز القرآن العظيم وجهاته المتعدّدة: من جهة التحدّي المستمرّ والعجز المستمرّ، ومن جهة عدم الاختلاف، ومن جهة الإخبار بالمغيَّبات، ومن جهة إخباره بأسرار الكون وعجائب الخلقة وقد فصّل في ذلك بإسهاب، ومن جهة اشتماله على النظام الأتمّ الأكمل لسعادة البشريّة.

وكبحث الإمام المهدي ـ عجّل اللّه تعالى فرجه الشريف ـ وهو أكثر البحوث تفصيلاً، تناول فيه ـ رحمه اللّه ـ أُمّهات هذه المسألة العقائدية المهمّة:

ا ـ وجوده المبارك ـ صلوات اللّه عليه ـ وطول عمره الشريف بالأدلّة

المفـصّلة من الكتاب، والـسنة، والإجمـاع، والعقـل، وردّ الشبـهات المثارة حول ذلك.

ب ـ فائدة وجوده غائباً طيلة هذه السنين المتمادية.

ج ـ سيرته ـ سلام اللّه عليه ـ بعد ظهوره المبارك.

د ـ علامات ظهوره صلوات اللّه عليه.

هـ ـ واجبنا في عصر الغيبة ومعنى انتظار الفرج.

وإضافـة إلى هذه البـحوث المفـصّلة توجد في الكتـاب بحوث صـغيـرة مختصرة منتشرة في ثنايا الكتـاب وضمن بحوثه المفـصّلة: كبحث الحـمد وحقيقـته، وبحث «العالَمين» ومعنى العالَم، وبحث العبـادة والاستعانة باللّه وانحـصارهـما به تعـالى، وبحث السـجـود على التـربة الحـسـينيـة، وبحث الصراط المـستقـيم، والهداية والضـلال، وبحث الحروف المقطّعـة في اوائل بعض السـور، وبحث حـقـيقـة كـون القـرآن هُدًى واخـتصـاصـه بالمتّقين، وبحث الإيمان بالغيب، وبحث حول حديث **«لايزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة، ويكون عليهم اثناعشر خليفة كلّهم من قريش»**.

٤ـ ومن مزايا هذا الكتاب أنّه يـشتمل على دروس عمليّة مسـتوحاة من الآيات المفسّرة يختتم بها تفسير كلّ واحدة منها.

والمصنّف ـ رحمـه اللّه ـ يقصـد من هذه الدروس توجيـه الشبـاب نحو القـرآن العظيم؛ ليكون نبـراسـاً لهم في حيـاتهم العـمليّة، وهادياً لهم نحـو الصراط المستقـيم؛ ليعيـشوا معـانيه وهدايتـه في تفاصيل شؤونهم الحيـاتية وجزئيّات سلوكهم.

وسـتـقف عند مطالعـتك هذا الـكتـاب بتـأمّل على مـزايا أُخـرى تركنا

ذكرها خشية الإطالة والإملال، كما أنّها لا تخفى على فطنة القارئ الكريم.

هذا آخر ما أحببنا إيراده في هذه المقدمة من تسليط ضوء يسير على بعض جوانب المؤلِّف والكتاب.

وفي الختام أتقدّم بالشكر الجزيل والدعاء المخلص لكلّ من أعاننا على تحقيق هذا الكتاب، وساهم في إخراجه ثانية إلى الملأ المؤمن؛ لينتهلوا من عذب فراته، أخصّ بالذكر فضلية أخي الوفيّ الأستاذ المجاهد الشيخ عبد الجبار الرفاعي رفع اللّه شأنه في الدارين؛ فقد كانت له اليد الطولى في إخراج هذا الكتاب إلى الوجود ثانية، وكذا جناب الفاضل الزكيّ السيّد محمد تقي الهاشمي ـ حفظه اللّه تعالى ـ الذي قام بطبع هذا الكتاب ونشره على نفقته الخاصّة، فجزاه اللّه تعالى عن المصنِّف ـ رحمه اللّه ـ وعنا خير الجزاء، واللّه المسؤول أن يتقبل جهود الجميع بأحسن القبول، وأن يمنّ علينا برضاه وحسن الختام.

سامي الخفاجي

قم المقدّسة

٣/جُمادى الآخرة/١٤١٣هـ

مصادر المقدمة:

١ـ مقدمة كتاب مباحث الأُصول لآية الله السيد كاظم الحائري.

٢ـ دروس في علم الأُصول لآية الله العظمى الشهيد السيد محمدباقر الصدر و مقدمته في حياة المؤلف للحجة السيد علي اكبر الحائري.

٣ـ مقدمة تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام للعلاّمة الأكبر السيد حسن الصدر، والمقدمة منقولة عن كتاب «بُغية الراغبين في أحوال آل شرف الدين» للعلاّمة الأكبر السيد عبدالحسين شرف الدين.

٤ـ التشريع الجنائي الإسلامي.

٥ـ كتابنا هذا.

٦ـ مذكّراتي الخاصّة.

المقدمة

وهي تشتمل على عدة امور:

١ـ فضل القرآن .

٢ـ طريقتنا في التفسير .

٣ـ تنزيه القرآن عن الاغلاق والتعقيد .

١ـ فضل القرآن

وجديرٌ بنا في هذا المجال أن نقفَ معترفين بالعجز عن تقييمِ القرآن حقَّ قيمته واستيعابِ جوانب عظمته، مكتفين بنعوته العظيمة التي جاءت في كلام أميرالمؤمنين علي عليه الصلاة والسلام، تلميذ القرآن والواقف على أسراره، وهو يتحدث عن عظمة القرآن ومدى تأثيره، فقد قال ـ بعد ذكر النبي الأعظم ـ صلّى اللّه عليه وآله ـ: **((ثُمّ أنْزلَ عَليه الكتابَ نُوراً لا تُطفَأُ مَصابيحُهُ، وسراجاً لا يَخبَأُ[1] توقُّدُهُ، وبَحراً لا يُدركُ قَعْرُه، وَمنهاجاً لا يَضلُّ نَهجُهُ، وَشُعاعاً لا يُظلِمُ ضَوْؤُه، وفُرقاناً لا يَخمُدُ بُرهانُهُ، وتِبياناً لا تُهدَمُ أركانُهُ، وشِفاءً لا تُخشى أسقامُهُ، وَعِزّاً لا تُهزَمُ أنصارُهُ، وَحَقّاً لا تُخذَلُ أعوانُهُ))**[2].

ولنقتصرْ ـ للاختصار ـ على شرح فِقْرة من هذه الفقرات الرائعة المُشعّة بعظمة القرآن الكريم، وهي الفِقْرة الأولى: **((نُوراً لا تُطفَأُ مَصابيحُه))**: فإنّ

---

(١) خَبَأَ الشيءَ يَخبَؤُهُ: سَتَره، وخَبَئَتِ النارُ تَخبَأُ: خَمَدَتْ. اللسان ١: ٦٣ مادّة: خبأ.

(٢) نهج البلاغة ـ صبحي الصالح ـ: ٣١٥ من الخطبة: ١٩٨.

القرآن الكريم هو بحقّ ـ كما وصفه الإمام ـ نورٌ لا تُطفأُ مصابيحه، وهذه الصفة تنطبق على القرآن بعدّة اعتبارات:

الأوّل: باعتباره معجزةً للنبيّ الأعظم، ودليلاً على نُبوّته وصحّة دينه وشريعته، لا في صدر الإسلام فحسب، بل في جميع العصور والقرون.

فإنّ الإسلامَ بوصفه الشريعة الخاتمة ـ التي يُكلِّف البشر باتّباعها والاعتقاد بها إلى يوم القيامة ـ يكونُ بحاجة إلى مُعجزة دائمة، يستطيع كلّ جيل من أجيال البشريّة الاطّلاع عليها؛ لاستكناه سرّ إعجازها، وهذه المعجزة هي القرآن، فهو يمتاز على سائر معاجز الأنبياء بإمكانيّة البقاء والاستمرار، بينما هي محدودة آنيّة لا يطّلع عليها إلاّ مَن عاصَرها، أو قاربَ عصرَها ممّن تواترَ لديه نقلُها.

ولأجل ذلك لم يكن من الممكن أن تستمرّ النبوّات والشرائع السابقة، ما دامت معاجزها محدودة وغير مستمرّة، وعلى العكس من ذلك الإسلام، فإنّه قادر على البقاء؛ لأنه يملك معجزةً باقيةً يمكن لأبناء هذا العصر أن يدرسوها، و يَستكْنِهوا أسرارَ إعجازها، كما أمكن للصحابة.

بل إنّ العصر الحديث يستطيع أن يستكشفَ عناصرَ جديدةً من إعجاز القرآن يُضيفها إلى الإعجاز الأدبي، كالإعجاز العلمي الذي يتمثّل في الآيات المشيرة إلى أسرار الكون التي كانت مجهولةً لدى البشرية وقتئذ، ولم تكن معروفةً حتى في مراكز العلم والحضارة، فضلاً عن مجتمع أُمّي جاهل، كالمجتمع الذي نشأ فيه النبيّ.

وكذلك الإعجاز التشريعي الذي يُبرهن عليه عجزُ البشرية عن التوصّل

إلى نظام اجتماعي كنظام الإسلام؛ لتفوُّقِه على جميع الأنظمة التي مارسها الإنسان، حتّى في أرقى أدواره وأحدثها. فكيف يُتاح لفردٍ أن يأتيَ بذلك النظام المُتفوِّق، في مثل الظروف التاريخيّة التي عاشها النبيّ، لو لم يكن مُعبِّراً عن رسالة السماء؟!

الثاني: من الاعتبارات التي يكون القرآن بموجبها نوراً لا تُطفأ مصابيحه: هو اعتباره بوصفه قانوناً ونظاماً عالميّاً شاملاً لجميع الأزمنة والعصور، قادراً على إسعاد البشريّة وإنصاف كلّ فرد وفئة ومجتمع وعصر؛ لأنّ واضع هذا النظام هو اللّه تعالى، المترفّع على التحيُّز لفرد على فرد، أو لفئة على فئة، أو لمجتمع أو عصر على حساب سائر المجتمعات أو العصور، وليس كالإنسان ـ أيّ إنسان ـ الذي يحمل كثيراً من الأهواء، وينفعل بكثير من العواطف والمصالح والمطامع الخاصّة، مما يُؤدّي إلى تحيُّز النظام الذي يصنعه الإنسان، وعدم قدرته على استيعاب جميع المصالح بدرجة متساوية، ولعلّ أمير المؤمنين يُشير إلى هذا بقوله ـ في كلام آخر يصف فيه القرآن ـ ((**وَهُوَ الّذي لا تَزيغُ بِهِ الاهواء**))[1].

وقد يقال بهذا الصدد: إنّ واضع النظام في عصر كيف يمكنه أن يستوعِبَ بنظره كلّ العصور المتأخّرة وحاجاتها؛ ليضع نظاماً يلائم جميع العصور، ويفيَ بكلّ تلك الحاجات؟!

وهذا القول لا يصدق على النظام الإسلامي؛ لأنه من تشريع اللّه الّذي تستوي العصور كلُّها في نظره؛ فهو عالم الغيب والشهادة.

---

(١) سنن الدارمي ٢: ٤٣٥ كتاب فضائل القرآن، التفسير الكبير ٢: ٤، صحيح الترمذي ١١: ٣٠ أبواب فضائل القرآن، البحار ٩: ٧ عن تفسير العياشي.

وقد يقـال: إنّ النظام لّما كان وَليـدَ الحاجـات، وكانت حـاجاتُ البـشر تختلفُ باختلاف العصور، فلابدّ أن يكون لكلّ عصر نظامٌ خاصّ.

والجواب: أنّ النظام وإن كان وليد الحاجـات، غير أنّ في حياة الإنسانيّة حاجات ضرورية عامّة لا تتفاوت باختلاف العصور والأزمنة غالباً، والنظام وليد هذه الحاجات.

والاختـلاف في بعض الموارد لاحظه الشـارع المقـدّس، وجعلَ قـواعـد كُلّية تخـتلف مصـاديقها باخـتلاف العـصور، و أوكَلَ إلى الفقـيه اسـتنباط علاج الحاجات المُستجدّة منها، كما أعطى لوُلاة الأمر مجالاً مفتوحاً لكثيرٍ من التطويرات حسب مقتضيات المصلحة في بعض النقاط.

الثـالث: أنّ القرآن لاتُطفـأُ مصابـيحه؛ لأنـه الكتاب السـماويّ الوحـيد الذي كـان منذُ نزوله ـ ولا يزال وإلى الأبد ـ قُدوةً لجـمعٍ من الناس، وذلك أنّ القـرآن لم يمضِ عـليــه وقت لم يكن في أيـدي الناس[1] من المؤمنين به والمقتدين بُهداه، وسيـظلّ كذلك؛ لما دلّ على بقاء الاسلام والمسلمين إلى يوم القيامة، الملازم لبقاء القرآن نوراً يُستضاء به.

وعلى العكس من ذلك بقيّةُ الكتب السماويّة؛ إذ مرّت عليها عصور لم تكن فيهـا متداولة بين الناس، وسيأتـي عليها زمان لايقتـدي بها أحد، حين تتمّ السيادة للإسلام، ويظهر المهديّ عليه السلام.

الرابع: أنّ القـرآن لا تُطفأُ مصـابيحـه؛ أي آياته؛ لأنه الكتاب السـماويّ الوحـيـد الذي سَلِم من التـحـريف والزيادة والنقـصـان، فظلّت آياته منيـرةً

(١) كذا، والظاهر أنّ الصحيح: في أيدي أُناس من المؤمنين ...

لأجل احتفاظها بكلّ خصائصها، وبقائها بنصّها دون تغيير.

ومن الواضح أنّ عدم تحريف القرآن هو الرأي الذي اعتمد عليه المحقّقون من علماء الشيعة، وقد نسب القول بعد تحريف القرآن إلى عقيدة الشيعة كلّ من شيخ الطائفة الشيخ أبي جعفر الطُّوسيّ في مقدمة تفسيره «التبيان»[1]، والفقيه الكبير الشيخ جعفر صاحب «كشف الغطاء» في كشفه[2]، والعلاّمة المجاهد البلاغيّ في تفسيره «آلاء الرحمن»[3].

ويدلّ على ذلك بعض الآيات الشريفة والأخبار المباركة، نقتصر على ذكر آية مباركة واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ، وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ**﴾[4]، فإنّ الظاهر من كلمة «الذكر» أنها القرآن، ومن حفظه عدم نقصانه وزيادته.

وقد يناقش في هذا الاستدلال بأُمور:

منها: أنّ المراد بالذكر هو رسول اللّه ـ صلّى اللّه عليه وآله ـ، فلا تدلّ الآية على حفظ القرآن من النقص.

ولا يخفى ضعف هذا الإشكال؛ لأنّ ظاهر الذكر هو القرآن الكريم، ولا يجوز رفع اليد عن ظاهر الكتاب إلاّ بدليل معتبر، ولا دليل في المقام على ذلك.

مُضافاً إلى أنّ لفظ الذكر قد ذكر في القرآن الكريم في بعض الآيات

(١) التبيان ١: ٣.

(٢) كشف الغطاء: ٢٩٨ سطر ٣٦ ـ ٣٧.

(٣) آلاء الرحمن في تفسير القرآن ١: ٢٥ ـ ٢٩.

(٤) الحجر: ٩.

وأُريد منه نفس القرآن جزماً.

كما في قوله تعالى في سورة الحِجْر: ﴿يا أيُّها الّذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إنَّكَ لَمجنُون﴾[1] وواضح أنّ المراد بالذكر هنا القرآن؛ لأنّه المنزَّل، والنبيُّ هو المنزَّل عليه القرآن.

وكذلك قوله في سورة الطلاق ﴿قَدْ أنزَلَ اللّهُ إلَيْكُمْ ذِكْراً﴾[2] إذ لاريب أنّ المراد بالذكر القرآن لا النبيّ، وإلاّ كان الأنسب أن يُقال: «أرْسلْنا» بدلا من «أنْزَلْنا».

ومنها: أنّ المراد بحفظ الذكر القرآني حفظ من الاعتراض والإشكال عليه، لاحفظه من الزيادة والنقصان.

ويرد عليه: أنّ حفظه من الاعتراض: إن أُريد به الحفظ من أيّ اعتراضٍ مهما كان سخيفاً، فهذا غير محتمل؛ لأنّ كثيراً من أعداء القرآن اعترضوا على القرآن باعتراضات غير صحيحة.

وإن أُريد به الحفظ من الاعتراض الصحيح والإشكال المركّز، فهذا غير معقول؛ لأنّ الكتاب الكريم ـ بحكم كونه كتاباً إلهيّاً ـ مصونٌ ذاتاً عن ورود الإشكال عليه، فلا داعي لحفظه من ذلك.

وبتعبير آخر: أنّ ظاهر الآية أنّ هناك أمراً كان مُمكنَ الحصول لولا تعهُّد اللّه تعالى بعدمه، والإشكال الوارد مستحيل بالنسبة إلى الكتاب الكريم.

---

(١) الحجر: ٦.

(٢) الطلاق: ١٠.

ومنها: أنّ الآية إنّما تدلّ على حفظ القرآن، وهو يصدق مع وجود نسخة واحدة سالمة من الزيادة والنقصان، ولا إشكال أنّ النسخة الكاملة موجودة عند صاحب الأمر عجّل اللّه فرجه.

ولا يخفى أنّ ظاهر الحفظ هو أنّ القرآن بجميع نسخه المتعارفة محفوظ من الزيادة والنقصان؛ لوضوح منافاة النقص مع الحفظ، وصحّة إطلاق النقص مع سقوط بعض الآيات من المصاحف الموجودة، وإن كانت هناك نسخة محفوظة من النقصان عند صاحب الأمر الإمام المهديّ أرواحنا فداه.

نعم بإزاء هذه الآية المباركة ـ وغيرها من الآيات[١] والأخبار[٢] الدالّة على عدم نقصان القرآن ـ أخبار أُخرى استُدِلّ بها للقول بالنقصان، و قد وردت بعضها من طرقنا [٣]، و بعضها من طرق حُفّاظ أهل السنّة[٤].

ولكنها ليست ممّا يُعتمد عليه، ولا تتعارض مع الآية المذكورة وغيرها من أدلّة كمال القرآن الشريف؛ لوجوه متعدّدة:

أوّلها: أنها ضعيفة الدلالة، وأكثرها ضعيفة السند أيضاً.

---

(١) كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ. لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ حم السجدة: ٤١-٤٢.

(٢) عيون أخبار الرضا ٢: ٥٦/ ح ٢٠٩، أمالي الصدوق: ٤٣٨/ح ١١ ـ ١٣.

(٣) الكافي ٢: ٦٣٤ باب النوادر من كتاب فضل القرآن، التفسير الصافي: ١٤.

(٤) صحيح مسلم ٣: ١٠٠.

والثاني: أنها مُعرَض عنها من قِبَل المحقّقين من أصحابنا.

الثالث: أنها مخالفة لظاهر الآية المذكورة وغيرها من الأدلّة الدالّة على الكمال، وهذه المخالفة توجب إسقاط تلك الأخبار عن الحجيّة وإن قَوِيَ سندُها وتمّت دلالتها؛ نظراً للأخبار المعتَبرة المرويّة عن أهل البيت ـ عليهم السلام ـ المصرّحة: بأنّ ما خالف كتاب الله لم نَقُلْهُ[1]، أو هو زخرف[2]، وبعضها تأمر بطرح ماخالف كتاب الله [وبالضرب به][3] عرض الجدار.[4]

وإن سُلّم أنها لا تسقط بذلك عن الاعتبار، فلا إشكال بأنّ الأخبار الدالّة على عدم النقصان أرجح.

ومن الغريب أن يطعن الشيخ محمد أبوزهرة في كتابه «الصادق»[5] في إسلام ثقة الإسلام الكُلَيْنيّ مؤلّف كتاب «الكافي»[6]؛ لأنه ذَكَر في

(١) الوسائل ١٨: ٧٩/ ١٥ باب ٩ من أبواب صفات القاضي، باختلاف يسير.

(٢) الوسائل ١٨: ٧٨ ـ ٧٩/ ١٢ و١٤ باب ٩ من أبواب صفات القاضي.

(٣) إضافة يقتضيها السياق.

(٤) مجمع البيان ١: ١٣، التفسيرالصافي: ٩/ سطر ١٠.

(٥) الإمام الصادق: ٣٢٦.

(٦) الكُلَيني: هو محمدبن يعقوب بن إسحاق الكُلَيْنيُّ الرازيُّ، و يُعرف ـ أيضاً ـ بالسلسليّ البغدادي.

كان شيخ الشيعة في وقته بالريّ ووجههم، ثمّ سكن بغداد في درب السلسلة بباب الكوفة، انتهت إليه رئاسة فقهاء الإمامية في أيّام المقتدر.

وقد أثنى عليه نَقَدَةُ الرجال وعلماء الإسلام بأبلغ الثناء وأعطر المديح، فهو شيخ الشيعة، وأوثق الناس في الحديث، وأثبتهم وأعرفهم به، المتّفق على

كتابه أخباراً تدلّ على نقصان القرآن الكريم[1].

ولا أدري هل أنّ خروجه عن الإسلام لمجرّد نقْلِ ما يدلّ على النقصان،

ثقته وأمانته، من مجدّدي الأمّة على رأس تلك المائة، رئيس المحدّثين، ثقة الإسلام وأمينه، الشيخ الأقدم، المسلّم بين العامّة والخاصّة، والمفتي لكلا الفريقين.

وكان رحمه اللّه عالماً حجّة، محدّثاً ثقة متكلّماً بارعاً، عارفاً بالرجال مصنّفاً فيه، من أفاضل حملة الأدب، وعن أرباب الفصاحة والبلاغة، وفحول أهل العلم، وشيوخ رجال الفقة، وكبار أئمة الإسلام، كما أنه من أبدال الزهادة والعبادة والإخلاص.

أشياخه لايتناهون كثرة من علماء أهل البيت ـ عليهم السلام ـ ورجالهم، كما أنّ تلامذته والرواة عنه جمٌّ غفير.

وكانت حياته في زمان وكلاء المهديّ ـ عليه السلام ـ ووفاته قبل وفاة عليّ بن محمد السَّمَريّ رابع السفراء الكرام رضوان الله عليهم، وذلك في عام ٣٢٩هـ.

قبره ببغداد بمقبرة باب الكوفة في الجانب الغربي على يسار العابر من الجسر قريباً منه يزوره العامّة والخاصّة.

وأشهر كتبه وأسيَرُها هو كتابه «الكافي»، والّذي كان معروفاً بالكُلَيني، وقد ألّفه في عشرين سنة، وهو من أجلّ كتب الشيعة، وتزيد أحاديثه على ما في الصحاح الستّ عند العامّة، فعدّة أحاديثه «١٦١٩٩» حديثاً بينما لا يتعدّى ما في الصحاح الستّ «١٦٠٠٠» حديث.

مصادر هذه التعليقة: رجال النجاشي: ٢٦٦ ـ ٢٦٧، الفهرست: ١٣٥، رجال العلاّمة الحلّي: ١٤٥، رياض العلماء ٥: ١٩٩، تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ٨٨، كما اعتمدنا كثيراً على مقدّمة الكافي للدكتور حسين علي محفوظ.

(١) الكافي ٢: ٦٣٤ باب النوادر من كتاب فضل القرآن.

أو لأنّ ذلك كاشف عن اعتقاده بذلك، وأنّ الاعتقاد المذكور يوجب الكفر؟

فإن كان الحكم بعدم إسلامه لأجل مجرّد نقْلِ أخبار النقصان، فيرد عليه عدم وجود أيّ دليل يوجب حصول الكفر بذلك، فهو إذا التزم بذلك يتحتّم عليه أن يحكم بكفر «البخاري» و«مسلم»، فإنّهما رَوَيا ـ أيضاً ـ ما يدلّ على ذلك:

فالأوّل ينقل ذلك عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب[1].

والثاني ينقله عن أُمّ المؤمنين عائشة[2].

وإن كان النقل يدلّ على الاعتقاد، فلازم ذلك أنّ نَقْل «البخاري» و «مسلم» ذلك يكشف عن اعتقادهما به.

ولا يخفى أنّ مجرّد النقل لا يدلّ على الاعتقاد، فعلماء الحديث ـ كالشيخ الكُلَيْني ـ يذكرون جميع الأخبار التي تُروى لهم؛ ليختار منها العلماء ما يرونه صحيحاً.

والدليل على ذلك: أنه ذكر في كتابه ما يدلّ على النقصان[3] وما ينفي النقصان[4] في وقت واحد، فهل كان يعتقد بالمتناقضين معاً؟!

وإن سلّمنا أنّ النقل كاشفٌ عن الاعتقاد، فأيٌّ دليل على أنّ الاعتقاد بالنقصان يوجب الكفر والخروج عن الدين.

---

(١) البخاري ٨: ٢٠٩ باب الحدود.

(٢) صحيح مسلم ٤: ١٦٧.

(٣) الكافي ٢: ٦٣٤ باب النوادر من كتاب فضل القرآن.

(٤) الكافي ٢: ٥٩٦ ـ ٦٣٣ كتاب فضل القرآن.

ولا يلتزم الشيخ أبو زهرة بذلك، وإلا للزم أن يحكم بكفر عمر بن الخطاب وأُمّ المؤمنين عائشة؛ فإنّ الشيخ البخاري يروي عن عمر أنه كان يقول: (إنّه كان في القرآن آيةُ الرجْمِ وحُذِفتْ)[1]، ويروي الشيخ مسلم عن أُمّ المؤمنين عائشة[2].

إذن فلا بدّ للشيخ أبي زهرة أن يلتزم بأحد أُمور ثلاثة: إمّا بعدم الملازمة ما بين النقل والاعتقاد، وإمّا بعدم اعتبار صحيح البخاري ومسلم، وإمّا بكفر مَن روى عنهم الشيخان في صحيحهما القولَ بالنقصان[3].

الخامس: أنّ القرآن نور لا تُطفأ مصابيحه؛ لأنّ آياته الكريمة لاتختصّ بمورد جزئيّ، حتى تلك الآيات التي وردت في مورد خاصّ، وفُسّرت على ذلك الاساس، فإنها بصدد بيان معنىً عامّ يستفيد منه الجميع، كما نصّت على ذلك أخبار صحيحة وردت عن أهل البيت، تؤكد عموميّة الآيات، وأنّ المورد الذي نزلت فيه، أو الذي فسرت في الحديث به، ليس في الحقيقة إلاّ بعض مصاديق المفهوم القرآني.

---

(١) البخاري ٨: ٢٠٩ باب الحدود.

(٢) صحيح مسلم ٤: ١٦٧.

(٣) يمكننا أن نستفيد من مجموع كلامه ـ رحمه اللّه ـ الحصرَ التالي:
الشيخ أبوزهرة: إمّا يقول بالملازمة بين النقل والاعتقاد وبصحّة البخاري ومسلم، فلا بدّ أن يحكم بكفر البخاري ومسلم وبكفر عمر وعائشة. هذا بناء على أنّ هذا الاعتقاد موجب للكفر.
وإمّا لايقول بالملازمة ولابصحّتهما مطلقاً، فيَسْلم الكُليني ـ رحمه اللّه ـ والبخاري ومسلم وعمر وعائشة من التكفير.

فعن الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ أنّه قال: ((والآية حيّة لا تموت، فلو كانت الآية إذا نزلت في الأقوام وماتوا ماتت الآية، لمات القرآن، ولكن هي جارية في الباقين، كما جرت في الماضين))[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: ((أنّ القرآن حيّ لم يمُتْ، وأنه يجري كما يجري الليل والنهار، وكما تجري الشمس والقمر، ويجري على آخرنا كما يجري على أوّلنا))[٢].

وعنه عليه السلام ((أنّه قال لعمر بن يزيد ـ لمّا سأله عن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾:[٣] هذه نزلت في رَحِم آل مُحمّد، وقد تكون في قرابتك، فلا تكونن ممّن يقول للشيء: إنه في شيء واحد))[٤].

وهذه الأخبار تسمّى في عُرف العلماء أخبار الجري لما فيها من كون القرآن يجري كما يجري الليل والنهار والشمس والقمر.

السادس: أنّ القرآن نور لا تُطفأ مصابيحه؛ لأنه لم تُستَوْفَ جميع معانيه ـ ولا تُستوفى ـ في عصر واحد، بل يُكشف[٥] في كلّ عصر

---

(١) تفسير العياشي ٢: ٢٠٣ ـ ٢٠٤/ ح٦، البرهان ٢: ٢٨١/ ح١٥.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) الرعد: ٢١.

(٤) البرهان ٢: ٢٨٨/٤ عن الكافي ٢: ١٥٦/٢٨ باب صلة الرحم من كتاب الإيمان والكفر.

(٥) في الأصل: ينكشف ...

عن معانٍ جديدة لم تُعرف قبل ذلك، كما يُكشف[1] في العصر الحاضر عن أسرارٍ من دُنيا الكون والطبيعة لم تكن لتُفهم حقّ الفهم قبل أن يحلَّها[2] العلم. وسوف نعرض لتلك الآيات في مناسبة مقبلة إن شاء اللّه تعالى.

(١) في الأصل: تكشف ...

(٢) في الأصل: «يجلّها...»، ويحتمل أنّها تصحيف لكلمة «يجلّيها».

٢ـ طريقتنا في التفسير

[التفسير وطرق المفسّرين]

التفسير[١]: هو بيان معاني الآيات القرآنية والكشف عن مقاصدها ومدلولها.

ولقد اختلفت طرق المفسّرين في التوصّل إلى تلك المعاني وكيفية الكشف عن مقاصد الآيات ومعانيها:

فاقتصر بعضهم في تفسيره على ما ذكر في الأخبار والروايات[٢]

---

(١) التفسير في اللغة: هو كشف المراد عن اللفظ المشكل. (مجمع البيان ١ :١٣، اللسان ٥ :٥٥ مادّة «فسر»، مشتقّ بالاشتقاق الصغير من «فسر» المشتقّ بالكبير من «سفر». (مقدّمة مجمع البيان ١ :١).
والفَسْر: كشف المغطّى، والسَّفْر: الكشف والجلاء والظهور. (اللسان ٤ :٦٩ ـ ٣٧٠ مادة «فسر»، مقدمة مجمع البيان ١ : ١).
والذي ذكره المصنّف رحمه الله هو معنى التفسير في اصطلاح علماء القرآن والمهتمّين بشؤونه. وهم وإن اختلفت كلماتهم في تعريفه، لكن محورها هو المذكور أعلاه.

(٢) كالعياشي والقمّي والبرهان ونور الثقلين من تفاسير الشيعة، ومن تفاسير العامّة

ولم يعتمد على عُرف ولا لُغة، حتّى في تفسير الآيات الظاهرة في معناها عُرفاً، كما لم يعتمد على دليل العقل ولا على الاستحسانات الذوقية في شيء.

وفي النقطة المعاكسة لهؤلاء المفسّرين النصوصيّين طائفة أُخرى فسّرت القرآن برأيها[1]، وحملت الآيات المتشابهة على ما يقتضيه ذوقها وإن لم يعيّن العُرف واللغة معناها، ولم تعتمد في تفسيرها على أهل بيت العصمة.

[المعتبر و غير المعتبر من ظاهر الكتاب العزيز]:

والطائفتان معاً أخطأتا سبيل الصواب، فإنّ الآيات القرآنية قسمان:

القسم الأوّل: ما يكون لها معنىً ظاهر عرفيّ كقوله تعالى **﴿أَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا﴾**[2] سواء أمكن تحديد ذلك المعنى الظاهر لها بالنظرة الأولى، أم توقّف على التأمُّل والتدبّر.

وهذا القسم يؤخذ بمعناه الظاهر المنكشف بالنظرة الأولى أو بالنظرة التأمُّلية.

وليس هذا من التفسير بالرأي المنهيّ عنه شرعاً؛ لأنّ التفسير بالرأي عبارة عن الاعتماد على الاستحسانات العقليّة والأذواق الشخصيّة، ومن يحمل الآية على معناها العرفي لايقال عنه: إنه فسّرها برأيه، بل يقال: فسّرها بمعناها اللُّغوي والعرفي؛ لأنّ التفسير بالرأي لابدّ أن يكون للرأي

تفسير الطبري والدّر المنثور.

(١) كقتادة وأبي حنيفة وغيرهم.

(٢) البقرة: ٢٧٥.

مدخلية في معناه، وليس في حمل الآيات على معناها العرفي واللغوي أيّ مدخلية للرأي.

بل ليس الحمل من التفسير في شيء؛ لأنّ التفسير ـ كما عرفت ـ إنّما هو الكشف عن مقاصد الآية ومدلولها، والآيات الظاهرة في معانيها لاتحتاج إلى كشف؛ فإنّ المفسِّر لا يكشف ـ حين بيانه لمعاني هذه الآيات ـ عن معانٍ خفيّة ومقاصد مستورة؛ ليكون من التفسير اللُّغويّ والاصطلاحي.

ولو افترضنا جدلاً: أنّ عملية حمل الآية على معناها الظاهر تفسير لها بالرأي، فلا شكّ في جوازه وعدم شمول الأخبار الناهية عن التفسير بالرأي، لذلك؛ إذ لو كانت جميع الآيات القرآنيّة بما فيها الآيات الظاهرة في معانيها ممّا لا يمكن فهم معانيها منها إلا بواسطة الأخبار لم يكن معنىً لقوله ـ صلّى اللّه عليه وآله ـ: ((**إنّي مُخلّف فيكمُ الثَّقَلَين: كتابَ اللّه وعترتي أهلَ بيتي، لن تضِلّوا ما إن تمسّكتُم بهما**))[1]، ومن المعلوم أنّ المرادَ من التمسُّك بهما العملُ بما يأمرانِ به والانتهاء عما ينهيانِ عنه، وإذا لم يمكن الاعتماد على ظواهر الكتاب إلاّ بمعونة الأخبار، فمعنى ذلك أنّ القرآن وحده لا يمكن التمسُّك به.

وكيف يتوقّف فهم القرآن على الأخبار، مع أنّ الشارع جعله ميزاناً لصدق الرواية وكذبها، فقد رُوِيَ عن أئمة أهل البيت أنهم قالوا:

---

(١) معاني الأخبار: ٩٠ ـ ١/٩١ ـ ٥ باب معنى الثقلين والعترة، إثبات الهداة ١: ٢٥/٤٤٤ باب ٩ في النصوص العامّة ...، البرهان في تفسير القرآن ١: ٩ ـ ١٤ باب ٣ في الثقلين.

((اعرضوا حديثنا على كتاب الله، فما خالفه لم نَقُلْه))[1]، وجعله ـ أيضاً ـ ميزاناً لترجيح رواية على أُخرى، فإذا تعارضت روايتان، وكانت إحداهما موافقة للكتاب وأُخرى مخالفة، وجب ترجيح ما وافق الكتاب[2]، وجعله الشارع ـ أيضاً ـ مناطاً لصحّة الشرط وفساده، فما وافق الكتاب من الشروط صحيح، وما خالفه فاسد؟!

ومورد هذه الأدلّة الآياتُ ذات المعاني الظاهرة، فتخصّص ما دلّ على النهي عن تفسير القرآن بالرأي لو افتُرِض شمول النهي لهذه الصورة.

نعم نحن لا نعتمد على ظاهرالآيات المباركة في حالتين:

إحداهما: أن يرد تفسير لها على خلاف ظاهرها في آية أُخرى أو رواية معتبرة مرويّة عن النبيّ أو عن أهل بيته الثّقْلِ الثاني الذي أُمِرنا بالتمسّك به[3]، وذلك كما في قوله تعالى **﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهيمُ لأَبيه﴾**[4] فإنّ الواجب رفع اليد عن ظاهر هذه الآية الدالّ على أنّ والد إبراهيم كافر، وذلك للأخبار المفسِّرة للأب بالعمّ[5]، كما يمكن استفادة ذلك من نفس القرآن

---

(١) الوسائل ١٨: ٧٩/١٥ باب ٩ من ابواب صفات القاضي باختلاف يسير.

(٢) الوسائل ١٨: ٨٤ ـ ٨٥/٢٩ و ٣٠ و ٣١ باب ٩ من ابواب صفات القاضي.

(٣) معاني الاخبار: ٩٠ ـ ٩١/١ ـ ٥ باب معنى الثقلين والعترة، البرهان في تفسير القرآن ١: ٩ ـ ١٤ باب ٣ في الثقلين، إثبات الهداة ١: ٤٤٤/٢٥ باب ٩ في النصوص العامة ...

(٤) الأنعام: ٧٤.

(٥) راجع البحار ١٢: ٤٨ ـ ٤٩.

ـ أيضاً ـ كما سنشير إلى ذلك في محلّه[1].

---

(١) حيث لم تتسع بالعلاّمة المصنّف ـ رحمه اللّه ـ فسحة العمر ليصل إلى هذا الموضع من تفسيره أحببنا ألاّ تفوت القارئ الكريم هذه الفائدة الدقيقة، فأتحفناه بخلاصة مقولة العلاّمة الكبير السيّد الطباطبائي ـ قدس سره ـ في شأنها من تفسيره (الميزان ٧: ١٦٢ ـ ١٦٥) حيث ضمّ الآيات المتعرضة لقصّة إبراهيم مع أبيه بعضها إلى بعض ليصل إلى هذه النتائج:
إنّ إبراهيم في أوّل بعثته دعا رجلاً من قومه هو أبوه «آزر» إلى التوحيد ونَبْذ الأصنام، وألحّ عليه بدعوته محاولاً هدايته، لكنّ أباه «آزر» أصرّ على الكفر وطرده، فسلّم عليه إبراهيم، ووعده أن يستغفر له. (مريم: ٤١ ـ ٤٨).
ثمّ يذكر اللّه سبحانه أنّ إبراهيم أنجز وعده، واستغفر لأبيه الضالّ. (الشعراء: ٨٦).
ثمّ اعتذر اللّه سبحانه عن استغفار إبراهيم لمشرك ولو كان من أُولي القربى، وأنّ استغفاره هذا لأبيه الكافر إنّما كان ﴿عَنْ مَوْعِدَةٍ وعدها إيّاه فَلَمَّا تَبَيَّنَ أنَّهُ عَدُوٌّ للّه تَبرّأَ منهُ﴾ (التوبة: ١١٤)، وكلّ ذلك وقع في أوائل عهد إبراهيم قبل هجرته إلى الأرض المقدّسة.
ثُمّ يذكر اللّه سبحانه هجرته إلى مكّة المشرّفة وإسكان ولده إسماعيل فيها وبناء الكعبة المعظّمة ودعاء إبراهيم عليه السلام. (إبراهيم: ٣٥ ـ ٤١، البقرة: ١٢٥ ـ ١٢٧)، وكان من دعائه عليه السلام: ﴿ربّنا اغْفِرْلي وَلِوالِديَّ وَلِلمؤمنينَ يَوْمَ يَقومُ الحِسابُ﴾ (إبراهيم: ٤١)
وحيث إنّ إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه أزر وفاء بموعدته، ثم تبرّأ منه لما تبيّن له أنّه عدوّ للّه ولا طمع بهدايته، فلا معنى لأن يدعو له ثانية بعد التبرّؤ وبعد الهجرة، وهذا ممّا يدلّ على أنّ والده هنا الذي دعا له غير أبيه الذي تبرّأ منه.
ومن لطيف الإشارة أنه تعالى عبّر عنه هنا بالوالد الذي لا يطلق إلاّ على الأب الصُلبيّ، بينما عبّر هناك عنه بالأب، وهو يطلق على الجدّ والعمّ، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُم شُهَداءَ إذْ حَضَرَ يَعْقوبَ المَوْتُ اذ قالَ لبَنيه: ما تعبُدونَ من

ثانيتهما: فيما إذا كان ظاهر الآية منافياً لحكم العقل القطعي، كما إذا ترآى من آية التجسيم [1] أو الجبر [2]؛ فإنّه لابدّ من رفع اليد عن ذلك؛ للقطع بعدم كونه مراداً للّه، فإنْ فُسِّرت في النصوص بمعنىً لا يُنافي العقل، اعتمدنا علي ذلك، وإلاّ فلا يمكن الأخذ بظاهرها ولا تفسيرها، ما لم يكن للآية ظهوران مترتّبان بنظر العرف؛ بحيث إذا استحال الأوّل يرى العُرف أنها ظاهرة في المعنى الثاني، فتحمل ـ حينئذ ـ عليه.

[حرمة التفسير بالرأى]:

القسم الثاني: الآيات المجملة التي لايفهم العرف منها معنىً، أو تردّد معناها العرفي بين معانٍ عديدة، وهذه الآيات لا يمكن حملها على معنىً لمجرّد الاستحسان أو الذوق، وذلك لوجهين:

بَعْدي؟ قَالُوا: نَعبُدُ إلهكَ وَ إلهَ آبائكَ إبْراهِيمَ وَ اسمَاعِيلَ وَ إسْحاقَ إلهاً واحِداً وَ نحنُ لَهُ مُسْلِمونَ﴾ (البقرة: ١٣٣)، فإبراهيم جدّ يعقوب، وإسماعيل عمّه، وقد أُطلق عليهمالفظ «الأب».

واللّغة تسوِّغ إطلاقه كذلك على زوج الأمّ بعد الأب، وكلّ من يتولّى أُمور الشخص، وكلّ كبير مطاع.

وهذا ليس من خصائص اللغة العربية، بل تشاركها فيه سائر اللغات.

وقد أيّدت ذلك الروايات الدّالة على أنّ آباءَ النبيّ صلّى اللّه عليه وآله كلّهم موحّدون (مجمع البيان ٢: ٣٢٢)، والمصرّحة بأنّ «آزر» لم يكن والده، والروايات المصرّحة بأنّ اسم أبيه «تارح» بالمُهملة، أو «تارخ» بالمُعجمة، كما ورد الأخير في التوراة الحالية أيضاً.

(١) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئذ ناضرةٌ. إلى ربِّها ناظِرَةٌ﴾ القيامة: ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) ﴿وَمَا تَشاؤُونَ إلاّ أنْ يَشاءَ اللّهُ رَبُّ العَالَمينَ﴾ التكوير: ٢٩.

أولهما: أنّ هذا من التفسير بالرأي المنهيّ عنه في الأخبار[١].

ثانيهما: أنّه لا دليل على حجّية المعنى الذي تُحمل عليه؛ لأنّ الثابت بالدليل إنّما هو حجّية ظواهر الكتاب، لا المعنى الذي يُحمل عليه الكلام المجمل للذوق أو الاستحسان، بل اللازم عدم التعرُّض لتفسيرها إلاّ إذا فُسِّرت في آية أُخرى أو رواية معتبرة.

نعم، إذا تردّد المعنى المجمل بين معنيين فقط، وكان أحدهما مُخالفاً للعقل أو المُسلّمات الإسلاميّة، تعيّن حمل الآية على المعنى الآخر.

[معالم طريقتنا المنتخَبة]:

ثمّ إنّ واجب المفسِّر أن يفهم معنى الآيات المباركة بالطرق التي ذكرناها وعمدتها تفسير القرآن بالقرآن الذي سيكون هو محطٌّ نظري في هذا التفسير؛ فإنّ القرآن الذي فيه تبيان كلّ شيء كيف لايكون فيه تبيان لنفسه؟! ولقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصفه: **((ينطقُ بعضُهُ ببعض))**[٢].

ومن المهمّ للمفسِّر أن يهتدي بنور القرآن، فيطبّق عقيدته عليه[٣]، ولا يجوز له أن يُخضِعِ ظواهر الآيات المباركة لما يعتقده، كما عمل ذلك

---

(١) الوسائل: ١٨: ١٣٦ـ ١٣٧/٢٥ و٢٨ باب ١٢ من ابواب صفات القاضي، التفسيرالصافي ٩: سطر ١ ـ ٣.

(٢) نهج البلاغة ـ صبحي الصالح ـ ١٩٢.

(٣) أي يجعل عقيدته مطابقة لما في الكتاب العزيز ومنطبقة عليه، لاتخالفه ولاتزيد عنه ولاتنقص.

بعض المتكلّمين والفلاسفة والمفسّرين والمُحدثين المقلّدين للغرب.

فقد أخذ بعض المتكلّمين[١] يستشهد بالقرآن على رأيه وإن كان مُخالفاً لظاهر القرآن.

كما أنّ بعض الفلاسفة[٢] الذين أُعجبوا بالفلسفة اليونانية أخضعوا ظواهر القرآن لما ذكره فلاسفة اليونان، كأنّ أقوالهم غير قابلة للنقض، وكأنّها أولى بالاتّباع من ظواهر القرآن الكريم.

وكذلك ـ أيضاً ـ بعض العاشقين للغرب والمقلّدين له في كلّ شؤونهم[٣]، فإنّهم يحاولون تطبيق القرآن على مُقتَضَيات إيمانهم بالغرب، بدلاً عن اعتباره مقياساً لتمييز الحقّ من الباطل.

وكلّ هؤلاء قد أخطؤوا الطريق؛ فإنّ هذا تطبيق لاتفسير، ولا يصحّ رفع اليد عن ظاهر آية مباركة لأجل كلام متكلّم أو فيلسوف أو عالم غربيّ. ونظرة عميقة مستوعبة في الكلام والفلسفة والعلم تكشف عن عدم التعارض بين الكتاب الكريم وكلّ الحقائق الصحيحة الثابتة في هذه الحقول.

وهناك قوم من المتصوّفة[٤] اهتمّوا بالتأويل وتركوا التنزيل، واعتمدوا

---

(١) اللوامع الإلهية في المباحث الكلامية: ١٤٤ و ٣٢٥، عن الأشاعرة والاسماعيلية.

(٢) راجع تفسير القرآن الكريم لصدر المتألّهين رحمه الله.

(٣) القرآن محاولة لفهم عصري: ٨١ ـ ٩٩، الصحيح من السيرة النبوية ١: ٢١٢ عن كتاب توحيد عاشوري (فارسي).

(٤) راجع اصطلاحات الصوفية للشيخ كمال الدين القاشاني.

على البـاطل وتركوا الظـاهر، وهذا يتعـارض مع تعـاليم الشرع؛ لأنّنا أُمـرنا باتّباع الظـواهر، ما لم يرد نصّ على أنّ للآية باطناً وتأويلاً وأنّ المـراد بها هو المعنى الباطن والمؤوَّل، فنعمل حينئذٍ بالباطن والتأويل.

ولكن هذا لا يقتضي رفع اليد عن الظـاهر ـ أيضاً ـ وهو التنزيل، ويشهد لذلك أخبار الجري السابقة،فهي كما تدلّنا على أنّ ذكر بعض موارد التنزيل لا يوجب تخصيص الآية بذلك المورد، كذلك تشـير إلى أنّ ذكر التأويل أو الباطن لا يكون سبباً في عدم حجّية التنزيل والظاهر.

بل إنّ التأويل والبـاطن هو في الغالـب من أفـراد التنزيل الخفيّة، اقـتضت المصلحة النصّ عليه لغفلة الناس عنه(١).

ثمّ إنّ عُمـدة ما نهـتمّ به في هذا التـفسـير: هو بيـان أصول الدين، ومـا يتّصل بالإنسان وخلقـته ومعـرفة حقيـقته، وأحـوال القيامة والبـرزخ، وبيان مراتب الإيمان والإخلاص، وتفصيل الكلام في تفسير الآيات المشتملة على الحكم والمواعظ والأخلاق.

وأمّا النكات الأدبيّة فـلا نتـعرّض لهـا إلاّ لمامـاً، بمقـدار ما يسـاعـد على استجلاء المعنى.

وأمّا القصص التـاريخيّة فنشـير إليهـا إشارة، ونتكلم في اسـتفادة العـبرة منها في حياتنا الحاضرة.

وأمّا الآيات المشـتملة على الأحكام الـفقـهيـة أو المتّصلة بها، فـلا نطيل الكلام فيها إلاّ في موارد الخلاف بين المذاهب الإسلامية.

---

(١) لأجل التوسّع في ذلك راجع الميزان ٣: ٤٤ ـ ٥٥.

٣ـ تنزيه القرآن عن الاغلاق والتعقيد

في ضوء نظرة مستوعبة شاملة يمكن أن نجزم بأنّ القرآن خُلْو من كلّ إغلاق وتعقيد، فليست هناك آية واحدة مُعقّدة ومُغلقة؛ بحيث لا يمكن فهم معناها، وكيف يكون فيه ذلك وهو أفصح كلام العرب، ومن شرط الفصاحة خُلوّ الكلام من الإغلاق والتعقيد؟!

[أقسام الإجمال وكيفيّة علاجه]:

وأمّا الآيات التي تعتبر في العادة من الآيات المتشابهة، فهي واضحة كلّ الوضوح من ناحية المفهوم، وإنّما الإجمال فيها ـ أحياناً ـ في مصداق هذا المفهوم الواضح الذي ينطبق عليه، وفي أحيان أُخرى يكون الإجمال بَدْويّاً يرتفع بالتأمل، فهي على قسمين:

الأوّل: قسم من الآيات يرتفع تشابهه وتعقيده بالتأمّل في المعنى، وهذه الآيات تعتبر من القسم الثاني[1] في تقسيمنا السالف في المقدّمة السابقة،

---

(١) الظاهر أنه من سهو القلم الشريف، فهي من القسم الأوّل، لكنّها ممّا يتوقّف فهم معناها على التأمّل والتدبّر، فراجع.

فهي آيات ظاهرة بعد التأمّل.

الثاني: ما يكون التعقيد فيه من ناحية المصداق الذي لا يمكن تحديده حتّى بعد التأمّل مع وضوح المفهوم العامّ، ويعرف المصداق حينئذ: إمّا على ضوء تفسيره في آية أُخرى أو حديث معتبر، وإمّا، عن طريق الحصر والترديد؛ بأن يدور أمره بين شيئين، ونجزم بعدم إرادة أحدهما، فيتعيّن الآخر.

ولعلّ هذا القسم هو المقصود بقوله تعالى:﴿هُوَ الَّذي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمّا الَّذينَ في قُلوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْويلِهِ﴾[1]، فإنّ ظاهر هذه الآية المباركة أنّ المتشابهات لا يمكن استفادة المعنى منها مستقلاً عن المحكمات؛ اذ لا يمكن معرفة مصاديقها بدون الرجوع إلى تلك الآيات.

[صور من التشابه غير المستقرّ]:

وسنذكر بعض الآيات المتشابهة، وسيظهر أنّ تشابهها: إمّا في المفهوم بشكل بَدْويّ يزول بالتأمّل، وإمّا في المصداق مع وضوح المفهوم، وهذه الآيات عدة طوائف:

الأُولى: ما دلّت على أوصاف اللّه الثبوتية، كالعالم، والقادر، والسميع، والبصير: فقد توهّم بعض أنّ مفهومها مُجمل؛ وذلك لعدم إمكان الأخذ بمعناها الظاهر، الذي يفترض اتّصاف اللّه تعالى بهذه الأوصاف كاتّصاف

---

(١) آل عمران: ٧.

البشر بها، فلابدّ أن تكون هذه الألفاظ قد استُعملت في غير معانيها الأوّلية، وحيث إنّه غير معلوم فتكون مُجملة.

وجوابنا على هذا التوهُّم: أنّه لا مبرّر لإلغاء ظهورها في معانيها الأوّلية الحقيقية، فإنّ معنى كلمة «العالم» ـ مثلاً ـ الذات المتلبِّسة بالعلم، وهي تُطلق بهذا المعنى على اللّه كما تطلق على الناس، وإنما الفرق في كيفيّة تلبُّس كلٍّ منهما بالعلم؛ فإنّ تلبُّس اللّه بالعلم على نحوالعينية، وتلبُّس غيره على نحو الاتّصاف الحلولي أو الصدوري. وسيأتي تفصيل ذلك [عند الكلام](١) حول الصفات الثبوتية في المحلّ المناسب له في هذا التفسير.

الثانية: ما دلّت على نسبة أفعال الإنسان إلى اللّه تعالى تارة(٢)، وإلى نفس الإنسان أُخرى(٣)، وقد توهّم البعض(٤) ـ أيضاً ـ عدم إمكان صحّة كلتا النسبتين، فلابدّ من تأويل إحداهما، وحيث لم نعلم كيفيّة التأويل بالضبط تصبح الآية مُجملة.

والجواب على ذلك: أنّ كلتا النسبتين صحيحة؛ لأنّ الفعلَ في رأي الإمامية ـ تبعاً لأئمّة أهل البيت عليهم السلام ـ صادرٌ من الفاعل الإنساني بوسائل وإمكانات مستمدّة كلّها من اللّه بفيض مستمرّ متجدّد؛

---

(١) إضافة يقتضيها السياق.

(٢) ﴿وَما تَشاؤُونَ إلاّ أنْ يَشاءَ اللّهُ رَبُّ العالَمينَ﴾ التكوير: ٨١.
﴿وَاللّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ الصافّات: ٩٦.

(٣) ﴿إنّا هَدَيْناهُ السَّبيلَ إمّا شاكراً وَ إمّا كَفوراً﴾ الإنسان: ٣.

(٤) مجمع البيان. ٤: ٤٥٠.

بحيث اذا انقطع الفيض زالت كلّ تلك القوى، فتصحّ نسبته إلى الإنسان حقيقة لأنّه فعله، وإلى اللّه لأنّه نتيجة الإمكانات والقوى المفاضة من قبله باستمرار.

الثالثة: ما تعرّضت للعلاقة بين إرادة اللّه تعالى ومراده فإنّ ظاهر بعض الآيات أنّ إرادة اللّه لا تنفكّ عن وقوع الفعل المراد في الخارج للملازمة بينهما، كقوله تعالى: ﴿إذا أَرَدْنا أنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفيها فَفَسَقُوا فيها﴾[1] فإنّ ظاهر الآية المباركة: أنّ إرادته تعالى لإهلاك القرية ملازم لهلاكها في الواقع، وظاهر بعض الآيات عدم الملازمة، وأنّ اللّه قد يريد شيئاً ولا يتحقّق المراد، كما في قوله: ﴿يُريدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُريدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[2] مع أنّ وجود العسر ـ أحياناً ـ في حياة الناس أمر بديهيّ.

وعلى هذا الأساس يجب أن يكون المقصود القرآني من الإرداة في أمثال هذه الآية أو تلك معنىً غير معنى الإرداة حقيقة، وحيث إنه غير معلوم فتكون أمثال هذه الآيات متشابهة.

وهذا الوهم ناشئ عن عدم إدراك الحقيقة، وهي أنّ الإرادة الإلهيّة على قسمين.

أحدهما: الإرادة التكوينيّة: وهي التي لا تنفكّ عن المراد، سواء تعلّقت بفعل نفسه، كالاماتة والإحياء، أو بفعل غيره، فإنّ المراد يتحقّق حتماً

(١) الإسراء: ١٦.

(٢) البقرة: ١٨٥.

بإيجاد اللّه له إن كان فعلاً من أفعاله، أو بإجباره الغير على إتيانه إن كان فعلاً للغير.

ثانيهما: الإرادة التشريعية: وهي تعني أنّ اللّه يريد صدور الفعل من الغير باختياره، وهذه الإرادة قد تنفكّ على المراد، ولا يأتي الغير بالفعل المراد منه.

الرابعة: الآيات التي دلّت على صدور الفعل من اللّه تعالى بصيغة الفعل الماضي[1]: والفعل الماضي حيث إنه يدلّ على وقوع الحديث في الزمان الماضي، فلا يمكن أن يُقصد به مدلوله. هذا حين إسناده إلى اللّه تعالى؛ لأنّ اللّه مجرّد عن الزمان، فلابدّ أن يكون المقصود معنىً آخر.

ولكن الصحيح أنّ الفعل لا يدلّ على الزمان، وإنّما يدلّ على مجرّد الحدث، والدلالة على الزمان إنّما تنشأ من طبيعة نفس الحادثة فيما إذا كانت فعلاً لفاعل زمانيّ، فهي دلالة عقليّة، وحيث يكون الفعل صادراً من فاعل مجرّد عن الزمان كاللّه تعالى، فلا دلالة على الزمان إطلاقاً.

وهكذا إذا أُسند الفعل إلى نفس الزمان، كما في قولك: «مضى زمن الشباب»، ففي جميع ذلك لا دلالة على الزمان من ناحية نفس اللفظ، وإلاّ لكان مثل هذا الاستعمال مجازاً ومتوقّفاً على عناية وعلاقة خاصّة.

---

(١) ﴿اللّهُ الَّذي رَفَعَ السَّموات بغَير عَمَد تَرَوْنَها﴾ الرعد: ٢، ﴿وَمِنْ آياته أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنوا إِلَيْها﴾ الروم: ٢١، الى غير ذلك من الآيات.

الخامسة: الآيات الدالّة على وجود شيء لديه، أو صدور شئ من عنده: كقوله: ﴿وَلَدَيْنا مَزيد﴾[١] وقوله: ﴿لاتّخذْناهُ مِنْ لَدُنّا﴾[٢] وقوله: ﴿وَما عِنْدَ اللّهِ خَيرٌ﴾[٣]، وقوله: ﴿وَإِلَيهِ تُرجَعونَ﴾[٤]، فقد قيل[٥]: إنّ الأخذ بمعانيها الظاهرة يؤدّي إلى افتراض وجود مكان للّه، فلابدّ من تأويلها وفرضها من المتشابهات.

وجوابنا على هذا: أنّ الحضور عند الموجود المكاني والزماني ملازم للمكان، وأمّا الموجود المنزّه عن الزمان والمكان كاللّه، فلا يلزم من افتراض الحضور عنده كونُ الحضور في مكان.

السادسة: الآيات التي ذهب وهْمُ بعضٍ[٦] إلى أنّها دالّة على تجسيم اللّه تعالى: كقوله ﴿يَدُ اللّهِ فَوْقَ أيْديهِم﴾[٧] وقوله: ﴿على العَرْشِ استَوَى﴾[٨]، فإنّ اليد والاستواء من شؤون الموجود المادّي، ونظراً إلى أنّ تجسيم اللّه تعالى مُحال، فيجب تأويل تلك الآيات، وتصبح متشابهة بعدم وضوح المعنى الذي يجب أن تفسّر على أساسه.

---

(١) ق: ٣٥.

(٢) الأنبياء: ١٧.

(٣) آل عمران: ١٩٨.

(٤) يونس: ٥٦ .

(٥) متشابه القرآن ومختلفه لابن شهر آشوب ١: ٧٠.

(٦) متشابه القرآن ومختلفه لابن شهر آشوب ١: ٦٧ و ٧٨ ـ ٧٩.

(٧) الفتح: ١٠.

(٨) طه: ٥.

وهذا الوهم خاطئ؛ لأنّ المفهوم العُرفي من كلمة اليد والاستواء حين تجيء في سياق يُشبه سياق الآيتين ليس هو التجسيم، فحين تقول ـ مثلاً ـ: «إنّ يد زيد فوق أيدي أُخوته»، أو «إنّ زيداً استوى على عرش البلاد» لا تقصد باليد العضو الخاصّ، ولا بالاستواء الجلوس على العرش، وإنّما تريد بذلك أن تعبّر عن إحسانِ زيدٍ إلى إخْوته وتفضُّله عليهم[1]، وعن استيلائه على العرش، فإذا كان هذا هو المعنى المفهوم حين تضاف الكلمتان إلى غير الله، فكيف إذا أُضيفتا إليه تعالى.

أضِفْ إلى ذلك أنّ الكلمتين لو كانتا تدلاّن على المعنى المادّي لليد والاستواء حين إضافتهما إلى الشخص المادّي، فهما حين إضافتهما إلى الله سبحانه يتجرّدان عن هذه الدلالة، باعتبار القرينة العقلية الحاكمة باستحالة التجسيم فيه.

---

(١) استُعير اليد للنعمة قال الشاعر:
فإنّ له عندي يَدِيّاً وأنْعُما
كما استعير للحوز والملك، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾
وقد استعير للقوّة أيضاً، يقال: لفلان يد على كذا، ومنه قوله تعالى: ﴿أولي الأَيْدي وَالأَبْصار﴾
ويقال: فلان يدُ فلان، أي وليّه وناصره، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذينَ يُبايِعونَكَ إِنَّما يُبايِعونَ اللّهَ يَدُاللّه فَوْقَ أَيْديهِم﴾ فإذا يدُه صلّى الله عليه وآله يدُاللّه، فإذا كان يده فوق أيديهم، فيدالله فوق أيديهم.
فقوله: ﴿يَدُاللّهِ فَوْقَ أَيْديهِم﴾ أي نصرته ونعمته وقوّته. (مفردات الراغب: ٨٤٦ ـ ٨٤٧) بتصرّف.

وحينئذ يصبح ما قرّرناه لليد والاستواء من الإحسان والاستيلاء هو المعنى الظاهر من الكلمتين عُرفاً.

وعلى الجملة: فالكلمتان في الآيتين ظاهرتان عُرفاً في الإحسان والاستيلاء إمّا بصورة أوّلية، أو بعد الالتفات إلى القرينة العقلية، ولا إجمال فيها مطلقاً.

السابعة: بعض الآيات التي تخبر عن وجود أشياء في العالم الآخر نقطع بعدم وجودها بالمعنى الحرفي للفظ، كاللوح[1]، والقلم[2]، والميزان[3]: فلا نعلم ماذا يقصد بها، وتكون بهذا الاعتبار متشابهة.

والحقيقة أنّ الإجمال في الآيات ـ التي تتضّمن أمثال هذه الكلمات ـ ليس في المفهوم، فإنّ كلّ واحدة من هذه الكلمات قد استُعملت في معناها الحقيقي دون تصّرف، فاللوح هو ما يسجّل عليه، والقلم آلة التسجيل، والميزان ما تقدّر به الأمور، وهذه المعاني حين توجد في هذه النشأة توجد بوجه ماديّ خاصّ، إلاّ أنّ هذه الخصوصية ليست من صميم المعنى، وإنّما هي من لوازم هذه النشأة، وليس وجود تلك المعاني في العالم الآخر يعني وجودها بهذه الخصوصيّة أيضاً؛ لنجزم بعدم وجودها على هذا النحو، بل إنّ هذه الخصوصية قد تنفكّ عن المعنى في الدنيا ـ أيضاً ـ كما في الميزان، فإنّ القاعدة العقلية قد تصبح ميزاناً لوزن الأفكار، ممّا يبرهن

(١) ﴿بَلْ هُوَ قُرآنٌ مَجيد. في لَوح مَحْفوظ﴾ البروج: ٢٢.

(٢) ﴿ن. وَالقَلَم وَما يَسْطُرُونَ﴾ القلم: ١.

(٣) ﴿وَنَضَعُ المَوازين القسْطَ ليَوْم القيامَة﴾ الأنبياء: ٤٧.

على أنّ الصفة الأساسية في الميزان إنما هي كونه أداة لـلتقدير، ومن الممكن أن توجـد أداة للتقـدير في العـالم الآخـر بنحو خـاصّ يخـتلف عن الموازين المادّية المتعارفة.

وهكذا يتضح: أنّ الإجـمال إنّما هو في مصداق المعـاني، لا في المعاني ذاتها.

تفسير
سورة الفاتحة

ولنبدأ بتفسير أوّل سورة من سور القرآن الكريم، وهي سورة أمّ الكتاب.

وقبل الشروع في تفسيرها ينبغي لنا أن نتطرّق إلى أمور:

الأوّل: [السورة: معناها وتمييزها]:

أنّ لفظ السورة قد ذُكر في بعض الآيات المباركة، كقوله تعالى في سورة يونس[1]: ﴿فَأْتوا بِسُورَةٍ مِثْلِه﴾، وفي سورة هود[2]: ﴿فَأْتوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيات﴾، وفي سورة التوبة[3]: ﴿أنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾، وفي سورة التوبة أيضاً[4]: ﴿وإذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾، وفي التوبة أيضاً[5]: ﴿وَإذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾، وقوله تعالى في سورة النور[6]: ﴿سُورَةٌ أنْزَلْناها﴾، وفي سورة محمد[7]: ﴿لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ، فإذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾، وفي سورة البقرة[8]: ﴿فَأْتوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِه﴾.

---

(١) آية: ٣٨.

(٢) آية: ١٣.

(٣) آية: ٦٤.

(٤) آية: ٨٦.

(٥) آية: ١٢٤ وآية: ١٢٧.

(٦) آية: ١.

(٧) آية: ٢٠.

(٨) آية: ٢٣.

والذي يُستفاد من هذه الآيات المباركة أنّ السورة اسم للطائفة من التنزيل الحكيم، وأنّ لها نوعاً من وحدة التأليف لايوجد بين أبعاضها، ولا بين أبعاض سورتين، ولا بين سورة وأُخرى، ولكلّ سورة «بَسْمَلَةٌ» في أوّلها، عدا سورة التوبة، فقد كان ابتداء السورة وانتهاء الأُخرى يميَّز بالبسملة، كما ورد ذلك في الحديث المرويّ في طرق الفريقين[1].

ولا بُدّ أن يكون هذا التقطيع والتفصيل بين الآيات ـ وجعل بعضها من السورة الفلانية وبعضها من سورة أُخرى ـ لغرضٍ وفائدة، والظاهر أنّ ذلك لأجل أنّ لكلّ سورةٍ عرضاً خاصّاً، فالآيات التي لها دَخْل في غرض السورة تكون من آياتها، وحينما يُستوفى الغرض الخاصّ تنتهي السورة.

الأمر الثاني: [غاية سورة الحمد]:

إذا كان لكلّ سورةٍ غرضٌ وغاية، فما هو غرض سورة الحمد؟ وماهي الغاية منها؟

الظاهر أنّ الغاية والغرض منها إنّما هو بيان حصر العبوديّة والاستعانة باللّه، وأن طلب الهداية منه لا من سواه، وأنّ في ذلك درساً للعبد وإرشاداً له إلى كيفيّة إظهار عبوديته، والتأدّب في ذلك بالأدب الذي أدّبه اللّه تبارك وتعالى به.

وهذا الغرض وهذه الغاية ممّا يوجب تحقّق الغرض الأقصى والغاية القُصوى من نزول القرآن الكريم، فإنّ الغرض من إنزال القرآن هو هداية البشرية، كما تدلّ على ذلك الآية الكريمة: ﴿قَدْ جاءكُمْ مِنَ اللّهِ كِتابٌ مُبِينٌ

(١) الكافي ٣: ٣١٢ ـ ٣١٣/١ و ٢ باب قراءة القرآن من كتاب الصلاة، الصافي ١٩/٢٩ ـ ٣٠، التفسير الكبير ١: ١٩٤، السنن الكبرى ٢: ٤٣.

يهدي بِهِ اللّه﴾[1]، ومن دواعي الهداية هو إفهام البشر حصر العبودية [باللّه][2] والاستعانة به تبارك وتعالى، وأنّ طلب الهداية من اللّه لا من سواه، وهو الغرض من سورة الحمد، كما عرفنا.

الامر الثالث: [الفاتحة سورة مكيّة]:

أنّ سورة الحمد مكيّة كما يدلّ على ذلك أمران: أوّلهما: قوله تبارك وتعالى في سورة الحِجْر: **﴿وَلَقَدْ آتيناكَ سَبْعاً مِنَ المثاني وَالْقُرآنَ الْعَظيم﴾**[3]، والمراد من السبع المثاني سورة الحمد، كما روى ذلك الصدوق[4] والبخاري[5] معاً، وسورة الحِجْر مكّية بلا خلاف، فلابدّ وأن تكون فاتحة الكتاب مكيّة أيضاً.

ثانيهما: أنّ من الضروري لدى جميع المسلمين أنّ الصلاة شُرّعتْ في مكّة، ولم تُعَهد صلاة في الإسلام بدون فاتحة الكتاب، ويدلّ عليه الحديث الشريف المرويّ في طرق الفريقين[6] ((لاصلاة إلاّ بفاتحة الكتاب)).

وقد قيل: إنها نزلت مرّتين: مرّة في مكّة، وأُخرى في المدينة؛ تعظيماً لشأنها[7].

(١) المائدة: ١٥.
(٢) في الأصل: لله ...
(٣) آية: ٨٧.
(٤) أمالي الصدوق: ١٤٨، البرهان في تفسير القرآن ٢: ٢/٣٥٣ في تفسير الآية.
(٥) البخاري ٤: ٢٣١ باب فاتحة الكتاب.
(٦) عوالي اللآلي ١: ١٩٦/ ح٢، مستدرك الوسائل ٤: ٥/١٥٨ باب ١ من أبواب القراءة في الصلاة، التفسير الكبير ١: ٢١٤ و ٢١٦.
(٧) الكشّاف ١: ١، مجمع البيان ١: ١٧، التفسير الكبير ١: ١٧٨.

ولكن لا يوجد عندنا دليل على صحّة هذا القول، وإن استدُلّ على ذلك بتسميتها بالسبْع المثاني، وأنّ هذا إشارة إلى نزولها مرّتين[1]. ولكن من الممكن أن يكون تسميتها بالمثاني هو لأجل وجوب قراءتها مرّتين في كلّ صلاة.

ومعنى كون السورة مكّية: أنّها نزلت في مكة قبل الهجرة، ومعنى كونها مدنية: أنها نزلت في المدينة بعد الهجرة. وما رُوِي عن بعضهم[2] من أنّ السورة المكيّة هي التي نزلت في شؤون أهل مكّة، والمدينة هي التي نزلت في شأن أهل المدينة، فغريب جدّاً؛ لأنّ سور القرآن غير متخصّصة بمدينة خاصّة ليصحّ الفرق المذكور.

[ميزان السور المكّيّة والسور المدنيّة]:

وتمتاز السور المكّية: باشتمالها على الوعظ، والإرشاد، والدعوة إلى اللّه، وتركيز الدعوة الإلهية والعقيدة الدينية غالباً.

وتمتاز السور المدنيّة غالباً: باشتمالها على الأحكام الشرعيّة والقوانين الإسلامية، وتركيز العقيدة السماوية؛ لأنّ الدعوة كانت في بدايتها، والإسلام في أوّل عهوده، ولكن بعد أن قويت شوكة المسلمين في المدينة، ورسخ الإسلام في القلوب إهتمت السور المدنية ببيان الأحكام الشرعيّة، وبيان أنظمة الدولة الإسلامية.

فالآيات المكّية كانت تُعالج مشاكل الدعوة بوصفها تعبيراً عن عقيدة، وآيات المدينة عالجْتها بوصفها تعبيراً عن عقيدة مُجسدّة في دولة ومجتمع.

---

(١) التفسير الكبير: ١: ١٧٨.

(٢) المنار ١: ٣٣.

الأمر الرابع: في عدد آياتها:

ولاريب أنها سبع آيات، كما يدلّ على ذلك قوله تعالى - في سورة الحِجْر -: ﴿وَلَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً من المثاني﴾[١] وقد عرفنا أنّ المراد منها هو سورة الحمد، وهذا هو المعروف بين المسلمين، فمَن عدّ «البَسْملة» من آياتها[٢] جعل قوله تبارك وتعالى: ﴿صِراطَ الَّذينَ...﴾ - وإلى آخر السورة - آيةً واحدة، ومَن لم يعدَّها ذهب إلى أنّ قوله: ﴿غَيْرِ المَغْضوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالّين﴾[٣] آية مستقلّة[٤]، فلا يُعتنى بمَن شذّ من المسلمين، فذهب إلى القول بأنها ستّ آيات، أمثال الحسين الجعفي[٥]، أو أنها ثمان كعمر بن عبيد[٦].

الأمر [الخامس]: في فضلها:

ويكفيها فضلاً أنّ اللّه تبارك وتعالى جعلها عدْلاً للقرآن الكريم في قوله تعالى في سورة الحِجْر: ﴿وَلَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ المثاني وَالقُرآنَ العَظيم﴾[٧].

كما أنّ اللّه تبارك وتعالى جعلها فريضة في الصلاة، لاتصحّ صلاة

---

(١) الحجْر: ٨٧.

(٢) التفسير الكبير ١: ١٩٨، الكشّاف ١: ١.

(٣) الفاتحة: ٧.

(٤) التفسير الكبير ١: ١٩٨ و٢٠٢.

(٥) فتح القدير ١: ١٥.

(٦) نفس المصدر السابق.

(٧) الحجر: ٨٧.

بدونها، ولايُغني عنها سواها.

وقد قال أميرالمؤمنين عنها: ((إنّها أشرف ما في كنوز العرش))[١]، وقد ورد: أنّ من قرأها فكأنّما قرأ ثُلثي القرآن[٢]، وأنها أفضل سورة أنزلها اللّه في كتابه، كما في حديث جابر،[٣]، وقد أسماها اللّه تبارك وتعالى بأُمّ الكتاب.

الامر [السادس]: [في الخلاف في جزئيّة «البسملة»]:

اختلف علماء المسلمين في «البَسْملة» وجزئيتها على أقوال ثلاثة:

أوّلها: أنها جزء من كلّ سورة: وقد اتّفقت على ذلك كلمة الإماميّة، وذهب إلى القول المذكور صاحب تفسير المنار، وقد نسبه إلى أميرالمؤمنين عليه السلام وابن عبّاس وابن عمر وأبي هريرة من الصحابة، ونسبه إلى سعيد بن جبير وعطا والزهري وابن مبارك من التابعين[٤].

وقد نسب الآلوسي القول المذكور إلى غالب أصحاب الشافعي[٥].

وأمّا الشوكاني فقد نسبه إلي جماعة من الصحابة والتابعين والفقهاء ومنهم ابن الزبير وطاووس ومكحول والزهري وأحمد بن حنبل ـ في رواية عنه ـ وإسحاق ابن راهويه وأبو عبيدِالقاسم ابن سلام.

---

(١) مجمع البيان ١ : ١٨.

(٢) مجمع البيان ١ : ١٧.

(٣) العياشي ١ : ٢٠، مجمع البيان ١: ١٧.

(٤) المنار ١: ٣٩.

(٥) تفسير روح المعاني ١ : ٣٩.

والبيهقي نسبه إلى محمد بن كعب والثوري.[1].

وذهب الى القول المذكور الرازي في تفسيره، وقد نسبه ـ أيضاً ـ إلى قُرّاء مكّة والكوفة وأكثر فقهاء الحجاز[2].

واختاره السيوطي مدّعياً تواتر الروايات عليه[3].

وثاني الأقوال في «البَسْملة»: يعتبرها جزءاً من فاتحة الكتاب دون غيرها.

وقد نُسب هذا القول إلى حمزة وبعض الشافعية، ونُسب إلى أحمد بن حنبل أيضاً[4].

والقول الثالث في «البسملة»: يرجِّح أنها آية فَذّة؛ أي مستقلّة بنفسها، وليست جزءاً من أيّ سورة.

وهذا الرأي هو المشهور بين الحنفية، والمنسوب إلى مالك والأوزاعي[5].

وقد اختُلف في حكم قراءتها: وقد مال بعضُ الحنفية إلى وجوب قراءتها، ونُسب إلى مالك منعُ قراءتها في بعض الروايات، وميلُه إلى كراهة قراءتها في روايات أُخر.

---

(١) السنن الكبرى ٢: ٤٥ باب الدليل على أنّ ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحمن الرَّحيم﴾ آية تامّة من الفاتحة.

(٢) التفسير الكبير ١: ١٩٥ ـ ١٩٦، فتح القدير ١: ١٧.

(٣) الدر المنثور في التفسير المأثور ١: ١٩ ـ ٢٣.

(٤) روح المعاني ١: ٣٩.

(٥) التفسير الكبير ١: ١٩٤، روح المعاني ١: ٣٩.

[الاستدلال على رأي الإمامية في المقام]:

والذي يدلّ على قول الشيعة الإمامية في هذا الباب أُمور:

أوّلها: استقرار السيرة واستمرارها بين المسلمين على قراءتها في أوّل كلّ سورة.

ثانيها: اشتمال جميع المصاحف من زمان الصحابة حتّى الآن على ذكرها في أوّل كلّ سورة عدا سورة البراءة، مع حرصهم الشديد على عدم إدخال ماليس من القرآن فيه، حتّى أنّ بعض الصحابة عارضوا في تنقيط المصحف وتشكيله؛ لكي لايدخل على المصحف المبارك أيٌّ عنصر جديد.

فإثبات «البسملة» إذن يدلّ على اعتقادهم بجزئيتها، ولقد جزم صاحب المنار[1] بجزئية «البَسْملة» اعتماداً على هذا الوجه.

ثالثها: أخبار معتبرة مرويّة عن أئمة أهل البيت[2]، وأهلُ البيت أدرى بما فيه.[3]

---

(١) المنار ١: ٣٩.

(٢) عيون أخبار الرضا ١: ٣٠٢، الوسائل ٤: ٧٤٧/ ح١٢ باب ١٢ من أبواب القراءة في الصلاة.

(٣) ولا إشكال في حجّيّتها، حتى على غير المعتقد بإمامتهم؛ إذ لا إشكال ولا خلاف في علمهم و وثاقتهم، وقد رُوِي عن الإمام مالك بن أنس انه قال: (ما رأت عين، ولاسمعت أُذُن، ولا خطر على قلب أحد، أفضل من جعفر بن محمد)[ا]. كما وقد رُوِي عن الإمام أبي حنيفة أنه قال: (ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد)[ب] وقد روي ذلك عنهما في كتاب مناقب أبي حنيفة للموفّق.

(ا) مناقب أبي حنيفة للموفّق ١: ١٧٣.
(ب) مناقب أبي حنيفة للموفّق ١: ١٧٣.

رابعها: طائفة من الأخبار وردت من طرق إخواننا أهل السنّة والجماعة، نقلها عنهم الإمام شرف الدين في كتابه «مسائل فقهية»:[1]

وأوّل هذه الأخبار: ما أخرجه الحاكم في مستدركه[2]، وقد قال: (هذا حديث صحيح الاسناد، ولم يخرجاه ـ أي الشيخان: البخاري ومسلم ـ وهو عن ابن عباس، قال: إنّ النبيّ صلّى اللّه عليه وآله وسلّم كان إذا جاءه جبرئيل، فقرأ ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ علم أنها سورة).

وثانيها: ما أخرجه في كتاب الصلاة من مستدركه[3]، وأورده الذهبي في التلخيص[4]، مُصرِّحَيْنِ بصحّته على شرط الشيخين؛ أي أنّ الشروطَ التي يشترطها كلٌّ من البخاري ومسلم ـ في الروايات التي يذكر انها في صحيحهما ـ موجودة في هذه الرواية، وهي عن ابن عبّاس أيضاً قال: كان رسول اللّه لا يعلم ختْم السورة حتى تنزل ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾.

وفي جامع أسانيد أبي حنيفة[ج] وتذكرة الحفاظ للذهبي[د]: (وقد قال فيه أبوجعفر المنصور: إنّ «جعفر» كان ممّن قال اللّه فيه: ﴿ثُمّ أورثنا الْكتابَ الّذينَ اصطَفَينا مِن عِبادِنا﴾[هـ] وكان ممّن اصطفاه اللّه، وكان من السابقين في الخيرات).

(١) مسائل فقهية: ٢٥ ـ ٣٢.

(٢) و (٣) المستدرك ١: ٢٣١.

(٤) التلخيص المطبوع في ذيل المستدرك ١: ٢٣١.

(ج) صفحة: ٢٢٢.
(د) الجزء الأوّل، صفحة: ١٥٧.
(هـ) فاطر: ٣٢.

ثالثها: ما أخرجه الحاكم ـ أيضاً ـ[١] وذكره الذهبي في التلخيص[٢]، وهو عن ابن عبّاس أنه قال: (كان المسلمون لا يعلمون انقضاء السورة حتى تنزل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فاذا نزلت علموا أنّ السورة قد انتهت).

رابعها: ما أورده الذهبي في تلخيص المستدرك[٣]، والحاكم في المستدرك[٤]، وصحّحاه على شرط مسلم وذكره الشافعي في مسنده[٥]، وعلّق عليه تعليقة؛ إذ قال: (إنّ معاوية كان سُلطاناً عظيم القُوّة شديد الشوكة، فلولا أنّ الجهر بالتسمية كان كالأمر المقرّر عند كلّ الصحابة من المهاجرين والأنصار لَما قدروا على إظهار الإنكار عليه بسبب ترك التسمية) الحديث عن ابن مالك، قال: (صلّى معاوية بالمدينة صلاة، فجهر فيها بالقراءة، فقرأ فيها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ لأمّ الكتاب، ولم يقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ للسورة التي بعدها، حتى قضى تلك القراءة، فلمّا سلّم ناداه مَن سَمِع ذلك مِن المهاجرين والأنصار من كُلّ مكان: يا معاوية أسَرقتَ الصلاة، أم نسيت، فلمّا صلّى بعد ذلك قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ للسورة التي بعد أُمّ الكتاب).

وبعد أن ذكر هذا الحديث علاّمة الهاشميّين السيّد شرف الدين في

---

(١) المستدرك ١: ٣٣٢.

(٢) التلخيص المطبوع فى ذيل المستدرك ١: ٢٣١.

(٣) التلخيص المطبوع فى ذيل المستدرك ١: ٢٣٣.

(٤) المستدرك ١: ٢٣٣.

(٥) التفسير الكبير ١: ٢٠٤.

كتابه «مسائل فقهية»[1] قال: (ولنا تعليقة على هذا الحديث أُلفت إليها كلّ بحّاثة، فأقول: إنّ مَن أمعن النظر في هذا الحديث وجده من الأدلّة على مذهبنا في «البسملة»، وفي عدم جواز التبعيض في السورة التي تقرأ في الصلاة بعد أُمّ الكتاب؛ إذ لا وجه لإنكارهم عليه إلاّ بناء على مذهبنا في المسألتين).

وقد تجاوز عدد الروايات التي ذكرها الإمام شرف الدين بهذا الصدد العشرة.

وهناك أخبار أُخرى تدلّ على المقصود لم يذكرها قدّس اللّهُ سرَّه نظير ما نقله الدار قطني[2] والبيهقي[3] بسند صحيح: (أنّ علياً عليه السلام قال: ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ آية).

وما أخرجه ابن خُزيمه والبيهقي[4] بسند صحيح عن ابن عباس أنه قال: استرق الشيطان من الناس أعظم آية من القرآن ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾.

[أدلّة عدم الجزئيّة ومناقشتها]:

وفي مقابل هذه الأخبار روايات جاءت من طُرُق إخواننا السنّة،

(١) مسائل فقهية: ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) سنن الدار قطني ١: ٣١٣/ ح٤٠ باب وجوب قراءة ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ في الصلاة.

(٣) السنن الكبرى ٢: ٤٥ باب الدليل على أنّ ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ آية تامّة من الفاتحة.

(٤) السنن الكبرى ٢: ٥٠.

وتوهّموا دلالتها على عدم جزئية «البَسْملة»، غير أنّ الاعتماد عليها غير ممكن؛ لضعف دلالتها وعدم صحّة أسانيد بعضها، وهذه الروايات هي كما يلي:

[أوّلها]: ما جاء عن أبي هريرة مرفوعاً؛ إذ قال: (يقول اللّه تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال العبد: ﴿**الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعالَمينَ**﴾[1] يقول اللّه: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿**الرَّحْمنِ الرَّحيم**﴾[2] يقول اللّه تعالى: أثنى عليَّ عبدي، واذا قال: ﴿**مالِكِ يَوْمِ الدِّين**﴾[3] يقول اللّه تعالى: مجّدني عبدي، وإذا قال: ﴿**إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعين**﴾[4] يقول اللّه تعالى: هذا بيني وبين عبدي)[5] الخبر.

ووجه الاستدلال: أنه لم يذكر «البسملة» في آيات الفاتحة فلو كانت آية لَذكرها.

ولايخفى أنّ عدم الذكر كما يمكن أن يكون لذلك، كذلك قد يكون لأجل أنّ الرواية بصدد بيان الآيات المختصّة بالحمد.

ولو سلّمنا ظهورها في استيعاب مجموع الآيات، فإنّ هذا الظهور يجب تأويله على ضوء الأخبار السابقة المصرّحة بأنّ «البسملة» من أجزاء كلّ سورة، والأخبار الدالّة بصراحة على جزئيّتها لسورة الحمد خاصّة،

---

(١) الفاتحة: ٢

(٢) الفاتحة: ٣.

(٣) الفاتحة: ٤.

(٤) الفاتحة: ٥.

(٥) التفسير الكبير ١: ١٩٦ ـ ١٩٧.

كـالحديث الـذي يرويه الحاكم فـي المستـدرك[١] والذهبي في التلخيص[٢] مع النصّ منهـما على صـحّته عن ابن عـباس في قوله تـعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ المثاني﴾[٣] قال: (فاتحـة الكتاب ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحيم الحَمْدُ لِلّهِ﴾) وقرأ السـورة، وقد سأل ابنُ أحـد رواة هذا الحديث أباه ـ الذي يرويه عن سعيـد عن ابن عبّاس ـ: (أنّ ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحيم﴾ آية؟ فقال له أبوه: نعم.)

وكـذلك الحـديث الذي يـرويه الحـاكم[٤] ـ أيضـاً ـ عن أُمّ سَلَمـة: (أنّ رسـول اللّه صلّى اللّه عليـه وآله قـرأ فـي الصـلاة ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحيم﴾، و عـدّها مع آية ﴿الحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ العالَمين﴾[٥] آيتين...) إلخ.

وكالحديث الـذي أخرجه ابن خزيمة والبـيهقي[٦] بسند صحيح عن ابن عبّاس قال: (السبع المثاني فاتحة الكتاب قيل: فأين السابعة؟ قال ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحيم﴾).

وقد روى ابن راوي هذا الحديث ـ عن أبيه، عن سعيد، عن ابن عباس ـ

---

(١) المستدرك ١: ٥٥١.

(٢) التلخيص ـ المطبوع في ذيل المستدرك ـ ١: ٥٥١.

(٣) الحجر: ٨٧.

(٤) المستدرك ١: ٢٣٢.

(٥) الفاتحة: ٢.

(٦) السنن الكبرى ٢: ٤٥ باب الدليل على ان ﴿بسم اللّه الرحمن الرحيم﴾ آية تامة من الفاتحة.

قال: (لقد قلت لابي، هل أخبرك سعيد عن ابن عباس أنه قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾، آية؟ فقال: نعم).

وكذلك الحديث الذي يرويه الحاكم[١] ـ أيضاً ـ عن أُمّ سَلَمة: (أنّ رسول اللّه قرأ في الصلاة ﴿بِسمِ اللّهِ الرَّحمنِ الرَّحِيم﴾ وعدّها مع آية ﴿الحمْدُ لِلّهِ رَبِّ العالَمين﴾ آيتين).

وكذلك الحديث الذي أخرجه ابن خزيمة والبيهقي[٢] بسند صحيح عن ابن عبّاس قال: (السبع المثاني فاتحة الكتاب. قيل: فأين السابعة؟ فقال: ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحيم﴾).

وذكر هذا ـ أيضاً ـ في الحديث الذي يرويه الدارقطني في الإتقان[٣] والبيهقي في سُننه[٤] عن أبي هُريرة قال: (قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم: إذا قرأتم الحمد فاقرأوا ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحيم﴾، فانّها أُمّ القُرآن وأُمّ الكتاب والسبع المثاني، و ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحيم﴾ احدى آياتها).

هذا، مع أنّ رواية أبي هريرة المذكورة مُعارضة بخبر ابن عبّاس، المرويّ

---

(١) المستدرك ١: ٢٣٢.

(٢) السنن الكبرى ٢: ٤٥ باب الدليل على ان ﴿بسم اللّه الرحمن الرحيم﴾ آية تامة من الفاتحة.

(٣) سنن الدارقطني ١: ٣١٢/ ح ٣٦ باب وجوب قراءة ﴿بسم اللّه الرحمن الرحيم﴾ في الصلاة.

(٤) السنن الكبرى ٢: ٤٥ باب الدليل على أن ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحيم﴾ آية تامة من الفاتحة.

في الجـزء الأوّل من كنز العـمّال[١]، وفـيـه: (قـسـمـت الصــلاة بيني وبين عبدي، فإذا قال العبد: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ قال اللّه تبارك وتعالى: دعاني عبدي...) إلخ، ونحن لا نريد أن نـأتي على ذكر الرواية كلّها؛ لأنّها طويلة، وشاهدنا في هذه الرواية أنها قد اشـتملت على «البَسْملة»، فنقضت بذلك حديث أبي هريرة.

ثانيها: ما جاء عن عائشة[٢] من أنّ النبيّ صلّى اللّه عليه وآله كان يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة بـ ﴿الحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ العالَمين﴾[٣].

والاستـدلال موقـوف على أن يُراد من ﴿الحَمْدُ للّه ربّ العالمين﴾ الآيةُ، وكما يمكن أن يكون المراد الآية، يمكن أن يُراد سورة الحمـد، فلا دلالة فيها إذن.

ويؤكّد الاحتـمال الثاني: ما دلّ على جـزئية «البسـملة» من كلّ سورة، ومـادلّ على جـزئيّتـهـا مـن خـصـوص سـورة الحـمـد، ومـادلّ على إتيـان رسول اللّه بها، كما سنشير إليه.

ثالثها: الخبر المرويّ عن أبي هُريرة والمصرّح: بأنّ آيات الحمد ستّة.

ولا يخفى أنّ أبا هريرة وإن كـان ثقة عند إخواننا أهل السنّة والجـماعة، إلاّ أنّ في السند «العلاء»، ولم يـثبت توثيقه عـندهم، مع أنّ الجمع بين هذه الرواية ومادلّ على جـزئية السـورة يفرض حملهـا على أنّ المراد عدّ مـا عدا

---

(١) كنز العمال ٢: ٢٩٨ـ ٢٩٩.

(٢) التفسير الكبير ١: ٢٠١.

(٣) الفاتحة: ٢.

«البسملة» منها.

هذا، مع أنّها بظاهرها منافية للقرآن الكريم، المصرِّح بكونها سبعة، فتسقط بذلك عن الحُجّية إن ثبتت الحُجّية لها في نفسها.

وبما ذكرناه يظهر النظر في الخبر الرابع المرويّ عن أبي هُريرة[١] أيضاً، والحاكم بأنّ سورة الكوثر ثلاث آيات، وأنّ سورة الملك ثلاثون آية، فإنّ الجمعَ بينه وبين الروايات المصرّحة: بأنّ «البسملة» آية هو حملُ ذلك الخبر على أنّه في مقام بيان عدد الآيات المختصّة بالسورة، مع أنّ من المحتمل أن آيتين من هذه السور الثلاث قد جُعلتا آية واحدة في هذه الروايات.

مع أنّ الرواية الواردة في الكوثر مُعارَضة برواية أنس[٢]، فقد رُوي عنه أنه قال: (بينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءةً، ثمّ رفع رأسه مُبتسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول اللّه؟ قال: أُنزِلتْ عليَّ آنفاً سورة، ثم قرأ: (﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحيم إنّا أعْطَيْناكَ الكَوْثَر...﴾ إلى آخر السورة).

[خامسها]:

خبر ابن المغفّل[٣] إذ قال: (سمعني أبي وأنا أقرأ: ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحيم﴾، فقال: يا بُنيّ إيّاك والحدث، فإنّي صلّيتُ مع رسول اللّه

(١) التفسير الكبير ١: ٢٠٣.

(٢) صحيح مسلم ١: ٥٣/٣٠٠ كتاب الصلاة، باب ١٤ في حجّة من قال البسملة آية من أوّل كلّ سورة سوى براءة.

(٣) في الأصل: «ابن مغفّل»، وقد أثبتناه كما في المصدر، وان كان ورد في مصادر أُخرى بدون «أل».

صلّى اللّه عليـه وآله وسلّم ومع أبي بكر وعـمر وعـثمـان، فلم أسمع رجـلاً منهم يقرؤها)[١].

والجواب على هذا: أنّ علمـاء الجُرْح والتعديل مـن إخواننا أهل السنّة لا يعـرفون ابن المغـفّل، ولا أثر لحديثـه عندهم وقد صـرّح ابن رشد بجـهالـته، مضافاً إلى ان الرواية معارضة بما سنُشير إليه.

[سادسها]: خبر شُعبة، عن قَتادة، عن أنس بن مالك، قال: (صلّيتُ مع رسـول اللّه ومع أبي بكر وعمـر وعـثمـان، فكلّهم كان لا يقـرأ ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحيم﴾)[٢].

ولايخفى أنّ الحكم بعدم القراءة في هذين الخبـرين إنّما هو لعدم سماع الراوي، فلعلّهم كانوا يُخفـتون في «البَسْملة»، وراوي هذه الرواية هو أنس، وهو وإن كان ثقة عند أهل السنّة، إلاّ أنه ابتُليَ في آخر أمره بالنسيان، فلعلّه رواها في تلك الفترة من حياته.

وهي معـارِضة للأخـبار المصرِّحـة بقراءة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم «البسملة»:

منها : رواية أُمّ سَلَمة السابقة.

ومنهـا أيضاً: مـا أخرجـه الحاكم في مـسـتـدركه[٣]، وأورده الذهبي في

---

(١) التفسير الكبير ١: ٢٠٥، باختلاف يسير.

(٢) صحـيح مسلم ١: ٥٠/٢٩٩ كتاب الصلاة ١٣ باب حجة من قـال: لايجهر بالبسملة.

(٣) المستدرك ١: ٢٣٢.

تلخيصه[١] مُصرّحين بصحّتـه على شرط الشيخين ـ أي البخاري ومُسلم ـ عن نعيـم، قال: (كنت وراء أبي هريرة فـقرأ ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحيم﴾، ثمّ قرأ أُمّ الكتاب، حتّى بلغ ﴿وَلاَ الضَّالِّين﴾ قال: آمينَ، فقال الناس: آمِينَ، فلمّا سلّم قال: والذي نفسي بيده إنّي لأشبهُكم صلاة برسول اللّه).

ولما رَوَياه، وصحّحـه الذهبي[٢] على شرط مُسلم عـن أبي هُريرة ـ أيضاً ـ قال: (كـان رسول [اللّه] صلّى اللّه عليـه وآله يجهـر في الصلاة بـ ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحيم﴾).

بل معارَضة بما صحّ عن أنس ممّا يُناقض هذين الخبرين، ولْنستمع إلى ما ذكره العـلاّمة الفخـر الرازي في ذلك حينمـا نقل الاستدلال بهـذا الحديث الأخير، فقد قال[٣]:

(قال الشيخ أبو حـامد الأسـفراني: رُوِي عن أنس في هذا البـاب ستٌّ روايات:

إحـداها: أنّه قـال: صلّيتُ خلف رســول اللّه وخلف أبي بكر وعــمر وعثمان وكانوا يستفتحون الصلاة بالحمد ﴿الحَمْدُ لِلّهِ ربِّ العَالَمين﴾.

وثانيها: قوله: إنهم ما كانوا يذكرون ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحيم﴾.

وثالثتها: قوله: لم أسمع أحداً منهم قال: ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحيم﴾.

فهذه الروايات الثلاث توافق قول الحنفية: قال: وثلاثة أُخرى تناقضه:

إحداها: حـديثه في أنّ مـعاوية لمّا ترك ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحيم﴾ في

---

(١) و (٢) التلخيص المطبوع في ذيل المستدرك ١: ٢٣٢.

(٣) التفسير الكبير ١: ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

الصلاة أنكر عليه المهاجرون والأنصار.

وثانيتها: رَوى أبوقلابة عن أنس أنّ رسول اللّه وأبا بكر وعمر كانوا يجهرون ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾.

قال: وثالثتها: أنه سُئل عن الجهر بـ ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ والإسرار بها؟ قال: لا أدري هذه المسألة.

قال: فثبت أنّ الرواية عن أنس في هذه المسألة قد عظم فيها الخبط والاضطراب، فبقيت متعارضة، فوجب الرجوع إلى غيرها من سائر الأدلّة).

قال الفخر الرازي: (وأيضاً ففيها تهمة أُخرى: وهي أنّ عليّاً عليه السلام كان يبالغ في الجهر بالتسمية، فلمّا وصلت الدولة إلى بني أُميّة بالغوا في المنع من الجهر بها سعياً في إبطال آثار علي عليه السلام.

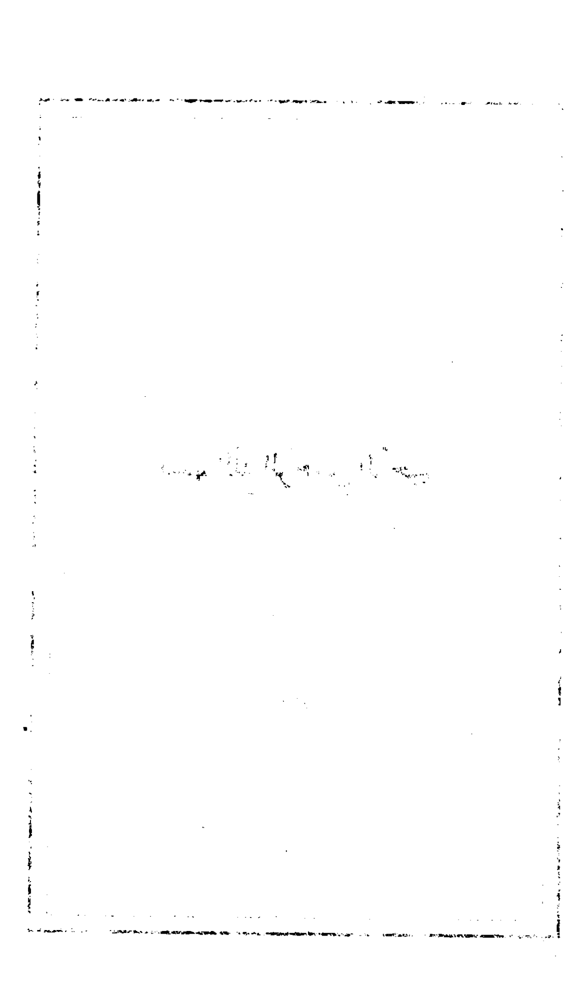
قال: فلعلّ أنساً خاف منهم فلهذا السبب اضطربت أقواله: قال: ونحن مهما شككنا في شيء فلا نشكّ في أنه إذا وقع التعارض بين أقوال أمثال أنس وابن المغفَّل، وبين قول عليّ بن أبي طالب عليه السلام الذي بقي طول عمره عليه، فإنّ الأخذ بقول عليّ أولى).

قال الفخر الرازي: (فهذا جواب قاطع في المسألة...) إلى أن قال:

(ومن اتّخذ عليّاً إماماً لدينه فقد استمسك بالعروة الوثقى في دينه ونفسه...) إلى آخر كلامه.

ومن هذا ظهر أنّ الحقّ هو جزئية «البسملة» من كلّ سورة، كما عليه علماء الشيعة الإمامة.

بِسمِ اللّهِ الرَّحمنِ الرَّحيم



[تفسير آية البسملة]:

ولْنشرع الآن في تفسير البسملة:

الباء: حرف جرّ، والاسم: مجرور بالباء، ومعنى الاسم لغة: العلامة[1]، وهو مأخوذ من السموّ والارتفاع[2]، كأنّ المعنى يرتفع بالاسم، فيخرج من الخفاء إلى الظهور، لأنّ المعنى يحضر إلى ذهن السامع بمجرّد سماع اللفظ، ويحتاج الجارّ والمجرور إلى فعل يتعلّق به: إما مذكور، أو مُضمَر.

وقد اختُلِف في الفعل المُضمَر في المقام:

فقال بعضهم[3]: إنه «أقرأ» على نحو المضارع عن لسانه تبارك وتعالى.

وقال بعضهم: إنه فعلُ أمرٍ ، وهو «إقرأ» تعليماً لعباده.

وقيل: إنه «أستعينُ» عن لسانه.

وقيل: إنّه فعل أمرٍ؛ أي استَعِنْ، كما قلنا في «إقرأ».

---

(١) لسان العرب ١٤: ٤٠١ مادة: «سما»، التفسير الكبير ١: ١٠٨.

(٢) لسان العرب ١٤: ٣٩٧ و ٤٠١ مادة «سما»، مفردات الراغب: ٣٥٥ مادّة «سما».

(٣) الكشّاف ١: ٢، التبيان ١: ٢٥.

وجميع هذه الأقوال[١] ضعيفة:

أمّا تقدير «اقرأ» ـ على نحو الفعل المضارع[٢]، وعلى نحو فعل الأمر ـ فيدفعه: أنّ المقروء يجب أن يكون تمام المعنى، والمعنى لا يتمّ إلاّ بذكر المتعلّق، فيجب أن يكون المتعلّق داخلاً في المقروء، مع أنه خارج عنه.

وأمّا تقدير «أستعينُ» أو «استعِنْ»: فيدفع الأوّل: أنه لا يعقل أن يستعين اللّه بشيءٍ حتّى بأسمائه.

ويدفع الثاني: بأنه كيف بأمر بالاستعانة باسمه، وهو يحصر الاستعانة في نفس السورة بذاته تعالى؟! كمالا موقع لتكرار الاستعانة في «البسملة» وفي أثناء السورة.

فلابدّ أن يكون المتعلّق هو «أبتدئُ» على نحو الفعل المضارع، أو «إبتدِئْ» على نحو الأمر.

والثاني أرجح، إذ لامعنى لأن يطلب اللّه الهداية من نفسه، فلابدّ أنّها لتعليم عباده، ومعه يناسب أن يكون المتعلّق فعل أمر.

ثمّ إنه لما كان الفعل المقدّر «إبتدِئ» فما هو المعنى المأمور بالابتداء فيه بذكر اسم اللّه تعالى؟ فهل هو قراءة سورة الحمد، أو قراءة القرآن، والابتداء

---

(١) مجمع البيان ١: ٢٠ ـ ٢١، إملاء ما منّ به الرحمن ١: ٣، وفيهما: أن المحذوف عند بعض ـ وهم البصريّون ـ مبتدأ تقديره: ابتدائي، وعند آخرين ـ وهم الكوفيّون ـ فعل تقديره: ابتدأتُ، أو أبدأ، أو إبدؤوا، أو قولوا، وقيل تقديره: استعينوا، أو أقرأ مبتدئاً...، والأخير هو الذي صوّبه العلاّمة الطبرسي في مجمع البيان.

(٢) في الأصل: فعل المضارع.

بالحمد باعتبارها أوّل سورة، أو أنّ المأمور بالابتداء فيه هو الغاية من سورة الحمد، فكأنّه بأمر بالابتداء بحمد اللّه وحصر العبادة به، أو أنّ المأمور بالابتداء فيه هو غاية القرآن، وهي هداية البشر؟

ويمكن أن يكون المأمور بالابتداء فيه هو السورة بوصفها الخاصّ لتحصيل غايتها الخاصّة بها، وبوصفها السورة الأولى من القرآن الذي تحصل به هداية البشر.

ثمّ إنّ في ابتدائه ـ تبارك وتعالى ـ باسمه المبارك تعليماً للبشر بأن يبتدئوا باسمه في جميع أفعالهم وأقوالهم ونشاطاتهم، وأن يستشعروا صلة تلك الأفعال والأقوال والنشاطات بالباري الذي وهبهم إمكانات تلك الأعمال والقدرة عليها.

بل إنّ الابتداء باسم اللّه يرمز إلى وجوب الانطلاق منه تعالى في إقامة الإنسان لحياته في جميع الحقول والمجالات، والتنبيه على أنّ العبودية المخلصة للّه والمشدودة به هي التي يجب أن يبني الإنسان على أساسها كيانه ومجتمعه ونشاطه.

أضف إلى ذلك ما في الابتداء باسم اللّه في كلّ قول وفعل من فوائد، فهو مَظهر من مظاهر العبوديّة المُخلصة، ولون من الاحترام الذي يشرّف الإنسان أن يؤدّيه لربّه، وإيحاء إلى المبتدئ باسم ربّه بفقره وحاجته وعدم استغنائه في كلّ شيء عن خالقه تعالى، وربط للفعل المبدوء باسمه الكريم به، الأمر الذي يصون الإنسان ـ وهو يرى فعله مرتبطاً بباريه ـ أن يعصيه به وأن يفسد بسببه، كما تصنع المدنيّات التي لاتقوم على أساس الاعتراف بهذا الربط.

وهو أيضاً ـ أي الابتداء باسمه ـ استمداد للتوفيق منه وكسب عنايته، مع ما فيه من إعلان المسلم عن عقيدته والاعتزاز بها، الأمر الذي يبثّ فيه روحاً معنويّة ويهيّئه نفسياً للدعوة إليها.

ثمّ إنه لمّا كان الاسم هو العلامة ـ كما مرّ سابقاً ـ[1] فلابدّ أن يكون الاسم غير المسمّى؛ لأنّ العلامة شيء، وما ترمز إليه ـ ذو العلامة ـ[2] شيء آخر.

وقد توهّم البعض[3] اتّحاد الاسم مع ذاته المباركة.

وسبب التوهُّم: أنه رأى الآيات الكريمة تأمر تارة: بذكره تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا اذكُرُوا اللّهَ ذِكْراً كَثيراً﴾[4] وفي قوله تعالى: ﴿فاذكُرُوا اللّهَ عِنْدَ المَشْعَرِ الحَرام﴾[5].

وتأمر أُخرى: بذكر اسمه، كمافي قوله تعالى: ﴿وَاذكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إليهِ تَبْتيلاً﴾[6] وفي قوله تعالى: ﴿وَ اذكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وأَصيلاً﴾[7].

كما رأى ـ أيضاً ـ أنّ القرآن: يأمر تارة بتسبيحه، وأُخرى بتسبيح اسمه.

---

(١) في أوّل تفسير «البسملة».

(٢) بيان لـ «ما» الموصولة في قوله: «وما ترمز اليه».

(٣) المتوهّم هو الأشعري، بينما قال المعتزلة بالمغايرة. راجع التصريح على التوضيح ١ : ٧.

(٤) الأحزاب: ٤١.

(٥) البقرة: ١٩٨.

(٦) المزمل: ٨.

(٧) الدهر: ٢٥.

فمن قبيل الأوّل: قوله تعالى: ﴿إنَّ الّذينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَيُسبّحونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾[١].

ومن قبيل الثاني: قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعْلى﴾[٢]، وقوله: ﴿فَسبِّحْ بِاسْمِ رَبِّك العَظيم﴾[٣].

و رأى ـ أيضاً ـ أنّ القرآن: يُباركُ الذات تارة، و يُباركُ الاسم أخرى، فيقول: ﴿تَبارَكَ اللّهُ رَبُّ العالَمينَ﴾[٤]، [ويقول]:[٥] ﴿تَبارَكَ الّذي نزَّلَ الفُرقَانَ﴾[٦] ويقول: ﴿تَبارَكَ اسْمُ رَبِّك ذِي الجَلالِ وَالاكْرام﴾[٧].

والواقع أنّ هذه الآيات الكريمة لا تدلّ على اتحاد الاسم مع المسمّى؛ لأنّ الأمر بذكره وذكر اسمه، و تسبيحه وتسبيح اسمه، ومباركته و مباركة اسمه، ولايُبرهن على اتحادهما؛ لأنّ الاسم الذي بُورك وأُمرنا بذكره وتسبيحه إنّما تعلّقت به هذه الأمور بوصفه علامة على ذاته المقدّسة، ودالاً عليها، فيُطلب منّا: تارةً ذكره بصورة مطلقة، وأُخرى يطلب منا ذكره باسمه بوصفه علامة عليه.

كما يمكن أن يكون المطلوب في الآيات الآمرة بذكره هو ذكره في

---

(١) الأعراف: ٢٠٦.

(٢) الأعلى: ١.

(٣) الواقعة: ٧٤ و ٩٦.

(٤) الأعراف: ٥٤.

(٥) إضافة بقتضيها السياق.

(٦) أوّل الفرقان.

(٧) الرحمن: ٧٨.

القلب، [في][1] الآيات الآمره بذكر اسمه هو ذكره باللسان.

[الكلام حول لفظ الجلالة]

ولفظ الجلالة «اللّه» في آية «البسملة» هوالاسم المقدّس لتلك الذات الجامعة للكمال المطلق، فهو عَلَم للباري سبحانه وتعالى، وموضوع له خاصة.

وقد ذهب البعض[2]؛ إلى أنّ لفظ الجلالة موضوع لجنس المعبود، وإنّما يطلق عليه تعالى؛ لأنه من أفراد هذا الجنس، وأنه معنىً اشتقاقيّ، لا جامد.

والجواب على ذلك: أنه لو كان اللفظ موضوعاً على ما يدّعي لصحّ أن يكون وصفاً، ولجاز أن تصف الباري بـ «اللّه»، كما تصفه بالخالق والرازق والمعبود.

فإن قيل: كيف لا يصحّ أن يكون اسم الجلالة وصفاً، وقد جاء في القرآن الكريم على وجه الوصفية في سورة إبراهيم: ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾[3]؟!

قلنا: توجد بشأن هذه الجملة قراءتان:[4] فمنهم مَن قرأ «اللّه» بالرفع،

---

(١) في الأصل: من ...

(٢) مجمع البيان ١: ٢١ حيث قال (ومعنى «اللّه» و«الإله» أنه الذي تحقّ له العبادة ...)، نهاية الدراية ١: ٧٢/ سطر ١٢ ـ ١٣ حيث قال: (إنّ لفظ الجلالة يكفي في صحّة الوضع للعامّ مع انحصاره بفرد بلا كلام).

(٣) إبراهيم: ١ ـ ٢.

(٤) راجع مجمع البيان ٣: ٣٠٢، قال: «اللّه» الذي بالرفع مدنيّ شاميّ، والباقون بالجرّ. التفسير الكبير ١: ١٥٧.

ولا مجال ـ حينئذ ـ لتوهّم الوصفيّة[1].

ومنهم مَن قرأ بالجرّ، وهو مع ذلك ليس صفة[2]، وإنّما ذُكر لرفع الاشتباه وتعيين الموصوف بتلك الأوصاف فهو نظير قولنا: « تأليف العلاّمة فلان».

ومما يدلّ على أنّ اسم الجلالة عَلَمٌ: هو أنه لو كان موضوعاً للجنس لَبقيتْ ذاته تعالى دون اسم خاصّ يدلّ عليها، وهذا بعيد غايته، بل إنّ قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾[3] ظاهر في أنّ له اسماً مختصّاً به.

أضف إلى ذلك أنّ المنسبق من اللفظ هو الذات الخاصّة، لا المعنى الكلّي العامّ، والانسباق[4] يعتبر أحد علامات الحقيقة والوضع.

ويسند ذلك كلّه وضوحُ أنّ جملة «لا إله إلاّ اللّه» تدلّ على التوحيد بنفسها دون حاجة إلى شيء آخر، فلو لم يكن لفظ الجلالة اسماً لذاته المباركة لما دلّت على التوحيد ونفي ما عداه، وإنما تدلّ الجملة ـ حينئذ ـ على أنه لا إله إلاّ المعبود.

---

(١) بل هو مبتدأ خبره ﴿الَّذي لَهُ ...﴾، أو «الذي» صفة، وقد أضمر الخبر، وتقديره «العزيز الحميد»، وحُذف لتقدّم ذكره، أو «الله» خبر، والمبتدأ محذوف تقديره «هو». مجمع البيان ٣: ٣٠٢، إملاء ما منّ به الرحمن ٢: ٦٥-٦٦. بتصرّف.

(٢) بل هو بدل من «الحميد»، وليس بصفة. مجمع البيان ٣: ٣٠٢، إملاء ما منّ به الرحمن ٢: ٦٥، التفسيرالكبير ١: ١٥٧.

(٣) مريم: ٦٥.

(٤) ويريد بالانسباق تبادر المعنى من حاقّ اللفظ من غير قرينة، وهذا التبادر أهمّ علامات الحقيقة. راجع كفاية الأصول:١٨ ـ ١٩.

وقد يُعترض على عَلَميّة اسم الجلالة باعتراضات ثلاثة تساند القول بالجنسية:

الأوّل: أنّ ذات الباري لمّا كان من الممتنع تصورّها، فلا يمكن استعمال اللفظ فيها؛ لأنّ كلّ من يستعمل لفظاً في معنىً يجب أن يتصوّر ذلك المعنى، وبالتالي لا يمكن أن يوضع لها اللفظ؛ لأنّ الوضع بدون الاستعمال لغو، ولأنّ الوضع كالاستعمال ـ أيضاً ـ يتوقّف على تصوّر المعنى عند وضع اللفظ له.

والجواب: أنّ التصوّر وإن كان شرطاً أساسياً في عمليّتي الوضع والاستعمال، ولكن يكفي فيه التصوّر الإجمالي، وهو مُتاح للإنسان بالنسبة إلى باريه تعالى، وإن استحال عليه تصوُّره تصوُّراً تفصيلياً بالكنه والحقيقة، كما يستحيل عليه ذلك بالنسبة إلى الممكنات التي تستعصي على التصوّر التفصيلي، كالعقل، والروح، والطاقة، فلو كان التصوّر التفصيلي شرطاً لامْتَنَعَ وضع الألفاظ لهذه المعاني أيضاً، بل لامْتَنَعَ على الإنسان أن يقصد الإشارة إلى خالقه تعالى خاصّة في كلامه ولو بالألفاظ العامّة.

الثاني: أنّ اسم الجلالة لو كان عَلَماً شخصياً لم يستقمْ معنى قوله تعالى ﴿وَهُوَ اللّهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الأرضِ﴾[1]؛ إذ أنّ العَلَميّة هنا تؤدّي إلى إثبات المكان له تعالى، وهو محال.

وأمّا إذا كانت الكلمة بمعنى المعبود فيكون معنى الآية: وهو المعبود في

---

(١) الأنعام: ٣.

السماوات وفي الارض.

والجواب أنّ ما ذكر يتوقّف على أن يكون المقصود من الآية وجود اللّه في السماوات وفي الأرض، وهو غير صحيح، بل الظاهر أنّ المراد كونه تعالى محيطاً بما في السموات والأرض.

ويشهد لذلك: ما ورد من الحديث في تفسيرها: من أنه تعالى بائن من خلقه محيط بما خلق علماً وقدرة وإحاطة وسلطاناً.[1]

الثالث: أنّ لفظ الجلالة لو كان اسماً للذات لما صحّ جمعه بآلهة في قوله تعالى: **﴿وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ ظَلَموا أنفُسَهُمْ فَما أغْنَتْ عنهم آلهتُهُمُ الّتي يدعون من دون اللّه﴾**[2].

والجواب أنّ «آلهة» جمعُ «إله» وليس جمع «اللّه»، والكلمتان مختلفتان.

وأمّا **﴿الرَّحمن الرَّحيم﴾** فهما وصفان مأخوذان من الرحمة، وهي ضدّ القسوة، وليست رقّة القلب داخلة في مفهومها هذا، وإنّما هي انفعال معيّن لها في الإنسان.

و«الرحمن» مبالغة في الرحمة، ولا يوصف به إلاّ مَنْ وَسِعتْ رحمته كلّ شيء؛ ولذلك لا يطلق على غير اللّه تعالى، بل هو بمنزلة اللقب له؛ لأنّ غيره مهما كان تختصّ رحمته بزمان دون زمان، أو جماعة دون جماعة، أو فرد دون فرد.

---

(١) البرهان في تفسير القرآن ١: ١/٥١٧ في تفسير الآية.

(٢) هود: ١٠١.

وأمّا «الرحيم» فهي صفة مشبّهة على وزن «فعيل»، ومن خصائص هذه الصيغة أنها تُستعمل غالباً في الصفات واللوازم الأُصيلة الثابتة باستمرار للذات، كالعليم، والقدير، والشريف، والوضيع، والسخيّ، والبخيل.

فالفرق بين الصيغتين: أنّ «الرحمن» تدلّ على شمول الرحمة وعمومها، ولا تتكفّل بقاءها واستمراريتها، وكلمة «الرحيم» تدلّ على ثباتها وتركّزها وعدم انفكاكها عن الذات، ولا تتكفّل الشمول والعموم، كما يشهد بذلك ما جاء في الحديث[1] من اختصاص «الرحيم» بالمؤمنين وشمول «الرحمن» للجميع؛ لأنّ المؤمنين تشملهم رحمة اللّه في الدنيا والآخرة، وأمّا الكافرون فلا تشملهم الرحمة إلاّ في الدنيا.

وقد ظهر بما ذكرنا معنى الحديث المروي عنهم وهو ((**الرحمن اسم خاصّ بصفة عامّة، والرحيم اسم عامّ بصفة خاصّة**))[2] فهو يتّفق مع ما ذكرناه من الفرق؛ لانه يعني: أنّ «الرحمن» اسم خاصّ بالدنيا؛ لأنّ الرحمة الإلهية في الدنيا هي التي تعمّ المؤمن والكافِر، ولأجل شمولها للكافر قال بصفة عامّة، وأمّا «الرحيم» فهو لشموله الدنيا والآخرة قيل عنه: إنه اسم عامّ، ولاختصاص الرحمة في الدارين بالمؤمنين قيل: إنه بصفة خاصّة.

ولو لم تكن الرواية ظاهرة في هذا، فهي قابلة للانطباق عليه.

وقد ظهر ـ بما ذكرناه في الفرق بين الكلمتين ـ الجوابُ عمّا يقال: بأنه لا معنى لذكرهما معاً مع ترادف معنيهما؛ إذ تبيّن أنّهما ليستا مترادفتين

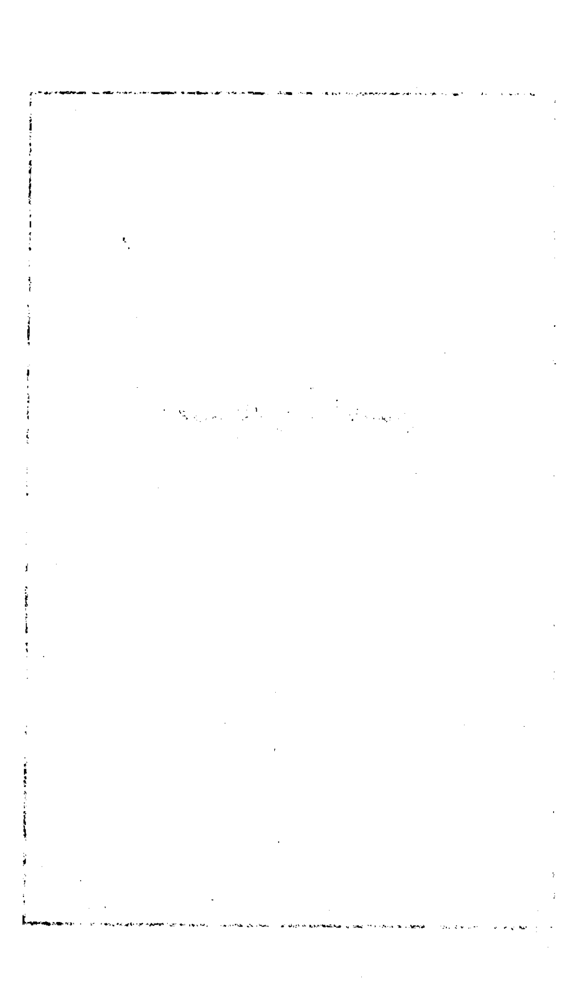
(١) البرهان في تفسير القرآن ١: ٤٤ ـ ٤٥/ ١ و ٢ و ٦ و ٩.

(٢) مجمع البيان ١: ٢١، التفسير الصافي: ١٩/ سطر ٢٤.

وإن كان مصدرهما واحداً.

وكذلك الجواب عمّا يقال: بأنه لا معنى لتقديم «الرحمن» على «الرحيم» مع أنّ «الرحمن» صفة مبالغة تدلّ على ما تدلّ عليه كلمة «الرحيم» مع زيادة، فكان الأنسب تقديم الأضعف؛ إذ تبيّن أنّ لكلٍّ من الوصفين خصوصيةً زائدة لاتوجد في الوصف الآخر، و ليس أحدُهما أقوى من الآخر.

ألحَمدُ لِلّهِ رَبِّ العَالَمين



[في معنى الحمد ومقابله]:

الحمدُ: هو الثناء على الأمر الجميل الاختياري، فلا يصحّ الحمد على أمر غير اختياري، فلا يمكن أن يقال: «حمداً للؤلؤ على صفائه» أو «للفاكهة على نضوجها» او «للكتاب على حسن تجليده»، ولكن يستعمل لفظ «المدح» عوضاً عن «الحمد» في جميع هذه الأمُثال.

والحمد يقابل باللوم، واللوم هو نقد الفعل الغير الجميل الاختياري، فيقال ـ مثلاً ـ: «لام فلان فلاناً على ترك الصلاة» أو «ترك الزكاة» أو «على ظلم الضعيف» أو على أخذ ما ليس له بحقّ، ولا يصحّ اللوم على الأمر غير الاختياري، فلا يصح أن يقال ـ مثلاً ـ: «لام فلان فلاناً على قبح شكله» أو «على قصر قامته» أو «على شدّة سواده».

وقد أخذ بعضهم في معنى «الحمد» قيدين آخرين أيضاً:

أوّلهما: أن يكون في قبال نعمة واصلة إلى الحامد، أو في طريقها للوصول.

لكن الظاهر كون «الحمد» أعمَّ من ذلك لغة وعرفاً، كما قد صرّح

بذلك بعض المفسّرين[١] لوضوح صحّة أن يقال: «حمدنا فلاناً على خدمته لوالديه» أو «على تضلّعه بالدعوة الإسلاميّة»، وما شابه ذلك من الأمور العامّة وإن كان لم يصل إلى الحامد صلة خاصّة من المحمود.

ثانيها: أن يكون الحمد باللسان، فتقدير العمل والفعل يسمّى شكراً، ولا يسمّى حمداً، كما صرّح بذلك بعض أهل اللغة[٢].

وقد يستشهد لصحّة استعمال الكلمة في غير الحمد الكلامي ببعض الآيات المباركة:

منها: قوله تعالى في سورة الرعد[٣]: **﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾**؛ لوضوح عدم تمكّن الرعد من الحمد باللسان.

ومنها: قوله تبارك وتعالى في سورة الإسراء[٤]: **﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾**؛ إذ أنّ كثيراً من الأشياء لا تتمكّن من الكلام.

والظاهر أنّ معنى «الحمد» عُرفاً هو إظهار الثناء بالطريقة المتعارفة، وهو بالنسبة إلى البشر بالكلام دون غيره، فلايمنع هذا من صحّة استعمال الكلمة وإرادة غير الحمد الكلامي منها في حقّ الموجودات الأخرى.

[الحمد والمدح والشكر والفرق بينها]:

ولا بأس بالتعرّض لبيان المفهوم من كلمتي «المدح» و «الشكر»؛ لكي لا يقع الالتباس بين معناهما ومعنى كلمة «الحمد»:

(١) مجمع البيان ١: ٢١، الكشّاف ١: ٨ـ ٩.

(٢) لسان العرب ٤: ٤٢٤ مادة «شكر».

(٣) الرعد: ١٣.

(٤) الاسراء: ٤٤.

أمّا المدح: فهو الثناء باللسان لمستحقّ الثناء على صفاته الحسنة ومكارمه الحميدة، سواءاً كانت اختيارية، أم لم تكن كذلك، فيصحّ مدح الكتاب على حسن تجليده ـ مثلاً ـ أو مدح الحديقة على ازدهار أورادها، مع أنّ هذه الأُمور ليست اختيارية للممدوح، كما يصحّ أن يمدح العالم على علمه، والكاتب على قلمه، والشاعر على نظمة، إلى غير ذلك من الأُمور الاختيارية.

والمدح يقابله الذمّ، فيذمّ المتّصف بالأوصاف غير الحسنة، سواء كانت اختيارية، أم لم تكن كذلك، فكما يُذَمّ الكافر على كفره والفاسق على فسقه، يذمّ البليد على بلادته، والطائش على طيشه.

فالمدح أعمّ من الحمد من هذه الناحية، ولا يشترط فيه أن يكون بإزاء نعمة تصل إلى المادح قطعاً، فإذا اشترطنا ذلك في الحمد فيكون أعمّ من هذه الجهة أيضاً.

وأمّا الشُكر: فهو الاعتراف بالنعمة، ويقابله الكُفْران والجحود، ولا يشترط أن يكون باللفظ، ولا بالطريق المتعارف لإبداء الشكر، فهو أعمّ من الحمد من هذه الجهة.

ويشترط فيه وفي صحّة إطلاقه صدورُ الفعل الحسن من المشكور، ووصول إحسانه إلى الشاكر، فهو من هذه الناحية أخصّ من الحمد، حتّى لو أخذنا في مفهوم الحمد صدور نعمة من المحمود إلى الحامد؛ أي لا يجب في مفهوم الحمد على أيّ حال أن تصل النعمة إلى الحامد، بل يكفي التهيُّؤ لها، والعالم بوصولها في المستقبل، بخلاف الشكر على ما قيل.

[وجوه حصر الحمد بالله تعالى]:

وتُشير الآية الكريمة إلى حصر طبيعة الحمد بالله تعالى، وهذا ممّا تفرضه عدّة وجوه لا ينبغي الشكّ فيها، وقد أُشير إليها جميعاً ضمناً أو تلويحاً في نفس السورة المباركة، وهي كما يلي:

الأوّل: ان الحمد لماكان هو الثناء على الفعل الحسن الاختياري، كان الله تعالى أحقّ بالحمد من أيّ شيء آخر؛ لأنّ حسن الفعل من حسن الفاعل، وكلّما كان الفاعل أكمل كانت آثاره وأفعاله أسمى وأعظم؛ إذ أنّ كلّ فاعل يفعل على شاكلته، كماجاء في الكتاب الكريم: ﴿**كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ**﴾[1]. ولماكان الله سبحانه كمالاً مُطلقاً من جميع الوجوه، كان فعله لامحالة اكمل الافعال وأحسنها، ولايمكن أنْ يرقى الى مستواه فعل فاعل آخر؛ لأنّ كلّ فاعل سواه ناقص، وقد أشار الله تعالى إلى هذا الوجه بإضافة الحمد إلى اسمه المبارك الدالّ على ذاته الجامعة للكمال المطلق.

الثاني: أنّ النعمة الأساسيّة على كلّ ممكن هي نعمة الوجود، وهي من الله تعالى. وكلّ النعم التي تصل من أنسان إلى آخر فهي: إمّا من فعل الله مُباشرة فيما إذا لم تكن صادرة عن الإنسان باختياره، وإمّا راجعة إليه، كما في النعم التي تصدر من الإنسان بقدرته؛ لأنّ الله هو الذي أقدره، ولولا إقداره لَعجزَ الإنسان عن كلّ شيء، ولعلّ هذا هو مغزى ما ورد عن أهل البيت من قولهم: ((**الحمدُ للّه الذي لا يُحمد غيرُه إلاّ على نعمه**)) فإنّ كلّ كمال وإحسان وإنعام يتّصف به سواه هو في الحقيقة ينتهي إليه ويبدأ منه.

---

(١) الاسراء: ٨٤.

ولعلّه أُشير إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿رِبِّ العالَمين﴾؛ لأنّ ربوبيّته للعالمين تدلّ على أنه المصدر الحقيقي لكلّ ما في العالَمين من كمال وحسن وإحسان ﴿ذلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[١]، وكيف لا ينحصر الحمد به وقد أحسن خِلْقة الأشياء جميعاً، كما قال تعالى: ﴿الّذي أحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[٢]؟

الثالث: أنه المحسن الوحيد الذي لا يقصد بإحسانه نفع نفسه، ولا يكسب بذلك شيئاً؛ لأنه الكامل الغنيّ المطلق، وإنّما يفيض نِعَمَهُ رحمة بعباده. واما غيره فهو حين يحسن الى الغير يحسن لنفسه قبل كلّ شيء: إما دُنيويّاً أو أُخرويّاً، إمّا مادّياً أو رُوحيّاً، كما قال تعالى: ﴿إنْ أحْسَنْتُمْ أحْسَنْتُمْ لِأنْفُسِكُمْ﴾[٣].

ولعلّه أُشير إلى هذا بقوله: ﴿الرَّحْمنِ الرَّحيمِ﴾ إذ دلّ على رحمته الكاملة التي من أعظم خصائصها خلوصها وتمحُّضها في التفضل والإحسان.

وخُلاصة الكلام: أنّ انحصار الحمد به تبارك وتعالى صحيح باعتبار أنّ فعله هو الفعل الحسن الوحيد الخالي من كلّ نقص، وباعتبار خلوّ ذاته تعالى من النقص، وباعتبار عِظَم النِعَم الالهية على العباد، ورجوع جميع النعم إليه، وباعتبار أنه الوحيد الذي وَسِعت رحمته كلَّ شيء، وهي لازمة لا تنفكّ عنه، وباعتبار أنه الوحيد الذي ينبغي أن يُخاف ويُرهب؛ لأن إليه

(١) المؤمن: ٦٢.

(٢) السجدة: ٧.

(٣) الإسراء: ٧.

يرجع العباد ومنقلب الإنسان.

ويمكن أن يكون في إضافة الحمد إلى ذاته الجامعة لمحاسن الصفات إشارةٌ إلى الاعتبار الأوّل، وفي قوله: ﴿رَبِّ العالَمين﴾ إشارة إلى الاعتبار الثاني، وفي قوله: ﴿الرَّحْمنِ الرَّحيم﴾ إشارة إلى الاعتبار الثالث، وأمّا قوله تعالى: ﴿مالِكِ يَوْمِ الدِّين﴾ فيمكن أن يكون إشارة إلى نِعَمه في الآخرة، كما يمكن أن يكون إشارة إلى الاعتبار الرابع.

وعلى هذا فمن حَمِدَ اللّهَ على جميع هذه الوجوه فقد حمده على نعمه، ولعلّه إلى هذا يشير ما ورد من أنّ الإمام الصادق حدّث: ((**أنّ أباه عليه السلام فَقَدَ بَغْلة، فقال: لئن ردَّها اللّهُ عليَّ لأحمده بمحامدَ يرضاها، فما لَبِث أنْ أُتيَ بها بسرجها ولجامها، فلمّا استوى وضمَّ إليه ثيابه رفع رأسه إلى السماء، وقال: الحمدُللّه، ولم يزد. ثمّ قال: ماتركتُ ولاأبقيتُ شيئاً، جعلتُ أنواع المحامد للّه عزّوجلّ، فما من حمدٍ إلاّ وهو داخل فيها**))[1] انتهى.

فالإمام أعرف الناس بنعم اللّه، وأنواع الحمد إنّما هي بلحاظ النعم التي يحمد عليها، فإذا حمده على جميع نعمه فقد أتى بجميع أنواع الحمد.

[في معنى ﴿ربِّ العَالَمين﴾]:

أمّا لفظ الجلالة فقد سبق الحديث عنه في «البَسْملة»، وأمّا «ربّ» فهو السيّد المالك المصلح لمملوكه والمربّي له، والمحسن لرعايته والمدير لشؤونه ولا يطلق هذا اللفظ على غيره تعالى إلاّ مضافاً إلى شيء، فيقال: محمد ربّ السفينة والدار؛ لأنه تعالى وحده السيّد المالك لجميع الأشياء

---

(١) البرهان في تفسير القرآن ١: ٤٦/٢.

والمربّي لها، بل إنّ كلمة «الربّ» لا تصدق على غيره إلاّ بضرْب من المجاز؛ لأنّ مالكية سواه اعتبارية، ومالكيته تعالى حقيقية مستمدّة من إيجاده للأشياء، وقيامها به حدوثاً وبقاء، كما أنّ تربية ما سواه وإصلاحه وتدبيره كلّه ينتهي إليه؛ لأنّ من يربّي سواه ويصلحه ويدبّره إنّما يفعل ذلك بالقوى التي يستمدّها من اللّه تعالى، وبالمكاسب التي حصل عليها نتيجة تربية اللّه له.

وأمّا «العالَمين» فجمع «عالَم»[1] بفتح اللام، وقد يطلق على مجموعة من الخلق متماثلة، كما يقال: عالم الجماد ـ مثلاً ـ أو عالم النبات، أو عالم الحيوان.

وقد يطلق على مجموعة لاجامع بين أجزائها إلاّ اجتماعها في زمان واحد و مكان واحد، فيقال؛ عالم الصِّبا أو عالم الدنيا و عالم الآخرة.

وقد يطلق ويراد به الخلق كلّه على اختلاف حقائقهم، وذلك بلحاظ أنّ لهم جامعاً يجمعهم، وهو كونهم مخلوقين للّه تعالى وكلّهم ملك له وتحت سيطرته.

---

(١) العالَم: اسم للفلك وما يحويه من الجواهر والأعراض، وهو في الأصل اسم لما يُعلم به، كالطابَع والخاتَم لما يُطبع به ويُختم به.
وجُعل بناؤه على هذه الصيغة لكونه كالآلة، والعالَم آلة في الدلالة على صانعه، ولذا أحالنا تعالى عليه في معرفة وحدانيته.
وأمّا جمعه جمع السلامة فلكون الناس في جملتهم، والإنسان إذا شارك غيره في اللفظ غَلَبَ حكمُه. مفردات الراغب: ٥١٥، مادّة «علم»، تاج العروس ٨: ٤٠٧/ سطر ٣ ـ ٨، مادّة «علم».

وقد يطلق لفظ «العالَم» ويُراد به صنف من أصناف البشر مجتمع الأفراد، كالعالَم الغربيّ، والعالَم الشرقيّ.

ولا يوجد في اللغة العربيّة ما هو على زِنة «فاعَل» ويجمع بالواو والنون غير هذه الكلمة[1].

والظاهر أنّ المراد منها في المقام مجموع ما خلق اللّه إذا لم يثبت ما قيل من اختصاصها بالعوالم المدرِكة؛ لأنه تبارك وتعالى في مقام بيان نعمة اللّه على مخلوقاته، ولا إشكال في أنّ تربيته لأيّ عالَم من العوالم نعمة على بعض مخلوقاته.

ثمّ إنّ ظاهر الجمع هو الشمول، ولامخصِّص له ببعض العوالم دون بعض.

وقد قال بعض المفسِّرين: إنّها غير شاملة لجميع العوالم، وخصّها بعضهم بعوالم البشر[2].

وخصّها آخرون بجميع العوالم من الجنّ والإنس والملائكة[3].

ولقد استُدِل على التخصيص المذكور بوجوه:

---

(١) القاموس المحيط ٤: ٢١٦ مادّة «علم»، تاج العروس ٨: ٤٠٧/ سطر ١١ ـ ١٢ عن ابن سيده.

(٢) مفردات الراغب: ٥١٥ مادة «علم»، تاج العروس ٨: ٤٠٧/ سطر ١٥، في المصدرين عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: (عنى به الناس، وجعل كلّ واحد منهم عالماً)؛ مجمع البيان ١: ٢٢، روح المعاني ١: ٧٩.

(٣) مفردات الراغب: ٥١٥ مادّة «علم» عن ابن عبّاس، تاج العروس ٨: ٤٠٧/ سطر ١٤، مجمع البيان ١: ٢٢، التبيان ١: ٣٢.

الأوّل: وحدة السياق وذلك لأنّ «يوم الدين» المذكور في الآية الواقعة بعد ذلك ﴿**مالكِ يَوْمِ الدِّين**﴾[1] هو يوم القيامة الذي يكون فيه الحساب، وهو مختصّ بالبشر؛ إذ لا يُحاسب سواهم، فلابدّ وأن يُراد بالعالَمين خصوص عوالم البشر.

والجواب على هذا: أنّ وحدة السياق لاتكون دليلاً على الاختصاص بعد اختلاف المقصود من الآيتين.

فالمقصود من قوله تبارك وتعالى: ﴿**ربِّ العالَمين**﴾ إنّما هو [بيان][2] أحد أسباب انحصار الحمد به تعالى، وهو سعة فضله على العباد وعظيم نعمه عليهم، ولا إشكال في أنّ تربيته لجميع العوالم نعمة كبيرة على البشر، وليست النعمة في تربيتهم فقط؛ لأنّ جميع العوالم قد خلقها اللّه لمنفعة البشر، كما قال تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿**خَلَقَ لَكُمْ ما في الأَرْضِ جَميعاً**﴾[3] وفي سورة الجاثية: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا في السَّموات وَمَا في الأَرْضِ**﴾[4]، فإذا كان جميع ما في الأرض من عوالم إنّما خُلقت للبشر، وكان جميع ما في السموات والأرض مسخّرة له، فلا إشكال في أنّ خلقتها وتربيتها وتدبيرها من أعظم النعم على البشر الذي ينبغي له أن يحمد اللّه تبارك وتعالى على هذه النعمة.

وأمّا قوله تبارك وتعالى: ﴿**مالِكِ يَوْمِ الدِّين**﴾ فإنّما هو لبيان نعمة اللّه على

---

(١) سورة الفاتحة: ٤.

(٢) في الأصل: إنّما هو رب لبيان أحد ...

(٣) آية: ٢٩.

(٤) آية: ١٣.

العباد في يوم القيامة، أو لأجل تخويفهم من عذابه فاقتضى اختصاص ذلك بهم؛ اذ لا يكون في شرِّ سواهم نعمةٌ عليهم ولا مخوّفٌ لهم.

الثاني: أنّ الاختصاص مُستفاد من قرينة التربية: إمّا خصوص عوالم الإنسان، أو مطلق العوالم المدركة؛ أي عوالم الانسان والملائكة والجنّ؛ اذ لامعنى لتربية الحيوانات والنباتات غير القابلة للتربية.

والجواب على هذا أيضاً: أنّ تربية كلّ شيء بحسبه، فالحيوان والجماد والنبات ـ أيضاً ـ يمكن تربيته، ومعنى تربية الأمور المذكورة تربية الأجسام، تربية خِلْقتها، [لا][1] تربية الأخلاق، فتربية الديك أو الخروف تعني في العرف التغذية والرعاية.

الثالث: أنّ لفظ «العالَمين» قد استُعمل في القرآن وأُريد منه عوالم البشر خاصّة، وذلك في قوله تعالى: ﴿**واصْطَفاكِ على نِساءِ العالَمين**﴾[2]، وقوله في أوّل سورة الفرقان: ﴿**ليكونَ للعالَمينَ نَذيراً**﴾[3]، وقوله: ﴿**أتأتونَ الفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أحَدٍ مِنَ العالَمين**﴾[4] وقوله: ﴿**أتأْتونَ الذُكْرانَ مِنَ العالَمينَ**﴾[5]، ولما كان القرآن يفسِّر بعضه بعضاً، فلابدّ أن يكون المراد منه في المقام ذلك أيضاً.

والجواب: أنه لادليل على أنّ المراد بكلمة «العالَمين» في جميع الموارد

(١) إضافة يقتضيها السياق.

(٢) آل عمران: ٤٢.

(٣) الفرقان: ١.

(٤) الأعراف: ٨٠.

(٥) الشعراء: ١٦٥.

واحد، فقيام قرائن ومناسبات على أنّ المراد بها في الآيات المذكورة عوالم البشر لا يكفي لحمل الكلمة في المقام على ذلك ايضاً.

وأما حديث أنّ القرآن يُفسِّرُ بعضُه بعضاً، فمعناه أنّ كلامين قرآنيّين إذا علمنا وحدة المقصود منهما، وكان أحدهما واضحاً في مدلوله دون الآخر أمكننا أن نفسِّر الآخر على ضوء ما هو واضح مبين، وليس معناه أنّ تقييد المطلق وتخصيص العامّ في مورد يستدعي تقييده أو تخصيصه في مقام آخر.

الرابع : ما في المنار[1] من الرواية عن الإمام الصادق بأنّ كلمة «العالمين» مختصّة بأهل العلم والإدراك.

وأنا لم أجد هذه الرواية ولا مافي معناها عن الإمام الصادق، ولا عن سائر الأئمة في أيّ كتاب من كتب الحديث والتفسير، بل المرويّ في كتب علمائنا خلاف ذلك، في تفسير الصافي[2] عن كتاب العيون[3]: أنّ أمير المؤمنين قال في تفسير الآية: **((يعني مالك الجماعات من كلّ مخلوق وخالقهم وسائق أرزاقهم إليهم من حيث يعلمون ومن حيث لايعلمون، يقلّب الحيوانات في قدرته، ويَغْذوها من رزقه، ويَحُوطُها بكَنَفه، ويدبِّر كلّاً منها بمصلحته، ويُمسك الجماعات بقدرته، يُمسك ما اتّصل منها من التهافت، والمتهافت عن التلاصق، والسماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه، والأرض أن تخسف إلاّ بأمره)).**

---

(١) المنار ١: ٥١.

(٢) التفسير الصافي: ٢٠/ سطر ٢.

(٣) عيون أخبار الرضا ١: ٢٨٣.

ويمكن أنّ يُستدلّ على عموم كلمة «العالَمين» بقوله تعالى في سورة الشعراء(١): ﴿قالَ فِرْعَوْنُ: وَما رَبُّ العالَمين؟ قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَما بَيْنَهُما إنْ كُنْتُمْ مُوقِنين﴾.

والاستدلال بهذه الآية يتوقّف على أن يكون المراد منها بيان معنى كلمة «رَبّ العالَمين»؛ لتكون أمارة على أنّ المرادَ بالكلمة المذكورة العمومُ مالم تقم قرينة خاصّة.

وأمّا إذا كانت الآية المباركة في مقام بيان حقيقة «ربّ العالمين» فلا دلالة لها في المقام.

الخامس: أنّ «عالَمين» جمع مذكر سالم لكلمة «عالَم»، وهذا قرينة على اختصاصه بالعوالم المدرِكة الشاعرة.

والجواب: انه لامجال لتوهم اختصاص «عالَمين» بغير العوالم المدرِكة، بل إمّا أن تكون مختصّة بها، أو شاملة لها بالعموم، وعلى كلا التقديرين يصحّ أن يُجمع بالجمع المذكّر السالم: أمّا على الأوّل فواضح.

وأمّا على الثاني فلأجل الغَلَبة، فإنّ العوالم المدرِكة إنْ لم تكن أكثر عدداً فلا ريب في أنها أجلّ وأشرف من جميع العوالم الأُخرى، فتُراعى في مقام الجمع.

ويمكن أن يكون الوجه في الجمع المذكور: أنّ لفظ «العالَم» لا يُطلق في لسان العرب إلاّ على ماهو قابل للتربية والترقّي ولو تكويناً، كالنبات والحيوان والإنسان فإنّ ترقّي الانسان بترقّي مدارِكه، وترقّي الحيوان والنبات

---

(١) الشعراء: ٢٣ ـ ٢٤.

بنموّه وتكامل قُواه، ولا يُطلق على مثال التراب والحجر الذي لا يقبل الترقّي والنموّ، فلتلك الأمور إذن مُشابَهة بالإنسان فصحّ أن يجمع بجمع مذكّر سالم.

السادس: أنّ «العالَم» وإن كان بموجب وضعه عامّاً إلاّ أنه في المتفاهَم العُرفيّ مختصّ بجماعة من العقلاء؛ لأنّ العرف يستسيغ قولنا: «جاء عالم من الناس»، ولا يستسيغ أن تقول: «جاء عالم من البقر».

والجواب: أنه لا اختصاص لهذا اللفظ بالعقلاء عُرفاً، كما لا اختصاص له بهم لغة، وإنّما لا يصحّ عُرفاً أن يقال: «جاء عالَمٌ من البقر»؛ لأنّ ظاهر المجيء هو المجيء الاختياري الذي لا يصدُق على البقر، ولذلك يصحّ لك أن تقول: «رأيت عالماً من البقر» مستبدلاً المجيء بالرؤية.

فظهر: أنه لا موجب لرفع اليد عن عموم اللفظ للذي يشمل جميع الكائنات حتّى الجمادات، أو يشمل خصوص العوالم التي تقبل التربية بالتنمية في قُواها الإدراكية أو غيرها، وهي عوالم النبات والحيوان والانسان؛ بناءاً على أنّ التربية المأخوذة في مفهوم «الربّ» تفرض هذا الاختصاص.

وأما الاختصاص بعالَم العقلاء فحسب فلا موجب له.

هذا خلاصة الكلام في تفسير هذه الآية.

[الدروس العملية لآية ﴿الحمْدُ للّهِ رَبِّ العالَمين﴾]:

ولننظر الآن الى ما يمكن أن نستفيده من هذه الآية الكريمة، ونستوحيه من دروسٍ عمليّة:

إنّ الآية تعلّمنا أن نحمد اللّه تعالى على نعمه، ولا نحمد سواه؛

لما عرفنا من انحصار الحمد به تعالى.

وتعلّمنا اهتمام اللّه تعالى بالتربية وإعلاءه لشأنها حين وصف ذاته بها، الأمر الذي يجعلنا نهتمّ بتربية نفوسنا وصقلها وبلورتها روحيّاً وفكريّاً، وضبطها سلوكيّاً على أساس الإسلام، وتعميق التقوى والورع فيها.

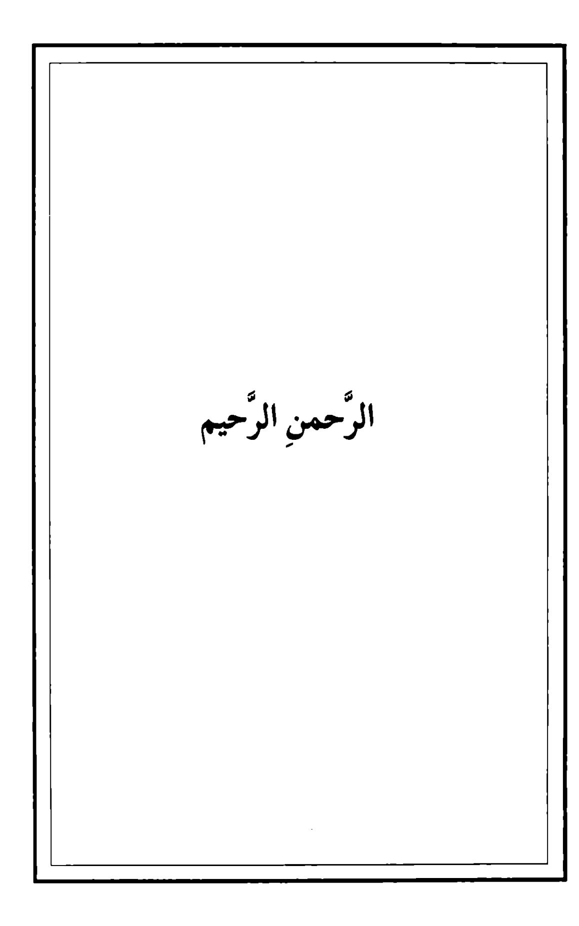
وكذلك تربية أولادنا، بحيث نعلم أنّ تربيتهم ليست بتهيئة الطعام والشراب لهم، وتوفير وسائل الحياة المدنية لهم، وفسح مجال الدراسة العلميّة أمامهم؛ لأنّ كلّ ذلك لا يصنع الإنسان، وإنّما الذي يصنع في الإنسان إنسانيته وينمّيها ويوقدها هو الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية وعمق العقيدة واستيعابها؛ بحيث يجعل منها منظاراً ومقياساً.

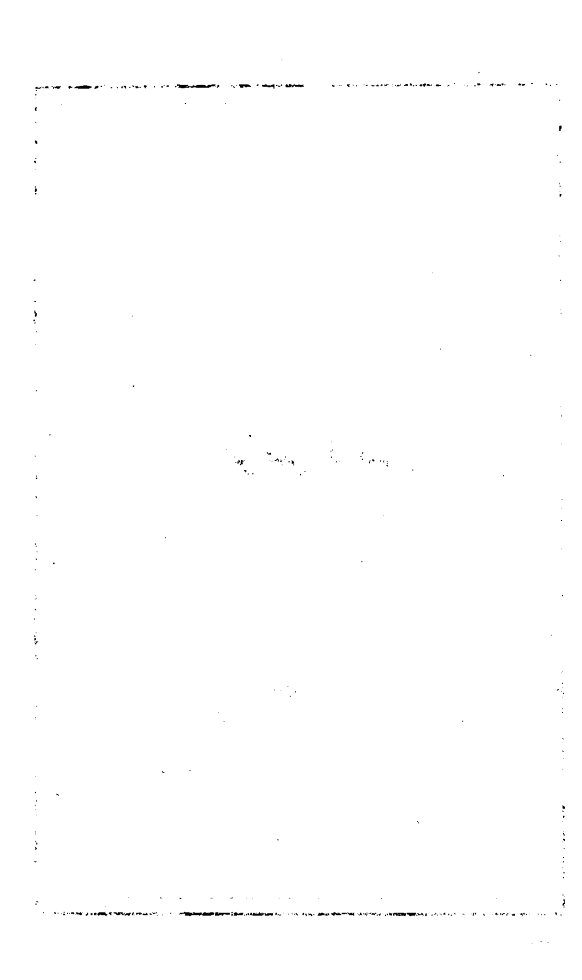
فيجب على الأب أن يسهر على روح ابنه، كما يسهر على صحّته وتوفير الحياة المادّية له، ويجب عليه أن يضبط سلوكه، ويراقب تصرفاته؛ ليكون مُمتثلاً لقوله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُها النّاسُ وَالْحِجارَةُ﴾[1].

كمالابدّ للأب أن يُبادر بدفع ابنه إلى طبيب روحيّ إن لم يستطع أن يُطبّبه بنفسه إذا لاحظ بوادر الشر والانحراف في روحه أم عقله، كما يُسرع إلى طبيب البدن حين يمرض، وبدون هذا الاهتمام والرقابة و الإجراءات يعرّض الأب ابنه للضياع رُوحيّاً ودينيّاً، وبالتالي لخسارة السعادة الحقيقيّة في الدارين.

---

(١) التحريم: ٦.


الرَّحمنِ الرَّحيم



[سبب تكرار ﴿الرَّحْمنِ الرَّحيم﴾]:

قد ذكرنا معنى هاتين الصفتين المباركتين والمباحث المتعلّقة بهما عند تفسير «البسملة»، فلا موجب للإعادة.

وإنّما يبقى علينا أن نجيب على سؤال واحد قد يخطر على البال، وهو أنّ اللّه تعالى لماذا كرّر ذكر هاتين الصفتين مرّتين في هذه السورة؟ وما هو الوجه في ذلك؟

والجواب على هذا السؤال بعدّة أُمور:

الأوّل: أنّ ذكر الصفتين مرّة ثانية لبيان أحد علل انحصار الحمد بِهِ تعالى وأنّ من تلك العلل رحمته واستيعاب هذه الرحمة ولزومها.

الثاني: أنّ ذكرهما ثانياً كان لبيان أنّ تربيته للعالَم ليس لمنفعة له في ذلك، بل لأُجل سعة رحمته ولزومها.

الثالث: أنه تعالى لما وصف نفسه المباركة بأنه ربّ العالمين، وصف نفسه بأنه الرحمن الرحيم؛ لأُجل إزاحة توهّم أنّ ملكه تعالى للعالَمين وتسلّطه عليها موجبان للقسوة والتجبّر؛ قياساً له على من تكون له سلطة من عبيده، فإنه في الغالب تغلب قسوتُهُ رحمتَهُ، فهو تعالى مع تسلّطه

الكامل له رحمةٌ واسعة لازمة.

الرابع: أنّ التكرار إنّما هو لأجل تأكيد معنى هاتين الصفتين في الأذهان والمبالغة في ذلك، فإنه قد يُستفاد من التكرار ذلك.

الخامس: لأجل أن يقدّر الناس عِظَم رحمته تبارك وتعالى، فلا يعصون أوامره، ولا يُخالفون نواهيه، وكيف يعصي الإنسان ربّه الذي تفضّل عليه بوجوده، وترحّم عليه بكلّ ماعنده من النعم، ورحمته لازمة له لاتُفارقه لحظة، وإن فارَقَتْه لحظةً فارَقَه كلُّ خير.

سادسها: أنّ التكرار إنما هو لأجل إلفات نظر البشر إلى اهتمامه تبارك وتعالى بالرحمة؛ ليرحم البشر نفسه باتقاء عذاب الله وعدم مخالفته وتجنّب معصيته.

بل إنّ في معصية الله العذاب الآخر، وهوالشقاء في الدنيا؛ لأنّ السعادة الحقيقية إنّما هي في اتّباع الإسلام، ولا تسعد الأمّة في حياتها بدونه، فلا يمكن أن نهب أنفسنا السعادة الواقعيّة ونُنقذها من عذاب الآخرة إلاّ بطاعة الله.

وقد جاء في الروايات عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: **((لا دينَ لمن دانَ بطاعة مَنْ عصى الله، لا تُسخِطوا الله بمرضاة أحد من خلقه، ولا تتقرّبوا إلى أحد من الخلق بالتباعُد من الله عزّوجلّ، فإنّ الله ليس بينه وبين أحد شيء يُعطيه به خيراً، أو يصرف عنه سوءاً، إلاّ بطاعته وابتغاء مرضاته، وأنّ طاعة الله مفتاح كلّ خير يُبتغى ونجاةٌ من كلّ شرّ يُتّقى، وأنّ الله يعصِم مَن أطاعه، ولا يعتصم منه مَن عصاه، ولا يجد الهارب منه مَهرباً))**.

نعم يجب على كلّ عاقل أن يرحم نفسه باتّقاء عذاب الله، وذلك بأن

يتّبع العقيدة الحقّة، ويأتي بما أمر اللّه به، ولا يُغني أحدُهما عن الآخر، ففي كتاب أُصول الكافي[١] عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: ((**أيكتفي من ينتحل التشيّع أن يقول بحبّنا ـ أهلَ البيت ـ فواللّه ما شيعتنا الا من اتقى اللّه واطاعه**)).

ثم قال عليه السلام: ((**يا جابر لا تذهبن بك المذاهب، حَسْب الرجل أن يقول: أُحبّ عليّاً وأتولاّه، ثمّ لا يكون مع ذلك فعّالاً؟! فلو قال: إنّي أُحِبّ رسول اللّه ـ فرسول اللّه خيرٌ من عليّ ـ ثمّ لا يتّبع سيرته، ولا يعمل بسنته، ما نفعه حبُّهُ إيّاه شيئاً. فاتّقوا اللّه لما عند اللّه، فليس بين اللّه وبين أحد قرابة، أحبّ العباد إلى اللّه عزّوجلّ أتقاهم وأعملهم بطاعته.**

يا جابر فواللّهِ ما يُتقرّب إلى اللّه تبارك وتعالى إلاّ بالطاعة، وما مَعَنا براءة من النار، ولا على اللّه لأحد من حجّة، من كان مطيعاً فهو لنا [وليّ]، ومَنْ كان للّه عاصياً فهو لنا عدوّ، ولا تُنال وِلايتُنا إلاّ بالعمل والورع)).

نعم إذا كُنّا نحبّ أنفسنا، فينبغي أن نهيّء، لها سعادة الدنيا والآخرة، وذلك باتّباع الإسلام، وإذا كنا نحبّ نبيّنا وأئمّتنا، فعلينا أن نتّبع آثارهم، ونقتدي بأعمالهم؛ إذ أنّ المحبّ لابدّ وأن يتّبع محبوبه.

وعجيب ممّن هو من أُمّة محمّد ومحبّيه، ومن شيعة عليّ والحسين ومحبّيهما، وهو يترك صلاته، وقد قال النبيّ ـ صلّى اللّه عليه وآله ـ في الصلاة: ((**قُرّةُ عيني الصلاة**))[٢]، وقد صلّى أميرالمؤمنينَ بين الصفَّينِ في

---

(١) أُصول الكافي ٢: ٧٤ ـ ٧٥/٣ باب الطاعة والتقوى من كتاب الإيمان والكفر.

(٢) كتاب الخصال ١: ١٦٥/ ح٢١٧ باب الثلاثة.

صِفّينَ ولم يؤخّر الصلاة عن وقتها، وقد صلّى نافلةَ الليل بين المعسكرين، وقد صلّى الحسين يوم عاشوراء الصلاة المعروفة.

وكيف يتهاون المسلم المحمّديّ والشيعيّ العلويّ الحسينيّ في الدعوة إلى اللّه وإلى الإسلام، وقد قال النبيّ ـ صلّى اللّه عليه وآله ـ لمّا عُرض عليه ترك الدعوة: ((**لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي**[1]**، لما تركتُ هذا الأمرَ**))[2] وقد قال أميرالمؤمنين عليه السلام مُشيراً إلى نعل بالية: ((**إنّ هذا النعل أحبّ إليّ من إمْرتكم، إلاّ أن أُقيم حقّاً أو أُميت باطلا**))[3]، وقد ضحّى الحسين بنفسه وأهل بيته في سبيل الدين والدعوة إلى الدين، كما قال الشاعر عن لسانه عليه السلام:

إن كان دينُ محمّدٍ لم يستقمْ ... إلاّ بقتلي يا سيوفُ خُذيني[4]

وكيف يظلم الشيعي أحداً وإمامه لم يرضَ أن يظلم نملة في قوتها ولو أُعطي الأقاليم[5] السبع[6]؟!

---

(١) في الأصل: «عن يميني ... عن شمالي»، فأثبتناها كما في المصدر.

(٢) السيرة النبويّة لابن هشام ١: ٢٦٦.

(٣) نهج البلاغة ـ صبحي الصالح: ٧٦.

(٤) في رحاب أئمّة أهل البيت ٢: ٥٦.

(٥) في الأصل: الأقانيم: وهي في اللغة «الأصول»، واحدها «أُقنوم»، قال الجوهري: وأحسبها روميّة. (اللسان ١٢: ٤٩٦ مادة «قنم»)، وهي غير مناسبة هنا، والمناسب ما أثبتناه من المصدر، والأقاليم واحدها إقليم، وأقاليم الأرض السبعة: أقسامها. (اللسان ١٢: ٤٩١ مادّة «قلم»).

(٦) نهج البلاغة ـ صبحي الصالح ـ: ٣٤٧.

السابع: أن المراد إلفات نظر الناس إلى اهتمامه بهذه الصفة؛ ليرحم بعضهم بعضاً؛ ليعيش العالم في أسعد حياة، وكم تكون الحياة سعيدة لو اتّصف الناس بهذه الصفة، ولا رتفعت كثير من المشاكل الدولية والأزمات العالمية، ولاستراح البشر من الحروب والمشاغبات، ومن الخطر الذي يهدّد البشر بالفناء والتدمير.

والذي يظهر من الاخبار: أنّ مَن لم يَرحم غيرَه في الدُّنيا لم يرحمه اللّه في الآخرة[١]، فقد ورد الحديث: ((**إنّ الأعمال حينما تصعد إلى السماء، فيُمرّ بها إلى مَلَك الرحمة، فيقول المَلَك: قف أنا صاحب الرحمة، اضربْ بهذا العمل وجهَ صاحبه، واطمسْ عينيه؛ لأنّ صاحبه لم يرحَمْ شيئاً**)).

والذي يظهر من بعض الأخبار: أنّ الرحمة من علامات أهل الدين، فقد روي عن سيّدنا أمير المؤمنين أنه قال: ((**لأهل الدين علامات يُعرفون بها: صدقُ الحديث، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد، وصلة الرحم، والرحمة بالضعفاء**))[٢].

وما ابتُلي العالَم بالضعفاء والفقراء إلاّ لتركهم نظام الإسلام الذي جعله اللّه لعباده، ذلك النظام العظيم الذي لو طُبِّق لَما بقي فقير، ولَما افتقر غنيّ.

وقد ظهر من الأجوبة الأربعة الأخيرة جواب سؤالين آخرين وهما:

لماذا اختار اللّه هاتين الصفتين دون غيرهما؟

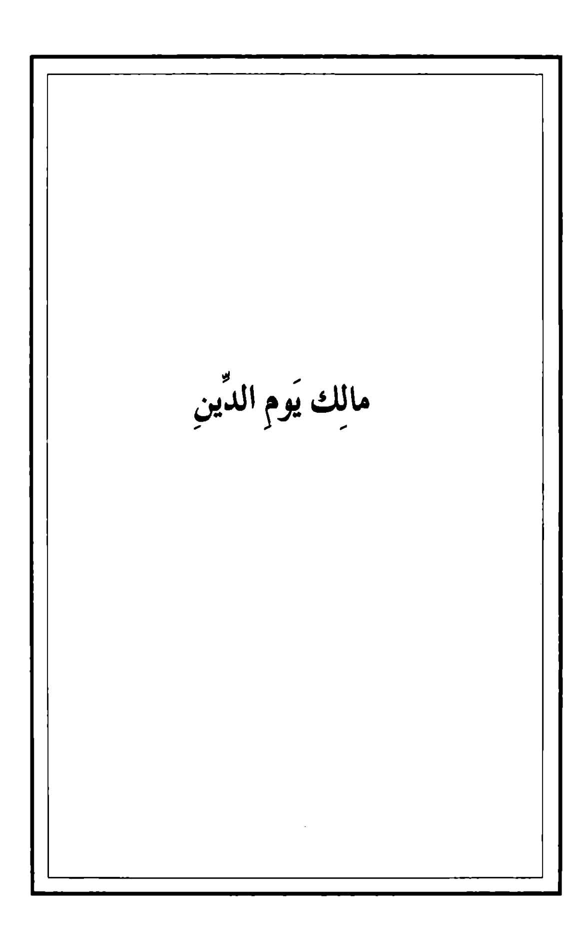
---

(١) من لا يحضره الفقيه ٤: ٢٧٢/٨ باب ١٧٦ في النوادر، كتاب المواعظ: ٥٣.

(٢) تحف العقول: ٢١١/ حكم علي عليه السلام ومواعظه.

ولماذا كرّرهما في كلّ سورة؟

إذ أنّ تكرارهما إنّما هو لما ذكرناه، وإذا كان من الحكمة تكرارهما، فوجه اختيارهما واضح.



مالِك يَومِ الدِّينِ

[القراءات في ﴿مالك﴾]:

في ﴿مالك﴾ خمسُ قراءات:

الأولى: ﴿مالِك﴾: وهي قراءة عاصم والكسائي من القُرّاء السبعة، ويعقوب وخلف من القرّاء العشرة.[1]

الثانية: ﴿مَلِك﴾:[2] على وزن «كَتِف» بفتح الأوّل وكسر الثاني، وهي قراءة بقيّة القُرّاء السبعة وقراءة أهل الحجاز.

الثالثة: «مليك»[3]:على وزن «فعيل».

الرابعة: «مَلَكَ»: بصيغة الفعل الماضي، وهذه القراءة قد نُسبت[4] إلى

---

(١) مجمع البيان ١: ٢٣، روح المعاني ١: ٨٢.

(٢) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر وحمزة. روح المعاني ١: ٨٢، اللسان ١٠: ٤٩١ مادّة «ملك».

(٣) مختصر في شواذّ القرآن لابن خالوية: ٩، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ا: ٢٦، روح المعاني ١: ٨٢-٨٣.

(٤) الكشاف ١: ١١، مختصر في شواذ القرآن لابن خالوية (نسبه الى أنس بن مالك): ٩.

إمام الحنفية أبي حنيفة، وإلى الأعمش.

الخامس: «مَلْك» بتسكين اللام[1].

والقراءات الثلاث الأخيرة شاذّة لا يُلتفت إليها، فيدور الأمر بين القراءتين الأولّتين، وقد ذكر لترجيح كلّ منهما وجوه:

[مرجّحات القراءة الأولى ومناقشتها]:

أمّا القراءة الأولى: فقد قيل[2] في ترجيحها: إنّ مفهوم مالك أوسع وأشمل؛ فإنه إذا قيل «مالك القوم» استُفيد منه كونه مَلكاً لهم، أمّا إذا قيل «مَلكُ القوم»، فلا يُستفاد منه كونه مالكهم؛ فالمالكية مُلازمة للملكية دون العكس، فهي أرجح.

وقد يناقش في المرجح المذكور: بأنّ المالك قد لا يكون مَلِكاً، ولا يتمكّن من التصرُّفات العائدة إلى تدبير الملِك وحياطته ورعاية مصالح المملوكين، بل المَلِك هو القادر على ذلك، أحدهما أوسع من الآخر فلا يتمّ المرجّح المذكور.

وهذه المناقشة نشأت من الاعتقاد بأنّ المراد بـ ﴿مالك﴾ المالكية الاعتبارية، لا المالكية الحقيقية للّه التي تستوعب جميع الشؤون.

وقد يناقش في هذه القراءة: بأنّ الزمان لا تضاف إليه كلمة «مالِك» غالباً، وإنّما تضاف إليه كلمة «مَلِك»، فيقال: «ملك العصر» و «ملوك

---

(١) رواها عبدالوارث عن أبي عمرو. اللسان ١٠: ٤٩٢ مادّة: «ملك»، مجمع البيان ١: ٢٣، رواها عن ربيعة بن نزار.

(٢) البيان: ٤٨٠.

الأعصار»، ولا يقال: «مالك العصر» أو «مالك العصور المتقدمة».[١]

والجواب: بأنّ المالكية التي لاتضاف غالباً إلى العصر أو العصور هي المالكية الاعتبارية لا المالكية الحقيقيّة، و هي مالكية اللّه سبحانه و تعالى.

وقد يقال: إنّ قراءة «مالِك» لا تستقيم وفقاً للقواعد العربية؛ لأنّ الإضافة بناءاً على هذه القراءة تكون لفظيةً، ولا يقع المضاف بالإضافة اللفظية صفة المعرفة، مع أنّ الجملة قد وقعت وصفاً لأسمه تعالى، وهو معرفة، فيجب أن تُقرأ الكلمة المضافة «مَلِك» لا «مالِك»؛ لكي تكون الإضافة معنويّة، ويستقيم ـ عندئذ ـ وقوعها صفة للمعرفة.[٢]

والجواب: أنه لا مانع من أن تكون الاضافة اللفظية صفة لمعرفة، كما صرّحت بذلك كتب الأدب، وإنّما لا يصحّ أن تكون الإضافة اللفظية صفة المعرفة إذا كانت من الصفات المشبهة.[٣]

وقد استشهد[٤] لصحّة هذه القراءة بقوله تعالى: ﴿وَالأَمرُ يَومَئِذٍ لِلّهِ﴾[٥]؛ أي يوم القيامة.

والجواب: أنّ الكلام إنّما هو في ترجيح إحدى القراءتين على الأخرى مع الاتّفاق من الجميع على أنه تعالى هو المالك والملِك ليوم القيامة،

---

(١) و (٢) البيان: ٤٨٠.

(٣) الكشاف ١: ١٢.

(٤) مجمع البيان ١: ٢٤.

(٥) الانفطار: ١٩.

فلا تكون دلالة الآية المستشهَد بها على أنه المالك قرينة على أنّ هذا هوالواقع في الآية التي نفسّرها الآن.

مضافاً إلى أنّ كون الأمر لله ـ كما تدلّ عليه تلك الآية ـ كما يكون لأجل المالكية يكون أيضاً لأجل الملِكية.

[مناقشة الفخر الرازي]:

وقد احتجّ الفخر الرازي[1] لقراءة ﴿مالك﴾ بوجوه أُخرى لا يمكن الاعتماد عليها في فهم الآية:

أوّلها: أنّ فيه حرفاً زائداً، فكانت قراءته أكثر ثواباً.

والجواب: هو أنّ الترجيح إنّما هو بما يجعل إحدى القراءتين أنسب في المقام، وأكثريّة الثواب ـ إن سُلّمت ـ لا تصلح لذلك.

ثانيها: أنه يحصل في القيامة ملوك كثيرون، أمّا المالك الحقّ ليوم الدين فليس إلا اللّه تعالى.

والجواب: أنّ المراد ليس هو المَلِك الموجود في يوم الدين ؛ ليرد ما ذكر، بل المراد المَلِك المتصرف في شؤون يوم الدين، وليس هو إلاّ اللّه تعالى.

ثالثها: أنّ المَلِكَ مَلِكٌ للرعيّة، فالقهر في المالكية أكثر.

والجواب: أنّ القهر في المالكية إنّما كان أكثر؛ لأنه أُخذ المَلِك بمعناه الاعتباري، ولا شكّ أنّ المالكية الحقيقيّة أكثر قهراً من الاعتبارية.

وأمّا إذا أخذنا كلتا الكلمتين بالمعنى الاعتباري، فلانُسلّم كون المالك أكثر قهراً من المَلِك؛ لأنّ الملِكَ ليس تابعاً لرعيّته، بل هو المتسلّط، وكونه

(١) التفسير الكبير ١: ٢٣٧.

منصوباً من قبلهم لا يقلّل من سلطته وقهره.

رابعها: أنّ الرعيّة يمكن لهم إخراج أنفسهم عن كونهم رعيّة، أمّا المملوك فلا يمكنه إخراج نفسه عن المملوكيّة، فثبت أنّ القهر في المالكية أكثر منه في الملكية.

والجواب: أنه لا إشكال في عدم إمكان إخراج الإنسان نفسه عن مَلكية اللّه تعالى، ولا عن مالكيته، وإخراج الرعيّة لنفسهم عن كونهم رعيّة للمَلِك إنّما هو فيما إذا كانت المِلكية اعتبارية، لا من قبيل مَلكية اللّه الحقيقيّة.

أضفْ إلى هذا أنّ تمكّن الرعيّة من ذلك لا يعني أنّ تسلّط الملك في حال ملكيته أقلّ من تسلُّط المالك.

خامسها: أنّ المملوك يجب عليه خدمة المالك، ولا يجب على الرعيّة خدمة المَلِك، ولا يتمكّن المملوك من فعل بدون إذْن المالك دون الرعيّة، فَعلمنا أنّ الانقياد والخضوع في المملوكية أتمّ منه في حال كونه رعيّة بالنسبة إلى المَلِك.

والجواب: أنّ الرعيّة إذا أمرها الملِك أن تُضحّي بنفسها لا يمكنها الامتناع، بخلاف المملوك، وهذا يعني عمق سيطرة المَلِك وامتدادها أكثر من سيطرة المالك الاعتيادي، فلا يتمّ المرجِّح المذكور.

وقد ذكر لترجيح قراءة ﴿ملِك﴾ وجوهٌ كلّها ضعيفة، ذكر الثلاثَ الأولى منها الفخرُ الرازي في تفسيره[١]:

---

(١) التفسير الكبير ١: ٢٣٨.

أوّلها: أنّ كلّ واحد من أهل البلد يكون مالكاً، أما المِلك فلا يكون إلاّ أعظم الناس وأعلاهم، فكان المِلك أشرف من المالك.

والجواب: أنّ مالكية اللّه هي المالكية الحقيقية، ولا وجه لقياسها على المالكية الاعتبارية التي تكون لأهل البلد.

ثانيها: أنّهم أجمعوا على أنّ قوله تعالى في أوّل سورة الناس: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النّاسِ مَلِكِ الناس﴾[1] يتضمّن كلمة «مِلك» ولولا أنّ المِلك أعلى من المالك لما أجمعوا على تعيُّنه.

والجواب: أنّ من الممكن أن لا يكون أحدهما أعلى، وكانت الحكمة تقتضي ذكر «مالك» هنا و«مَلِك» هناك.

ثالثها: أنّ «مِلك» أولى؛ لكونه أقصر، بخلاف كلمة «المالك»، فإنها أطول، فيحتمل أن لايجد من الزمان ما يتمّ فيه هذه الكلمة، ونُقِل هذا عن أبي عمرو.

ولا يخفى عدم صحّة مثل هذه الوجوه للترجيح في المقام.

رابعها: أنّ هذه الصفة ـ وهي صفة المَلِكية ـ أمدح؛ لأنّ المَلِك هو الذي يملك الكثير من الأشياء، ويشارك الناس في التصرّف في أموالهم لحكمه عليهم وتسلّطه على جميع حركاتهم.

والجواب: أنّ الوجه المذكور إنّما يصلح للترجيح بين «مَلِك» و «مالك» بالملكية الاعتبارية، وأما «مالك» بالملكية الحقيقية، فهو له ـ أيضاً ـ التصرُّف الكامل في المملوك.

---

(١) الناس: ١ ـ ٢.

مع أنّ الترجيح المذكور إنّما يكون له مجال لو لم يذكر المتعلَّق، وأمّا مع ذكر المتعلَّق ـ كما في المقام ـ فلا مجال له؛ لمعلومية المتعلَّق على كلا الوجهين، فلا تكون سعة المتعلق مرجِّحة؛ لمعلومية المتعلَّق، ولو كانت المالكية اعتباريّة.

خامسها: أنّ كلَّ مَلِكٍ مالكٌ، ولا عكس.

والجواب أنّ هذا الكلام إن أُريد به أنّ كلَّ مَلِكٍ مالكٌ في الجملة، فهو مُسلّم، إلا أنّ هذا لا يكون مرجِّحاً؛ إذ قد يكون هناك مالك أرجح منه؛ لكثرة ما يملك.

وإن كان المراد أنّ الملِكَ مالكٌ لكلّ ما هو داخل في مملكته، فهو معلوم البطلان.

هذا مع أنّ المقايسة المذكورة إنّما هي بين الملِك والمالك بالملكية الاعتبارية، لا المالكية الحقيقية؛ وذلك لأنّ كلّ مالك حقيقي فهو مَلِك على جميع ما يملك؛ بمعنى أنّ له السلطة التامّة على ما يملك، وشؤون جميع مُمتلكاته بيده، وقد عرفتَ أنّ اللّه تعالى مالك حقيقيّ، لا مالك اعتباري، فلا مجال للمرجِّح المذكور.

سادسها: أنّ قراءة «ملِك» أبلغ؛ لأنّ معناها المتصرِّف في أُمور الناس.

والجواب: أنّ المالك بالملكية الحقيقيّة له أتمّ أنحاء التصرّف، وهي نحو ملكية اللّه تعالى.

سابعها: أنّ أمر الملك نافذ على المالك؛ إذ لا يتمكّن من التصرُّف إلاّ بتدبيره، وأمّا الملك فلا يتوقّف تصرّفه على إذن المالك.

والجواب: أنّ الملِك أمره نافذ على المالك بالملكية الاعتبارية، لا المالك

الحقيـقي، فإنّ الملكية الحقـيقيّة توجب تمام السلطة على المملوك ـ كـما مرّ ـ وكلّ مالك حـقيقيّ فهـو مَلِك علـى ما يملك؛ لاجل سيطرته المطلقـة عليه، خلافاً للمالك الاعتباري.

فظهر أنّ القراءة الأُولى أرجح في عُرف هذا اللون من الترجيحات.

غير أنّ التـحقيق: أنه لا مجال لجمـيع هذه المرجِّحات؛ لأنّنا لسنا الذين أُوكِلَ [إليهم] أمر القراءة؛ لنختـار إحدى القراءتين، ونرى أنّ أيّهما أنسب، بل لابدّ لنا أن نرى ما قام الدليل عليه.

ولا إشكال في أنّ كلتا القـراءتين صحيـحة؛ لأنّ كلاً منهـما قد قـرأ بها بعضُ القُرّاء السـبعة، وهمـا معـاً مشهـورتان عند المسلمين، وقد قـام الدليل على صحّة القراءة المعروفة.

ومن جملة ما يدلّ على ذلك قول الأئمة عليهم السلام: ((**اقرأ كما يقرأ الناس**))[1]، ولمّا كانت القراءتان معاً مـشهورتين عند الناس، فيكون الحديث شاملاً لهما.

[في معنى «مالك» و «ملك»]:

ثمّ إنّ «مالك» مشتقّ من «المُلْك» بمعنى الإحاطة والسلطة.

وهذه الإحاطة: قد تكون خـارجية حقيقـية، وتسمّى بالملكية الحقيـقية، كملكيـة اللّه تعالى لما سواه لإحاطـته بما سواه حقـيقة، وتقوُّم غـيره به؛ لأنه الخالق لجميع الموجودات، والمخلوق متـقوِّم بموجده وخالقه، وهو تعالى العلّة الوحـيدة لجمـيعـها، وهي مـحتـاجة في بقـائهاإليـه، ولا تستـغني عنه؛ لأنّ

(١) الكافي ٢: ٢٣/٦٣٣ باب النوادر من كتاب فضل القرآن.

الممكن محتاج إلى الواجب دائماً في حدوثه وبقائه، كما قال اللّه تعالى ﴿وَاللّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ﴾(١).

وقد تكون الإحاطة والسلطة اعتبارية، وتسمّى بالملكية الاعتبارية، كما في ملكية الإنسان لما يقع تحت يديه؛ وذلك لأنه لا معنى لكون الإنسان مالكاً، إلاّ أنّ العرف أو الشرع أو هما معاً اعتبراه مالكاً لذلك الشيء، واعتبرا زِمام أمر الشيء بيده، وذلك عند حدوث سبب يقتضيه.

[و](٢) السبب الذي يقتضي الملكية الاعتبارية عند الشرع والعرف: قد يكون اختيارياً، كالبيع، والشراء، والاتّهاب(٣) والحيازة، وقد لا يكون اختيارياً، كما في موارد الإرث. فإن كان الحاكم هو العُرف والشرع كانت الملكية شرعيّة وعُرفيّة.

وهناك ملكية ثالثة: وهي الملكية المصطلح عليها عند الفلاسفة بمقولة الجِدَة؛(٤) أي إحاطة شيء بشيء خارجاً كالهيئة الحاصلة من إحاطة العمامة بالرأس أو الخاتم بالإصبع.

وأما المَلِك: فهو مأخوذ من المُلْكِ بضمّ الميم ـ وهو الذي يملك نظام القوم وبيده تدبيرهم.

وأمّا الدين: فهو بمعنى الجزاء والحساب والمكافأة، فإنّ يوم القيامة هو يوم

---

(١) محمّد: ٣٨.

(٢) إضافة يقتضيها السياق.

(٣) الاتّهاب: قبول الهبة. اللسان ١ : ٨٠٣.

(٤) الأسفار ٤ : ٢٢٣/ المقالة الثانية فصل ٦ في الجدَة.

الجزاء على أفعـال الدنيا ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾[1].

ولسـائل أن يسـأل: أليـست الأيّام كلّهـا أيام جـزاء فان الانـسان كـمـا يجازى في الآخرة قد يجازى في الدنيا على أعمـاله؟! فما وجه تسمية يوم القيامة بيوم الدين ويوم الجزاء وتخصيصه بهذا الوصف؟

والجواب: أنّ الإنسان وإن كان قد يجـازى في الدنيا عن أعماله، إلاّ أنّ يوم القيامـة هو اليوم الذي جعله اللّه للجزاء والمحـاسبة وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه. وأمّا دار الدُّنيا فهي لم تخلق لذلك وإن وقع فيها الجزاء أحياناً، مع أنّ الإنسان لا يلتفت غالباً إلى أنّ ما يُبتلى به في الدنيا إنّما هو جزاء على ذنبه، وعقاب على بعض أفعاله، خلافاً لحاله في الآخرة، فإنّ الجـميع يعلمون في ذلك اليـوم الرهيب أنّ ما ينالهـم من ثواب وعقـاب إنّما هو جـزاء أفعـالهم وأعمالهم في دار الدُّنيا.[2]

---

(١) الزلزلة: ٧ ـ ٨.

(٢) يوجد هـنا في الأصل كلام ناقص بمقـدار سطر واحد، وقـد حذفناه لعـدم تمامه، وإليك نصّه: (ويمكـن أن يكون المراد بالدِّين هنا العـقـيـدة الدينيّة، لا الحـسـاب والجزاء، وإنما...).

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

انتقل تبـارك وتعالى في هذه الآية الكريمة من الكلام عـن اللّه تعالى إلى المخاطبة معه؛ وذلك لأنّ العبد بعد أن بدأ كلامه باسم اللّه تعالى، كما علّمه ربُّه، ثمّ حمده وحصر الحمد به بلغ مع القُرب مكاناً لم يكن له، حتى كأنّ العلم صارله عياناً، والخبر شهوداً، وأصبح لائقاً بمخاطبة اللّه والتكلّم معه، فانتقل من الكلام عنه إلى الكلام معه.

[معاني العبادة]:

أمّا معنى العبـادة: فقد ذكـر أُستـاذنا السيّد الخـوئي[1] دام ظلّـه: أن العبادة في اللغة تأتي لأجل معانٍ ثلاثة:

أوّلهـا: الطاعـة: ومنه قوله تعـالى في سـورة يس:[2] ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

وقد ذكـر دامت بركاته: أنّ معنى عـبادة الشيطان المنـهيّ عنها في الآية المباركة إطاعته.

. ثانيـهـا: الخضـوع والتـذلُّل للمـعبـود، ومنه قـوله تعـالى في سـورة

---

(١) البيان في تفسير القرآن: ٤٨٨ ـ ٤٨٩.

(٢) آية: ٦٠.

المؤمنين:[١] ﴿فَقالُوا: أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَقَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ﴾.

قال دامت بركاته: معنى «عابدون» هنا: خاضعون متذلّلون، ومنه أيضاً إطلاق «المُعبَّد» على الطريق الذي يكثر المرور عليه.

ثالثها: التألّه[٢]؛ أي جعل المعبود إلهاً، ومنه قوله تعالى في الرعد: ﴿قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ﴾[٣].

ذكر دامت بركاته: أنّ معنى «أعُبد» هنا: أي أعتقد بألوهيّة اللّه وأجعله إلهاً، وهذا المعنى الأخير هو الذي ينصرف إليه اللفظ.

هذا خلاصة ما أفاده دامت بركاته في تفسير البيان.

ولكن الظاهر أنّ للعبادة معنىً واحداً عُرفيّاً، وهو الطاعة التامّة مع كمال الانقطاع إلى المعبود، وكمال الخضوع والخشوع له، خضوعاً وخشوعاً لا يليق إلاّ بالنسبة إلى المالك الحقيقي أو الاعتباري، وإنّما يطلق على البشر كونهم عبيد اللّه بهذا اللحاظ؛ لكونهم مملوكين له ومطيعين تكويناً؛ لأنه لا يمكنهم مخالفة اللّه فيما يطرأ على أجسادهم، وإنّما يطلق لفظ العبد على الرقيق؛ لأنه مطيع خاضع لمولاه أعلى مراتب الإطاعة، ومُوكّل أمره إليه، لا يطيع سواه؛ لأنه مملوك له، فلا يهتمّ بسواه.

ومن ذلك قول أبي عبداللّه الحسين عليه السلام: ((**الناسُ عبيد الدنيا،**

---

(١) آية: ٤٧.

(٢) التألّه: التنسُّك والتعبُّد. اللسان ١٣: ٤٦٩ مادة: «أله»، أساس البلاغة: ٩ مادة: «أله»، معجم مقاييس اللغة ١: ١٢٧ مادة «أله». ولم يَرِد في «البيان» تفسير التألّه بجعل المعبود إلهاً.

(٣) الرعد: ٣٦.

والدين لَعْق على ألسنتهم، يحوطونه ما درّت معائشُهم، فإذا مُحِّصوا بالبلاء قلَّ الديّانون))[1]؛ وذلك لأنهم لشدّة حبّهم للدنيا وإقبالهم عليها فكأنّهم يعبدونها.

وعلى المعنى الذي ذكرناه قوله تعالى في سورة المؤمنين؛ ﴿**وَقَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ**﴾[2]؛ أي مطيعون خاضون بأعلى مراتب الطاعة والخضوع؛ بحيث لاتليق تلك المرتبة إلاّ بالنسبة إلى المالك.

ومنه قوله تعالى: ﴿**لاتَعْبُدُوا الشَّيْطانَ**﴾[3]، فإنّه ليس معنى ذلك النهي عن إطاعته، بل المعنى المنهيّ عنه إطاعتهم له إطاعة العبد لمالكه.

[في معنى قوله تعالى: ﴿إيّاك نعبُد﴾]:

ثمّ إنّ المستفاد من الآية الكريمة بقرينة تقديم «إيّاك» حصر العبادة باللّه تعالى، والمراد بها ـ كما قيل ـ العبادة الملازمة للاعتقاد بأُلوهيّة المعبود.

ويمكن أن يقال: إنّ مطلق الطاعة التامّة والخضوع الكامل والانقياد الخالص، الذي لا يكون إلاّ للمالك، لا يجوز لغير اللّه تعالى، وإن لم يكن مصحوباً باعتقاد الألوهيّة، وإن اللّه تعالى لايرضى لعباده أن يُذلّوا أنفسهم وأن يطيعوا سواه طاعة غير مُقيَّدة ولا مشروطة بشروط، وإنّ العبادة بهذا المعنى لا تكون إلاّ له.

---

(١) البحار ٤٤ : ٣٨٣ باب ماجرى عليه بعد بيعة الناس ليزيد إلى شهادته، تحف العقول: ٣٤٥.

(٢) المؤمنون: ٤٧.

(٣) يس: ٦٠.

ويدلّ على حصر العبادة به تعالى بعض الآيات الكريمة الأخرى:

منها: قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَقَضى رَبُّكَ أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيّاهُ﴾[١]

ومنها: قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتاب تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللّهِ﴾[٢].

وياليت شعري من يستحقّ العبادة غير اللّه؟! وكيف يمكن لعاقل أن يعبد غير اللّه؟! فإنّ عبادة سواه تعالى ناشئة عن أحد أمرين:

أحدهما: الاعتقاد بتعدّد الخالق، وإنكار التوحيد.

وثانيهما: الاعتقاد بأنّ الخلق معزولون عن اللّه، فلا يصل دعاؤهم إليه، وهو محتاج إلى غيره؛ ليكون واسطة بينه وبينهم.

وقد أبطل اللّه سبحانه وتعالى في كتابه الكريم كلا الاعتقادين:

فأبطل الاعتقاد بتعدّد الآلهة بقوله تبارك وتعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُم عَلى بَعضٍ سُبْحانَ اللّهِ عَمّا يَصِفُونَ﴾[٣]، وقال تبارك وتعالى في سورة النمل: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللّهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنَ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾[٤].

---

(١) الاسراء: ٢٣.

(٢) آل عمران: ٦٤.

(٣) المؤمنون: ٩١.

(٤) النمل: ٦٤.

وأمّا الاعتقاد الثاني ـ وهو الاحتياج إلى واسطة ـ فقد أبطله سبحانه وتعالى: بإثبات أن من اعتقدوا أُلوهيّته ووساطته لدى اللّه لا ينفع ولا يضرّ، فقد قال سبحانه في سورة الشعراء: ﴿قَالُوا نَعبُدُ أصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ، قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إذْ تَدْعُونَ، أوْ يَنفَعُونَكُم أو يَضُرُّونَ. قَالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[1].

وأبطل تعالى هذه العقيدة ـ أيضاً ـ بإثبات عدم الحاجة إليه، وأنه تعالى قريب من عباده يسمع نجواهم، ويجيب دعاءهم، وأنه القائم بتدبيرهم وتربيتهم، فقال تعالى في سورة «ق»: ﴿وَنَحْنُ أقْرَبُ إلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ﴾[2]، وذكر تبارك وتعالى أنه كاف لعباده، فلا يحتاجون، إلى سواه في سورة الزمر: ﴿أليسَ اللّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[3]، وذكر تعالى أنه يسمع كلامهم، ويجيب دعوتهم في سورة غافر: ﴿أدْعُوني أسْتَجِبْ لَكُم﴾[4]، وذكر تعالى أنه عالم بما يخفون وما يعلنون، فلايحتاج إلى الواسطة بقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿قُلْ إنْ تُخفوا ما في صُدُورِكُمْ أوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّهُ، ويعلَم ما في السّمواتِ وَما في الأرْضِ وَاللّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْر﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ما يكونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إلاّ هُوَ رابِعُهُمْ، وَلا خَمسَةٍ إلاّ هُوَ

(١) الشعراء: ٧١ ـ ٧٤.

(٢) ق: ١٦.

(٣) الزمر: ٣٦.

(٤) غافر: ٦٠.

(٥) آل عمران: ٢٩.

سَادِسُهُمْ، وَلا أدْنَى مِنْ ذلِك وَلا أكثَرَ إلاّ هُوَ مَعَهُمْ أيْنما كَانُوا﴾[١].

أمّا الطاعة بلا عبادة، فلا إشكال في وجوبها بالنسبة إلى اللّه تعالى، وفي حرمة معصيته بحكم العقل، وذلك لحكم العقل بوجوب شكر المنعم، ولا إشكال أنّ من أهمّ ما يتحقق به شكر المنعم، هو إطاعة أوامره وترك معصيته، ولا ريب أنه تعالى هو المنعم الحقيقي؛ إذ ليست هناك نعمة تصل إلى الإنسان إلاّ وهي منه تبارك وتعالى، حتى النعم التي هي بحسب الظاهر صادرة من البشر؛ لكون الانسان لاقوّة له إلاّ باللّه، ولا يصدر منه عمل إلاّ بمعونة اللّه.

كما أنّ العقل يحكم بوجوب[٢] طاعته؛ للزوم دفع الضرر الأخروي[٣]؛ أي المحتمل؛ إذ لا إشكال أنّ ترك امتثال [أمر][٤] اللّه وعصيانه سبب لاستحقاق العقاب، وإن لم يُقطع بذلك أو يُظنّ[٥]، فلا أقلّ من احتمال ذلك، والعقل يأمر بترك ما يحتمل ورود العقاب عليه.

كما لا إشكال في جواز الخضوع والخشوع للّه، بل وجوبه؛ لأجل وجوب شكر المنعم ـ كما عرفت ـ وهل تجوز إطاعة غير اللّه، والخضوع والخشوع لغيره تبارك وتعالى، أم لا تجوز! ولا إشكال في جواز إطاعة من

---

(١) المجادلة: ٧.

(٢) في الأصل: في وجوب ...

(٣) في الأصل: الاخر

(٤) إضافة يقتضيها السياق.

(٥) في الأصل: تظنّ ...

أمر اللّه بإطاعته، وفي حرمة معصيته، كالنبيّ ـ صلوات اللّه عليه ـ وأهل بيته الطاهرين؟ وهذا بالحقيقة هو إطاعة للّه تبارك وتعالى، كما قال ذلك في كتابه الكريم في سورة النساء: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللّه﴾[1] وقال أيضاً في سوة النساء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنا مِنْ رَّسولٍ إلاّ لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللّه﴾[2]، ومن أجل ذلك قرن طاعة نبيه وأهل بيته الكرام بطاعته، فقال عزّ من قائل في سورة النساء: ﴿يا أيُّها الّذينَ آمَنُوا أَطيعُوا اللّهَ وَأَطيعُوا الرَّسولَ وَأُولي الأَمرِ مِنْكُمْ﴾[3] وهكذا يجوز الخضوع لهم؛ لكون الخضوع لهم خضوعاً لله، والخشوع لهم خشوعاً للّه؛ لأنهم عبيده المقرّبون وأولياؤه الصالحون.

فما ذكره ابن تيمية ـ من أنّ ذلك هو الشرك الأصغر ـ ناشئ عن عدم فهمه معنى الشرك، وحقيقة التوحيد، وكيف يكون التذلّل لهم شركاً، وإنما هو لأجل مقامهم عند اللّه، وحبّه تعالى لهم، بل لا دليل على حرمة مطلق الخضوع والخشوع لغير اللّه، ما لم يصدق عليه عنوان العبادة التي هي مختصّة باللّه تعالى؛ إذ ليس كلّ خضوع وخشوعٍ عبادة محرّمة كما عرفت.

ولو سلمنا حرمة ذلك فلا يوجب ذلك شركاً، وخروجاً عن الإسلام؛ إذ ليس إتيان كلّ محرّم يوجب الخروج عن الدين؛ لتواتر الأخبار الواردة من

---

(١) النساء: ٨٠.

(٢) النساء: ٦٤.

(٣) النساء: ٥٩.

طرقنا وطرق أهل السُّنّة: في أنّ الإسلام متقوّم بالشهادتين، فمن طرق أئمة أهل البيت ما في الوافي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: ((**الاسلام شهادة أن لا إله إلاّ اللّه والتصديق برسول اللّه، به حُقنت الدماء، وعليه جرت المناكح والمواريث**))[١].

وأما من طرق حُفّاظ أهل السُّنّة فما في صحيح مسلم عن رسول اللّه ـ صلّى اللّه عليه وآله ـ أنه قال: ((**أقاتل حتّى يشهدوا أن لا إله إلا اللّه، ويؤمنوا بما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّها، وحسابهم على اللّه**))[٢].

فلا بأس بالخضوع والخشوع والإطاعة لغير اللّه، ما لم يكن خضوعَ عبادةٍ و إطاعةً عبادةٍ محرّمة، أو كان مَنْ أطيع أمره أو من خُضع له، ممّن نهى اللّه عن إطاعة أمره أو الخضوع له، فتحرم الإطاعة والخضوع حينئذ، فقد نهى اللّه تعالى عن إطاعة الشيطان، وكلّ من يأمر بمعصية، أو ينهى عن معروف، فقد قال عزّ من قائل في سورة الدهر: ﴿**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنهُمْ آثماً أوكفورا**﴾[٣].

[في معنى قوله تعالى: ﴿وإيّاك نستعين﴾]:

وأما حصر الاستعانة باللّه تعالى ـ المستفاد من تقديم «إيّاك» ـ فلأنّ

(١) الوافي المجلّد الأوّل الجزء الثالث: ١٨ باب أنّ الإيمان أخصّ من الإسلام.

(٢) صحيح مسلم ١: ٥٢/ح ٣٤ باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلاّ اللّه محمد رسول اللّه ...

(٣) الإنسان: ٢٤.

الإنسـان لا يقدر أن يقـوم بأيّ عـمل بلا معـونة [من][1] اللّه وبلا أن يُمكّنه اللّه من ذلك، ولا يتمكّن من الإتيـان بأيّ عمل ـ ولو ساعده البشر جميعاً على ذلك ـ بدون مسـاعدة من اللّه تعـالى، وأيّ مسـاعدة تصـدر من أيّ إنسان فـهي في الحقيقـة متوقّفة عليه تبارك وتعالى؛ إذلا يتـمكّن أيّ إنسان من مساعدة غيره بلا [مـعونة][2] تأتيـه من اللّه ومسـاعدة، فـالمساعـد في الحـقيـقة والواقع هو اللّه تعـالى، وهو المسـاعد الوحـيد. وهذا بناءاً على مـا يذهب أئمـة أهل البـيت، وأهل البـيت أدرى بما فـيـه، وتتّبـعـهـم على ذلك شيعـتهـم من أنه ((**لا جبر ولا تفـويض بل أمر بين الأمرين**))[3]، فإنّ الأفعال وإن كانت تصـدر من الناس باختـيارهم، إلاّ أنهم لا يتمـكّنون من أيّ فعل مالم يُقـدِرهم اللّه عليه، فإنّ هذا الرأي هـو الذي يساعد عليـه البرهان، ولا يلزم منه بـعض المحـاذير البـاطلة الـلازمـة على القـول بالجبـر وعلى القـول بالتفويض.

فلازم الأوّل: عـدم استـحقـاق العـاصي للعقـاب وأنّ اللّه يكون ظالماً لو عاقبه.

ولازم الثـاني: ـ الذي معناه أنّ الـعبـد مسـتـقلّ في أفعـاله عن ربّه، وأنّه خالق لها وحده ـ هو القول بخالق غير اللّه، وذلك شرك باللّه العظيم.

---

(١) في الأصل: معونة بالله ...

(٢) إضافة يقتضيها السياق.

(٣) أُصول الكافي ١: ١٣/١٦٠ باب الجبر والقـدر والأمر بين الأمـرين من كتـاب التوحيد.

ولمّا كان الإنسان يأتي بالفعل باختياره على القول الحق، ولا يمنع عن الاختيار توقّف عمله على مساعدة اللّه تعالى، فلذا يُثاب عليه إن كان حَسناً ويُعاقب عليه إن كان قبيحاً، ولا يكون اللّه ظالماً؛ لكون الفعل صادراً بالاختيار، ولايكون العبد مُستغنياً عن اللّه، وإنما يعمل ما يعمل مستعيناً بإفاضة اللّه للحياة عليه، وللقدرة إفاضة مستمرّة، فلا استقلال للعبد ليلزم الشرك.

هذا خلاصة الكلام في تفسير الآية المباركة.

وينبغي الجواب عن بعض الأسئلة التي قد تخطر بذهن البعض:

[حكمة التعبير بصيغة الجمع في الآية]:

أوّلها: لماذا قال اللّه تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾[1]، ولم يقُل: «**إيّاك أعبُد**» بالإتيان بضمير المفرد؟

والجواب: أنّ ذلك قد يكون لأحد وجوه:

أوّلها: أنّ في الإتيان بضمير الجمع إشارةً وتنبيهاً على عظمة العابد للّه وجلالة قدره، وأنّ عبادة اللّه ليست كعبادة غيره من مخلوقاته؛ ممّا يوجب انحطاط الإنسان بهذه العبودية، بل أنّ عبادة اللّه ترفع العبد، وتوصله إلى مرتبة يصحّ [معها][2] أن يُرجِع ضمير الجمع إلى نفسه.

ثانيها: أنّ في إتيان الضمير المذكور إشارةً إلى أنّ عبادته للّه وإخلاصه له واستعانته به جعلته في قوّة جماعة، وإن كان مفرداً.

---

(١) الفاتحة: ٥.

(٢) في الأصل: «ليصحّ أن ...»، والمناسب ما أثبتناه.

ثالثها: أنّ المراد من إتيان ضمير الجمع هو أنا نحن المسلمون، وذلك لأجل أنه يشعر بوحدة المسلمين، وأنهم نفس واحدة، ويد واحدة، فيصحّ أن ينطق كلّ منهم عن نفسه وعن مجموعهم.

أو لأجل أنّ ذلك يشعر بأنه ليس وحده يعبد اللّه، ويحمل هذه العقيدة الغالية؛ وذلك لوضوح أنّ الانسان إذا عرف أنه ليس وحده يحمل هذه الفكرة، فلا إشكال في أنّ الفكرة تقوى في نظره ويتشجّع عليها، ويقف عندها، واللّه العالم.

[الشفاعة كرامة للشفيع]:

السؤل الثاني: كيف يجتمع ما ذكرته من أنه لايحتاج إلى واسطة بينه وبين اللّه، وبين الآيات التي ظاهرها الشفاعة؟.

والجواب: أنّ الايات السابقة صريحة في عدم الحاجة إلى وسيط أو شفيع وإنما جعل اللّه تبارك وتعالى بعض عباده شفيعاً لإظهار منزلته عنده ومقامهم لديه، ولا يجوز الاستشفاع إلاّ بمن أذن اللّه تعالى في الاستشفاع به فقد قال تبارك وتعالى في سورة سبأ: ﴿**وَلا تَنْفَعُ الشفاعةُ عِنْدَهُ إلاّ لِمَنْ أذِنَ لَهُ**﴾[1]، وقال تعالى في سورة طه: ﴿**يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إلاّ من أذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ**﴾[2]، وقال تبارك وتعالى في سورة مريم: ﴿**لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إلاّ مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرحمنِ عَهْداً**﴾[3].

---

(١) سبأ: ٢٣.

(٢) طه: ١٠٩.

(٣) مريم: ٨٧.

فإنكار الشفاعة إنكار للقرآن؛ لما جاء فيه من التصريح بالشفاعة، ودعوى الحاجة إلى شفيع وعدم إمكان الاتّصال باللّه بلا واسطة تكذيب للقرآن ـ أيضاً ـ للتصريح فيه بعدم الحاجة إليها.

[السجود لآدم وحصر العبادة باللّه تعالى]:

السؤال الثالث: كيف يجتمع اختصاص العبادة باللّه تبارك وتعالى مع أمره للملائكة بالسجود لآدم؟

والجواب: أنّه لا إشكال بين المسلمين في حرمة عبادة غير اللّه تبارك وتعالى، وأمّا الخضوع والخشوع لغيره فلا يحرم إن لم يبلغ مرتبة العبادة، ماعدا السجود فإنّ اللّه تبارك وتعالى اختصّ به نفسه، وحرّمه بالنسبة إلى غيره، فقال عزّ من قائل: ﴿**لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الذي خَلَقَهُنَّ**﴾[1] إلخ، وظاهر ذلك أنّ هذا المقدار من الخضوع والخشوع الذي يتحقّق بالعبادة، مما اختصّ به تبارك وتعالى نفسه، سواء كان سجود عبادة، أو لم يكن ذلك بأمره تعالى، كما في السجود لآدم، فإنه لّما كان بأمره تبارك وتعالى، فهو في الحقيقة خضوع للّه وخشوع له؛ إذ أنّ امتثال أمر اللّه وإطاعة أوامره بالسجود لعبد من عبيده، أعلى مراتب الخضوع والخشوع له؛ إذ السجود لآدم ليس لشخصه، بل لأمر اللّه بذلك، فهو احترام للّه لا لآدم، ولم يصدر من اللّه تبارك وتعالى أمر بالسجود لغيره، ولا أذِن بالسجود لغيره في غير هذه الموارد.

---

(١) فُصّلت: ٣٧.

وقد أُجيب عن هذا السؤال بأجوبة أُخرى لا يمكن المساعدة عليها.

منها: أنّ المراد بالسجود لآدم ليس هو السجود الاصطلاحي، بل هو بمعنى الخضوع والخشوع[1].

ولا يخفى قوّة منافاة هذا الحمل لظاهر لفظ السجود، ولا داعي لرفع اليد عن ظاهر الآية المباركة، ما لم تُفسَّر بآية أُخرى [أو][2] برواية معتبرة، أو لم يكن يمكن أن يلتزم بظاهرها، والتوجيه المذكور غير وارد، لا بكتاب، ولا بُسنّة، ولامحذور من الالتزام بظاهرها، كما عرفت.

ثانيها: أنّ المراد من السجود لآدم، هو جعل آدم قبلة لهم، فهو سجود للّه في اتّجاه آدم، كما يصلي المسلمون اليوم تجاه القبلة؛ إذ ليس معنى جعل الكعبة قبلة لهم أن تكون الصلاة لها[3].

والجواب: أنّ هذا ـ أيضاً ـ مخالف لظاهر الآية، ولا موجب له بعد إمكان إبقائها على ظاهرها، كما عرفت سابقاً. ولم يَرِد التوجيه المذكور في آية أو رواية؛ لنرفع اليد بواسطة الدليل المفسر عن ظهور الكتاب، بل ينافي هذا التوجيه صريح الآية المباركة؛ إذ لو كان السجود للّه وكان آدم قبلةً محضة، لما كان معنىً لقول إبليس: اسجد لمن خلقته من طين؟! إذ لو كان آدم قبلة لم يكن التوجّة نحوه تنازلاً له؛ لجواز أن يكون الساجد أشرف ممّا يستقبله؛ لأنّ السجود للّه، ليس له.

---

(١) البيان: ٥٠٦.

(٢) في الأصل: وبرواية ...

(٣) مجمع البيان ١: ٨١.

[السجود على التربة الحُسينيّة]:

السؤال الرابع: إذا كان السجود لغير اللّه تبارك وتعالى محرّماً عند الشيعة، فما الجواب عمّا يُنسب إليهم من السجود لقبور أئمّتهم، وأنهم يسجدون للتربة الحسينية؟

والجواب: أنّ نسبة سجود الشيعة لقبور أئمّتهم بهتان محض، وكذب صريح، وسوف يجمع اللّه بينهم وبين من افترى عليهم، وهو أحكم الحاكمين، (وعند اللّه تجتمع الخصوم). ومانسبه إليهم بعضُهم ـ من أنهم يأخذون التراب من قبور أئمّتهم، فيسجدون له ـ كفرٌ وبهتان، وكأنّ الطائفة الشيعية طائفة وُجدت قبل التاريخ، وكأنّها ليس لها كتب ومؤلّفات توضّح آراءهم، وتشرح عقائدهم، وليت شعري كيف يُنسب ذلك إليهم، وكتبهم جميعها تصرّح بحرمة السجود لغير اللّه. نعم هم يرون استحباب السجود على التربة الحسينية، لا أنهم يسجدون لها، وكم فرق بين السجود على الشيء والسجود له، فهم يسجدون للّه تعالى، ويرون استحباب السجود على التربة. ولا بدّ لكلّ ساجد أن يضع جبهته على شيء، وما توضع الجبهة عليه لا يكون معبوداً للساجد، وما الفرق بين التربة وغيرها؟ وكيف ينسب إلى الشيعة عبادة التربة، ولا ينسب إلى غيرهم عبادة ما يسجدون عليه؟ مع أنّ الشيعة لاترى من شرائط السجود أن يكون على التربة الحسينية.

نعم تشترط الشيعة أن تكون السجدة على أجزاء الأرض الأصلية؛ من حجر أو مدر أو تراب، أو على نبات الأرض غير المأكول والملبوس، ويدلّ على ذلك قوله صلّى اللّه عليه وآله: **((جُعِلَتْ ليَ الأرضُ مَسجداً**

وطَهوراً))[١] وهذا الحديث مرويّ في كتب الفريقين، فهو مرويّ عن طريق أئمة أهل البيت عليهم السلام، وفي طرق أخواننا حفّاظ أهل السُّنّة، وممّن رواه منهم الحافظ البيهقي[٢] في الجزء الأوّل من سننه في باب التيمُّم بالصعيد الطيّب، وتستند الشيعة الإمامية في السجود على التربة الحسينية إلى الأخبار الكثيرة الدالّة على فضلها، المذكورة في كتب الحديث المعتبرة عند الفريقين، فليراجع كتاب الوسائل[٣] في باب استحباب السجود على الأرض، وكتاب كنز العمال[٤].

وكيف يستغرب الحكم بأفضلية السجود على التربة الحسينية مع شرفها وعِظَم قَدْرها؟! وكيف لاتكون كذلك وقد أخذت من كربلاء؟! تلك البلدة المقدّسة التي تخضّبت أرضها بدم سيّد شباب أهل الجنّة أبي عبداللّه الحسين عليه السلام وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام وأصحابه الخُلّص، تلك الزمرة المباركة والنخبة الطاهرة، التي ليس لها على وجه الأرض شبيه، وقد فدت الدين الحنيف بنفسها وما تملك. وأُقسم بالحسين ودمائه الطاهرة ومواقفه المشرّفة، لولا ما قدّمه عليه السلام من الضحايا الثمينة والقرابين المقدّسة لإحياء دين جدّه صلّى اللّه عليه وآله، حتّى ضحّى بنفسه الطاهرة، وقدّم أهل بيته للسبي والأسر، لما بقي للدين الإسلامي اسم ولا رسم.

---

(١) عوالي اللآلي العزيزيّة ٢: ١٤/ ح٢٧، صحيح البخاري ١: ٩١ باب التيمم.

(٢) السنن الكبرى ١: ٢١٢ باب التيمّم بالصعيد الطيب.

(٣) الوسائل ٣: ٦٠٧ ـ ٦٠٩ باب ١٦ من أبواب ما يسجد عليه.

(٤) كنز العمال ١١: ٤٠٧/ ح٣١٩٠١.

وقد جرت جميع أُمم العالم على تعظيم زعمائها وأبطالها، ومَن أُولى بالتعظيم من أبي عبدالله الحسين عليه السلام؟! فالسجود على تربته، إنّما لأجل أن يكون المسلم متذكّراً دائماً لمواقف أبي عبدالله الحسين عليه السلام؛ ليقتدي به ويتّبع آثاره ويهتدي بهُداه. وهذه هي فلسفة استحباب السجود على تربته، وإعطاء الثواب الكثير على زيارته، وجعل الشفاء في تربته، وإعطاء الأجر العظيم على البكاء على مصيبته، وعلى التسبيح بسبحة أُخذت من تراب قبره؛ وذلك لأنّ جميع هذه الأمور تجعل الحسين عليه السلام في ذهن المسلم دائماً، وأمام عينيه في جميع الأحوال، فيسهل ـ حينئذ ـ على المسلم الدفاع عن دينه والتضحية في سبيل عقيدته وإيمانه، والثبات على مبدئه ودينه، وأيّ ثمرة أعظم من هذا يا ترى؟!

دَرَجت دول العالم اليوم على جعل مكان للجندي المجهول؛ تشجيعاً للناس على الدفاع عن البلاد، ونحن المسلمين ـ ولله الحمد ـ لنا جنود معلومون، ضربوا الرقم القياسي في الإخلاص للدين، وفي التفاني في توجيه المسلمين، وهم نبيّنا الأعظم وآله الكرام عليهم السلام، الذين هم القدوة في الجهاد، وفي التفاني في سبيل الدين، وفي التضحية في سبيل الإسلام، فعلينا أن نجعل سيرتهم هي القدوة لنا، وأن نقتدي بهم في كلّ حال من الأحوال.

ولا إشكال أنّ في السجود على تُربة أُريقت عليها الدماء الطاهرة المطهَّرة في سبيل الله والإسلام، وفي ملازمتنا لذلك دليل على الاقتداء بأولئك الأبطال العظام، ورمز على أنّا على منهاج صاحبها عليه السلام، فلانخضع لظالم، ولا نخاف من قويّ، ولا نصافح

كافراً أو نصادقه.

وياليت شعري ما الفرق بين المكان الذي تُفضّل الصلاة فيه واللباس الذي تُفضّل الصلاة فيه، والزمان الذي تُرجّح الصلاة فيه، وبين الشيء الذي يستحبّ السجود عليه؟! فكما أنّ الحكم بأفضليّة الصلاة في المسجد ليس معناه عبادة المسجد، وهكذا الحكم بأفضلية الصلاة أوّل الوقت أو في غير الثياب السود، لا يكون عبادة للوقت ولا للثياب، فهكذا الحكم بأفضلية السجود على التربة الحسينيّة، ليس معناه عبادة التربة، بل معناه امتثال أمر الشريعة الإسلامية التي أمرت بذلك؛ لأجل أن تكون دماء الحسين الطاهرة ودماء أهل بيته نبراساً للمسلمين في كلّ عصر ومصر، تمنعهم من الذلّ والهوان، وتحدّد لهم طريق الجهاد والنضال، وتعلّمهم معنى المفاداة والتضحية، و[التفاني][1] في خدمة الدين والإسلام.

[التربة الحسينية في نظر كاتب مسيحي]:

ومع الأسف كلّ الأسف، أنه قد خفي على كثير من المسلمين فلسفة السجود على التربة الحسينية المباركة، مع التفات الأجانب إليها، وتقديرهم لذلك. فإليك جزءاً من كلمة كتبها الدكتور شكر اللّه الحداد وهو كاتب مسيحي، وقد نشرتها مجلة «النهج» اللبنانية، التي تصدر في صور، في عددها السادس والسابع من السنة الثامنة، عن زيارته لكربلاء. يذكر فيها أنه أهدى التربة الحسينية لصديق له كان في بغداد، واحتفظ لنفسه بواحدة منها، فلنستمع إليه حيث يقول:

---

(١) في الأصل: الفناء ...

(وعاد صاحبي يحكو[1] حقيبته، فأهديته قُرصاً من تُراب كربلاء، وقلت له: ستجد الذهب حيث لا ذهب. إنما خذ معك هذا التراب في تجوالك في الأرض، فستفقده، فإذا رأيت أقواماً ابتُلوا بشيء من الفقر والجوع ونقص في العدالة والكرامة، أو حرّاً يُكبَّل، أو سيّداً تنزل به المهانة، أو حقّاً تذروه ريح إبليس، إذا رأيت الأرض يرين عليها اليأس، والصابرين يفقدون الجلد، فبشّرهم، وقل لهم: هذا تراب كربلاء عليه سُفحت دماء الحق، وداسته سنابك المرتزقة، تتمرّغ عليه اليوم جِباه الضارعين، ويعُبّ من ذرّاته الأمَل كلُّ مظلوم، إنّ اللّه يملي للظالمين.

ثمّ يستطرد الدكتور قائلاً: قلت لصاحبي السائح: لا تنسَ وخذ هذا التراب معك إلى أهل الأرض؛ تيمُّناً وبُشرى، ورجعت أنا أيضاً بهذا التراب...) إلى آخر ما ذكره هذا الكاتب المسيحي المنصف.

وليت إخواننا المسلمين يلتفتون إلى ما التفت إليه هذا الكاتب، ولايسرعون باتّهام إخوانهم بالكفر والشرك، وهم من أشدّ الناس تمسُّكاً بالتوحيد تبعاً لنبيّهم صلّى اللّه عليه وآله، واقتداء بالثقلين الذين أمر النبيّ صلّى اللّه عليه وآله بالتمسُّك بهما كتاب اللّه والعترة الطاهرة.

[الدروس العملية في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ...﴾]:

أما الدروس العمليّة من هذه الآيات المباركة فكثيرة:

أوّلها: [نفي الشرك في العبادة والألوهيّة عنه تعالى]: أن لا نشرك باللّه شيئاً، ولا نعبُد سواه؛ إذ لا ربّ غيره، ولا إله إلاّه، وكلّ من يُتوهّم

(١) أحكَيتُ العقدة أي شددتُها، كأحكأتُها وحكيتُها و حكأتُها. وقال الفرّاء: الحاكية: الشادّة، يقال: حكت أي شدّت. اللسان ١٤: ١٩١ مادّة: «حكي».

مشاركته له في أُلوهيته لا دليل على أُلوهيته، بل الدليل على خلافها؛ لقيام البرهان على وحدانيته ـ كما ستسمع ذلك في مكانه المناسب من هذا التفسير ـ وليس فيمن تتوهّم أُلوهيته أيُّ فائدة للبشر، ولا أيُّ نفع لهم.

ثانيها: [القيام بوظائف العبوديّة]: أن تقوم بواجبات العبودية، فلا نعصي للّه أمراً، ولا نخالف له نهياً، وإن نأتي بالواجبات كما أمر اللّه، وأن نُؤدّي العبادة بقصد القربة للّه، وذلك بأن نأتي بها بإحدى النيّات الحسنة، التي توجب القرب إليه والتقرّب منه.

[دواعي الطاعة والعبادة]:

والتقرّب المذكور يحصل بأن يأتي الفعل بأحد الدواعي الآتية:

أوّلها: أن يكون الداعي هو طمع الإنسان في نعم اللّه، وبما يتفضّل به على عبده من الأجر والثواب، حسب وعده في كتابه الكريم في سورة النساء: **﴿وَمَنْ يُطِعِ اللّهَ وَرَسولَهُ يُدْخِلْهُ جنّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنْهارُ﴾**[1]، وقوله تعالى في سورة المائدة: **﴿وَعَدَ اللّهُ الّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأجْرٌ عَظيمٌ﴾**[2].

والعبادة التي يؤتى بها لهذا الداعي هي المسمّاة في الأخبار بعبادة التجار[3]؛ لأنها عبادة للّه تبارك وتعالى إزاء نعمه وآلائه وكرمه.

ثانيها: أن يكون الداعي للعبادة هو الخوف من العقاب على المخالفة،

---

(١) النساء: ١٣.

(٢) المائدة: ٩.

(٣) مستدرك نهج البلاغة ـ الباب الثالث ـ: ٥٩.

كما دلّت عليه كثير من الآيات المباركة، المُخبرة عن عظم عذاب اللّه وعظيم نعمته ففي سورة يونس:[١] ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وفي سورة الإنسان[٢]: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾.

ثالثها: أن يأتي بالفعل لكونه مأموراً به، لا طمعاً في الثواب، ولا خوفاً من العقاب.

رابعها: أن يكون الداعي للإتيان بالفعل كونه حسناً ومشتملاً على مصلحة؛ لانه يرغب أن يأتي بكلّ فعل حسن ذي مصلحة، بلا ان يكون المقصود تحصيل تلك المصلحة.

خامسها: أن يأتي بالفعل بداعي تحصيل المصلحة، التي تحصل بإتيان الفعل.

سادسها: أن يأتي بالفعل بداعي كونه محبوباً للمولى.

سابعها: أن يكون الداعي اثنين من هذه الأمور أو أكثر على نحو الاستقلال؛ بأن يكون كلٌّ منهما وحده كافياً للداعويّة لو كان وحده.

ثامنها: أن يكون الداعي اثنين من هذه الأمور أو أكثر على [نحو][٣] التركيب؛ بأن يكون كلٌّ من الداعيين أو الدواعي غير كافٍ في إتيان الفعل، لو لم ينضمّ إلى البقية.

---

(١) يونس: ١٥.

(٢) الإنسان: ١٠.

(٣) إضافة يقتضيها السياق.

تاسعها: أن يكون هناك أكثر من داعٍ، وكان بعض هذه الدواعي تكفي للداعوية لو كانت وحدها، وبعضها لا تكفي لو كانت وحدها.

عاشرها: أن يأتي بالفعل له تبارك وتعالى؛ لأنه أهل لأن يُعبد، وإلى هذا المعنى يمكن أن يكون قد أشار الشاعر[١] فقوله:

رِضاكَ رِضاكَ لا جنّات عَدْنٍ وَهَلْ عدْنٌ تَطيبُ بِلا رِضاكا

وهذه العبادة هي المسمّاة في الأخبار بعبادة الصدّيقين وعبادة الأحرار، وهي أعلى مراتب العبادة، وهي عبادة النبيّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ، والأئمة عليهم السلام، فقد قال أميرالمؤمنين عليه السلام: ((**ما عَبَدْتُكَ خَوْفاً مِنْ نارِكَ، وَلا طَمَعاً في جَنَّتِكَ، وَلِكنْ وَجَدْتُكَ أهْلاً لِلعبادَةِ فَعَبَدْتُكَ**))[٢].

وأما الواجبات التوصّلية ـ وهي التي تتحقّق بإتيان الفعل بأيّ قصد كان، كالتجارة، والصناعة، والطبابة، وما شابهها من الأعمال التي يتقوّم بها المجتمع، ولا يستقيم بدونها، ويجب كفايةً على المسلمين إيجادها ـ فيجوز إتيانها بأيّ قصد كان، وإن كان الامتثالُ وحصول القرب بها من اللّه تبارك وتعالى موقوفاً على إتيانها بقصد القربة.

[الإخلاص في العبادة وذمّ الرياء]:

ويجب أن لا نُدخل الرياء في عبادتنا، بأيّ نحوٍ من الأنحاء وأن نُخلص

---

(١) وهو جدّ والد المصنّف ـ قدّس سرّه ـ السيّد صدر الدين ـ رضوان اللّه عليه ـ راجع كتاب مباحث الأصول لسماحة آية اللّه السيد كاظم الحائري ـ حفظه اللّه ـ ١: ١٧ ـ ١٨.

(٢) مستدرك نهج البلاغة: ٥٩ من الباب الثالث.

له في العبوديّة، فهو[1] المنعم الوحيد، والمتفضّل علينا بجميع ما عندنا من النعم.

وكيف نرائي؟! والرياء من أكبر المحرمات، وإذا دخل في الفعل فإنه يكون سبباً لبطلانه، سواء كان هو تمام الداعي أو جزءه أو لوحظ تبعاً؛ فقد ورد في الحديث القدسي أنه تعالى يقول: ((**أنا خير شريكٍ، ما كانَ لي ولشريكي تركتُه لشريكي**))[2]، وعن النبيّ صلّى اللّه عليه وآله أنه قال: ((**إنّ اللّه لا يقبل عملاً فيه مِثقالُ ذرّةٍ من رياء**))[3]. وفي الحديث: ((**إنّ الرياء لأخفى من النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء**))[4]، وعن النبي صلّى اللّه عليه وآله أنه قال: ((**لاتُرائي بعملك مَن لا يُحيي ولا يميت، ولا يُغني عنكَ شيئاً، والرياء شجرة لا تثمر إلاّ الشرك الخفيّ، وأصلها النفاق، ويُقال للمرائي عند الميزان: خُذ ثوابك ممّن عملت له ممّن أشركته معي، فانظر من تدعو، ومن ترجو، ومن تخاف**))[5]، وعن

---

(١) في الأصل: وهو ...

(٢) الوسائل ١: ٥٣/ ح٧ باب ١٢ من أبواب مقدّمة العبادات، وهو منقول بالمضمون.

(٣) البحار ٧٢: ٣٠٤ كتاب الإيمان والكفر.

(٤) ورد مضمونه عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام في تحف العقول: ٣٦٦.

(٥) لم نعثر على نصّ هذا الحديث، ومضامينه تجدها في أحاديث متفرّقة منها: ثواب الأعمال وعقاب الأعمال: ٣٠٣ ـ ٣٠٤/ ١ في عقاب المرائي، الوسائل ١: ٤٨ ـ ٥١/ ٦ ـ ١٦ باب ١١ في تحريم قصد الرياء ...

الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام أنهما قالا: ((**لو أنّ عبداً عمل عملاً يطلب به وجه الله والدار الآخرة، ثمّ أدخل فيه رضا أحد من الناس كان مُشرِكاً**))[١]. ومن تمام عبادته تبارك وتعالى أن لا نطيع من نهانا عن إطاعته، ولا نخضع لمن نهانا عن الخضوع له.

ثالث الدروس العملية: [عدم الاستشفاع إلاّ بمن ارتضى]: أن لا نقدم بيننا وبينه شفعاء، إلاّ من جعلهم تعالى شفعاء وهم محمد وال محمد، فقد جعلهم شفعاء مع إمكان الاتّصال به، والمخاطبة معهم؛ إكباراً لأمرهم، وإعلاءاً لشأنهم[٢] ولإعلام الناس بمقامهم، مع كونه أقرب إلينا من حبل الوريد.

رابعها: [الشفاعة والجرأة على المعصية]: لايصحّ لنا أن نعتمد على الشفاعة، ونأتي بالمعاصي اعتماداً على الشفاعة؛ إذلا نعلم شمول الشفاعة لنا؛ لكونهم عليهم السلام ﴿**لا يَشْفَعونَ إلاّ لِمَنِ ارتَضى**﴾[٣]، وكلّ معصية يأتي بها الإنسان يمكن أن تخرجه من قابلية الشفاعة.

خامسها: [عدم استعمال نعمه في معصيته]: أنّا إذا علمنا أنّ المعين الوحيد لنا هو الله تبارك وتعالى، وأنه لا يمكن لنا إعمال قدرتنا في أيّ عمل من الأعمال، إلاّ بمساعدته تبارك وتعالى، فكيف نُعمل تلك القدرة فيما يغضب الله تعالى ويخالف أو امره، مع أنا لانعمل عملاً إلاّ بمساعدته

---

(١) الوسائل ١: ٤٩/ ح ١١ باب ١١ من أبواب مقدّمة العبادات.

(٢) في الأصل: شأنهم ...

(٣) الأنبياء: ٢٨.

وتأييده؟!

سادسها: [لاجبر ولاتفويض]: أنّ هذه الآية المباركة تدلّ على أنّ الحقّ ما ذهب إليه أهل الحقّ تبعاً لأئمة أهل البيت عليهم السلام من أنه ((**لاجَبْر ولا تفويض**))[1]؛ إذ لو كان العبد مجبوراً على أعماله لما كان الفعل فعله، فلا معنى للقول بأنّ العبد يستعين باللّه تبارك وتعالى في أفعاله؛ إذ أن الفعل إنّما هو فعل اللّه، وليس فعله، ولو كان العبد مُختاراً[2] كما يقول المعتزلة[3]، وكان مستقلاً في عمله، لما احتاج إلى الاستعانة بسواه، ولما كان عاجزاً عن الاستقلال بالفعل، ولما كانت افعال الانسان اختيارية، ولكنها موقوفة على معونة اللّه تعالى، فهي كما تصح أن تنسب إلى الإنسان، يصحّ أن تنسب إلى اللّه أيضاً، فأفعال العبد الحسنة يرجع فضلها إلى اللّه تبارك وتعالى، والإنسان هو مسؤول عن أفعاله القبيحة، وتقع مسؤوليّتها عليه؛ لأنه هو الذي اختار إعمال قدرته في الفعل القبيح، فإذا تصدّق الإنسان فالفعل يرجع إلى اللّه تعالى لأنه هو الذي قوّاه على الصدقة، وإذا سرق الإنسان فهو المسؤول؛ لأنه هو الذي أعمل قدرته في السرقة مع نهي الشارع له عن ذلك.

سابعها: [الاعتماد على اللّه وحده]: أنّا إذا علمنا أنه لا يمكن لنا أن نأتي بأيّ فعل بلا معونته تبارك وتعالى، فينبغي أن لا نعتمد على أعدائه،

---

(١) اصول الكافي ١: ١٦٠/ باب الجبر والقدر والأمر بين الامرين/ ح١٣.

(٢) الاختيار هنا على نحو التفويض.

(٣) وهم المفوّضة.

ولا نستعين بمَن يبعدنا عنه، بل لانعتمد على سواه، ولا نستعين بمطلق من عداه، فمن اعتمد عليه كفاه، ومن استعان به أغناه.

ثامنها: [التسليم والرضا بأمر اللّه]: أنّا إذا علمنا أنّا عبيد له مملوكون، قد خلقنا بقدرته، وأوجدنا بمشيئته، وتفضّل علينا بنعمه وآلائه، وهو أعرف بما ينفعنا ويضرّنا، فإنّ مَنْ أوجد الشيّ أعرف بحقيقته وماهيّته، وأعرف بصلاحه وفساده، فيلزم أن لا نرى لنا رأياً في قبال رأيه، ونُسلّم بجميع ما يقول، فنحن وما نملك ملكه، نرضى برضاه، كما قال سيّدنا ومولانا أبوعبداللّه الحسين عليه السلام: **«رِضا اللّه رِضانا أهلَ البيت...»**[1] الخ، فإنا إذا علمنا مقدار فضله تبارك وتعالى علينا، ورحمته بنا، وإحسانه إلينا، نعلم أنه لا يصدر منه إلاّ الحسن، فَكيف لانرضى به، وأياديه علينا لاتعدّ، ونعمه لا تُحصى؟! وينبغي أن نكون معه كما قال الشاعر:

فَلَو قَطَّعْتَني في الحبِّ إرْباً   لَما مالَ الفُؤادُ إلى سِواكا

تاسعها: [لاغرور مع العلم بالعجز]: أنّا إذا علمنا أنه لا يمكن لنا أن نأتي بأيِّ فعل من الأفعال، وأن نتلفظ بأيّ لفظ من الألفاظ، بلا مساعدته، وبدون أن يعطينا القوة على ذلك، فينبغي أنْ لا يأخذنا الغرور في أنفسنا والعُجب بها، وكيف نُعجَب ونحن عاجزون عن أن ننطق بحرف لولا مساعدة اللّه؟! وكلّ ما في أعمالنا من حسن إنّما هو منه تبارك وتعالى، فلو انقطعت عنّا رحمته لحظة لخرجنا من الوجود إلى العدم،

---

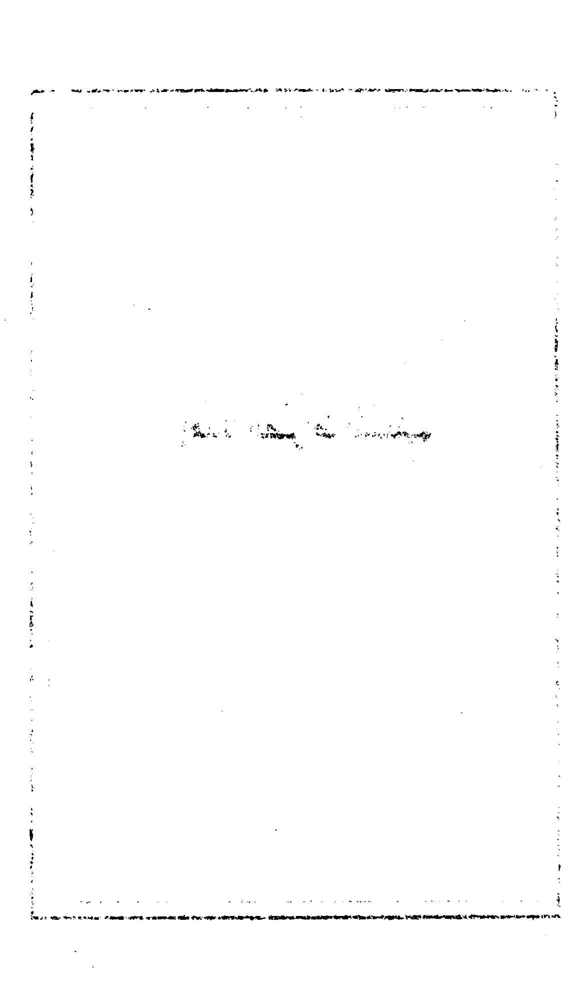
(١) مقتل الحسين للمقرّم: ١٩٣ عن اللهوف في قتلى الطفوف: ٣٣، وابن نما: ٢٠.

تبارك اللّه أرحم الراحمين.

عاشرها: [الإسراع بالتوبة خشية الموت]: أنّا إذا علمنا أنّا عبيداللّه، وصدرت منّا المعصية، فينبغي، أن نُسرع إليه بالتوبة، ونبادر إليه بالندم، فقد تفضّل على عباده بفتح باب التوبة، وينبغي الإسراع إليها خوفاً من مجيء الموت فلا توبة ولا استغفار بعده، وينبغي أن لا نغترّ بشباب أو صحّة فنؤجّل التوبة، فإنّ الموت والحياة بيد اللّه، ولا دخل للصحّة والشباب فيهما.

أسأل اللّه أن يوقظنا من نومة الغافلين، ويجعلنا من المطيعين، إنّه أرحم الراحمين.

إِهدِنا الصِّراطَ المُستَقيمَ



[في تفسير الصراط المستقيم]:

الصراط: هو الطريق والسبيل، فإنّه تبارك وتعالى، بعد أن حمد نفسه ومجّدها عن لسان عبده، ثمّ حصر العبادة والاستعانة به ايضاً، لَقّنه أن يطلب منه الهداية إلى الصراط المستقيم؛ ليصل الى الدرجات العالية، والمقامات السامية، التي أعدّها اللّه تعالى لعباده الصالحين، وذلك بأن يأتي بالعبادة على الوجه الأتمّ الأكمل، لا تقصير فيه ولا قصور، وقد أطلق اللّه سبحانه وتعالى اسم الصراط المستقيم على العبادة تارة، وعلى الدين أُخرى:

أمّا إطلاقه على العبادة ففي سورة يس: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[1].

وأطلقه على الدين في سورة الأنعام: ﴿إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيم، دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً﴾[2].

---

(١) يس: ٦١.

(٢) الأنعام: ١٦١.

والظاهر أنّ الصِّراط هو مطلق الطريق الموصل إلى الله وإلى مرضاته، فإطلاقه على الدين وعلى العبادة بما أنّهما من مصاديقه، فإنّ كُلاً منهما موصل إلى الله، وسبب للتقرّب منه. ولمّا كان طلب الهداية إلى الصراط المستقيم في المقام عن لسان المُسلم العابد، فالظاهر أنّ المطلوب هو الهداية إلى مرتبة عالية من العبادة، تكون محققة لغرض المولى، وموصلة إلى رحمته.

والمراد من المستقيم: المعتدل غير المنحرف إلى اليمين ولا إلى اليسار، الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، كما يشهد لذلك ما روي عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام أنه وصفه بقوله: ((**ما قَصُر عن الغُلُوّ وارتفع عن التقصير**))[1]، وهو الذي يصل بصاحبه إلى النعيم الأبديّ والسعادة التامّة في الدنيا والآخرة.

ومعنى الهداية: هو الإرشاد والدلالة، فيطلب العبد من ربّه أن يُرشده ويدلّه على الصراط، الذي ينجو من سلكه، ويأمن من سار فيه، وهو الصراط الذي جعل الله نبيه هادياً إليه، إذ قال تبارك وتعالى في سورة الشورى: ﴿**وإنَّكَ لَتَهْدِي إلى صِراطٍ مُستقيم * صِراطِ اللهِ الَّذي لَهُ ما في السَّموات وما في الأرْضِ**﴾[2]؛ وهو الصراط الذي أمرنا الله تبارك وتعالى باتّباعه في سورة الأنعام: ﴿**وبِعَهْدِ اللهِ أوْفُوا ذلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلّكُمْ تَذكَّرون * وأنّ هذا صِراطي مُسْتَقيماً فاتّبعوهُ، ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتفرَّقَ بِكُمْ**

(١) البحار ٩٢: ٢٥٤.

(٢) الشورى: ٥٢ ـ ٥٣.

عَنْ سَبِيلِه﴾[١].

ويظهر من هذه الآية المباركة أنّ سبل الناس إلى معرفة اللّه كثيرة، وأنّ السبيل المرضية عنده هو الصراط المستقيم، وهو الصراط الذي وصفه اللّه تعالى بكونه **﴿صِراطَ الَّذينَ أنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضّالّين﴾**، وهو صراط خالٍ من الشرك والظلم؛ لأنّ اللّه تعالى وصف كلاً منهما بالضلال:

أما الشرك: فقد قال تعالى عنه في سورة البقرة: **﴿وَمَنْ يَتَبدَّلِ الكُفْرَ بالإِيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾**[٢].

وأما الظلم فإنّ الظالم ليس بمهتدٍ ومن حُرم الهداية فهو ضالّ، وقد وصف اللّه غير الظالم بالهداية، فلا بدّ وأن يكون الظالم ضالاً، وذلك في سورة الأنعام: **﴿الَّذينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُهْتَدُون﴾**[٣].

ويشترط في هذا الصراط المستقيم إطاعة أوامر اللّه وأوامر رسوله؛ لأنّ اللّه تعالى وصفه بأنه **﴿صراط الّذين أنعمتَ عليهم﴾** [من][٤] النبيين والصدّيقين والشهداء، ومن أطاع اللّه ورسوله؛ حيث قال عزّ من قائل في سورة النساء: **﴿وَمَنْ يطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ، فَأُولئِكَ مَعَ الَّذينَ أنْعَمَ اللّهُ عليهِم**

---

(١) الأنعام: ١٥٢ ـ ١٥٣.

(٢) البقرة: ١٠٨.

(٣) الأنعام: ٨٢.

(٤) في الأصل: بالنبيّين ...

مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ وحَسُنَ أُولئِكَ رفيقاً﴾[١].

والصراط المستقيم هو كلّ ما يوصل إلى اللّه تعالى وإلى مرضاته، سواء كان فعلاً أو قولاً كما يدلّ عليه قوله تعالى في سورة فاطر: **﴿إليهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعَمَلُ الصّالِحُ يَرفَعُهُ﴾**[٢]، فإنّ الذي يصعد إليه هو الذي يوجب الوصول اليه والقرب منه، وهو الصراط المستقيم.

[الصراط المستقيم في رواية المعصومين عليهم السلام]:

ويشهد لما ذكرنا من معنى الصراط المستقيم: حديثان شريفان عن الإمام الصادق عليه السلام، وردا في تفسير الصراط المستقيم في تفسير هذه الآية المباركة، فقد قال عليه السلام في أوّلهما: ((**يعني أرْشِدْنا للزوم الطريق المؤدّي إلى محبّتك، والمبلغ إلى جنّتك، والمانع من أن نتبع أهواءنا فنعطب، أو أن نأخذ بآرائنا فنهلك**))[٣].

وقد قال عليه السلام في الحديث الثاني: ((**هي الطريق إلى معرفة اللّه، وهما صراطان: صراط في الدنيا، وصراط في الآخرة، فأمّا الصراط في الدنيا فهو الإمام المفترض الطاعة، من عرفه في الدنيا واقتدى بهداه مرّ على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة، ومن لم يعرفه في الدنيا زلّت قدمه عن الصراط في الآخرة، فتردّى في نار جهنم**))[٤]،

---

(١) النساء: ٦٩.

(٢) فاطر: ١٠.

(٣) البحار ٩٢: ٢٥٤/ باب فضائل سورة الفاتحة وتفسيرها.

(٤) تفسير نور الثقلين ١: ٢١/ ح ٩١.

والذي يفهم من هذا الخبر أنّ معنى كون الإمام هو الصراط؛ أي طاعة الإمام والاقتداء به.

وفي ضوء هذه الرواية، يفهم معنى الرواية القائلة بأنّ أمير المؤمنين هو الصراط المستقيم، وهي المروية عن تفسير العياشي[١] عن الإمام الصادق، ومعنى ما ورد عن الإمام السجّاد من تفسير الصراط المستقيم بالأئمة؛ اذ قال: ((**ليس بين الله وبين حجّته ستر، نحن أبواب الله، ونحن الصراط المستقيم، ونحن عيبة علمه، ونحن تراجمة وحيه، ونحن أركان توحيده، ونحن موضع سرّه...**)) إلخ[٢].

فالمراد من كون الإمام أو الأئمة الصراط المستقيم؛ أي أن اتّباعهم والاقتداء بهم والاهتداء بهداهم. هو الطريق الموصل إلى الله.

كما أنّ ما نُقل عن ابن عبّاس من أنه فسّر الآية بقوله: (معاشر العباد أرشدنا إلى حُبّ محمّد وآل محمد)[٣]، فإنّ المراد هو الحبّ الحقيقي الملازم للاتّباع والاقتداء بهم؛ إذ لو كان المراد أنّ اسمه ـ عليه السلام ـ الصراط الستقيم، لكان هناك تعارض بين الأخبار، والجمع بينهما ما ذكرناه.

وكلّ رواية من هذه الروايات تذكر بعض لوازم الصراط المستقيم، فكما أنّ معرفة أميرالمؤمنين ـ عليه السلام ـ واتّباعه يكونان سبباً للوصول إلى مرضاة الله، وهكذا إطاعة سائر الأئمة وحبّ النّبيّ وآله، فإنّ هذه كلّها

---

(١) تفسير العياشي ١: ٢٤/ ح٢٥.

(٢) معاني الأخبار ١: ٣٥/ ح٥ باب معنى الصراط.

(٣) البرهان في تفسير القرآن ١: ٥٢/ ح٣٨.

طرق إلى النجاة في يوم القيامة، بل هناك تلازم بين جميع هذه الطرق، فإنّ من يعرف أميرالمؤمنين ـ عليه السلام ـ لا بدّ أن يعرف بقيّة حجج اللّه وأوليائه، ومن يعرفهم حقّ معرفتهم لابدّ أن يقتدي بهم، ويهتدي بهداهم، ومن يحبُّهم لابدّ أن يتّبع آثارهم، ويطيع أوامرهم، فإنّ المحبّ المخالف لمحبوبه كاذب في دعوى الحب.

وليس غريباً أن تشتمل كلّ رواية من الأخبار السابقة على بعض مصاديق الصراط المستقيم، فإنّ كثيراً من الأخبار الواردة في تفسير القرآن تفسّر الآية ببعض المصاديق، ولا تكون الآية مُخصَّصة بموردها؛ لأخبار الجري[1] التي أشرنا إليها في مقدّمة التفسير، وأنّ القرآن يجري مجرى الشمس والقمر، ولا يختصّ بمورده، فإنّ الوصول إلى اللّه لا يمكن بغير الطرق المذكورة، وقد عرفت الملازمة بينها.

ثمّ إنّ المكلّف قد يكون ممّن وُفّق لمعرفة الصراط المستقيم، وسار فى ذلك الطريق المعتدل، فتكون فائدة السؤال هي طلب الاستمرار على الحالة السابقة؛ وذلك لأنّ طلب الهداية إلى الصراط المستقيم أعمّ من أن يكون قد هُديَ إليه سابقاً أم لم يكن، فالأوّل يطلب استمرار الهداية، والثاني يطلب حدوث الهداية.

وإلى الصورة الأُولى تشير الرواية المرويّة عن سيّد الوصيّين وأميرالمؤْمنين عليه السلام أنه قال: ((**يعني أدِم لنا توفيقك الذي أطعناك به في ماضي**

(١) تفسير العياشي ٢: ٢٠٣ ـ ٢٠٤/ ح٦، البرهان في تفسير القرآن ٢: ٢٨١/ ح١٥.

أيّامنا؛ حتّى نُطيعَك كذلك في مُستقبل أعمارنا))[١].

وذكره عليه السلام للصورة الأولى خاصّة لايقتضي تخصيص الآية بها، وذلك ببركة أخبار الجري ـ التي ذكرناها في المقدّمة، وأشرنا إليها قريباً ـ المخبرة بأنّ مايذكر في الروايات ـ من بيان معاني الآيات وبيان بعض مواردها ـ لايقتضي أن تختصّ بذلك المورد، ولاتعمّ غيره.

ثمّ إنه قد ذكر بعض المفسّرين[٢] واللُّغويّين[٣]: أنّ الهداية إذا تعدّت إلى المفعول الثاني بنفسها فهي بمعنى الايصال إلى المطلوب، كما في المقام، وإذا تعدّت بـ«إلى» فهي بمعنى إراءة الطريق، وأنكر بعضهم ذلك[٤]، وذكر أنّ الهداية مطلقاً في كلا الحالين بمعنى إراءة الطريق.

ولايهمّنا بيان ما هو الحقّ في المقام؛ لأنّ المطلوب أنّ ما يُهدى إليه في الآية الكريمة هو الطريق، وإراءة الطريق هي عين الوصول إليه، فلا أثر لهذا النزاع في المقام.

---

(١) البحار ٩٢: ٢٥٤، تفسير العسكري: ٤٤/ ح٢٠.

(٢) نسبه إلى القيل في الميزان في تفسير القرآن ١: ٣٤.

(٣) راجع مفردات الراغب: ٧٨٦ مادة «هدى»، واللسان ١٥: ٣٥٤ ـ ٣٥٥ تجد فيهما قريباً ممّا ذكر المصنّف ـ رحمه اللّه ـ وزيادةً عمّا ذكره الشيء الكثير.

(٤) آلاء الرحمن في تفسير القرآن: ٦٣، الميزان في تفسير القرآن ١: ٣٤.

﴿صِراطَ الّذينَ أنعَمتَ عَلَيهِم غيرِ المَغضُوب عَلَيهِم وَ لا الضّالّينَ﴾

ينبغي الكلام أوّلاً: في بيان المقصود من «المغضوب عليهم» و «الضالّين»، ويظهر بعد ذلك المراد من الذين أنعم الله عليهم:

[بيان المقصود من المغضوب عليهم]

الغضب: هو السخط، ويقابله الرحمة. والغضب من اللّه على عباده إنّما هو بإنزال العقاب عليهم في الدنيا أو الاخرة، أو بتقليل فضله عليهم ونعمه؛ من الصحّة والهداية وغيرهما من النعم الوافرة.

والمغضوب عليهم ـ كما قيل ـ[1] هم الذين توغلوا في الكفر، وعَنَدوا[2] من الحقّ، ونبذوا آيات اللّه وراء ظهورهم، ولايراد بهم مطلق الكفّار.

وقد استدلّ على ذلك بقوله تعالى في سورة النحل: ﴿**وَلكِن مَن شَرَحَ بِالكُفرِ صَدراً فَعَلَيهِم غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُم عَذابٌ عَظيم**﴾[3].

ويمكن أن يقال: إنّ المراد مطلق من غضب اللّه عليه، وكون المذكور في

---

(١) آلاء الرحمن في تفسير القرآن: ٦٣.

(٢) عَنَدَ عن الحق: مال عنه وخالفه وعدل عنه وتباعد مع معرفته به. مفردات الراغب: ٥٢٢، اللسان ٣: ٣٠٧ ـ ٣٠٩ مادة «عند».

(٣) النحل: ١٠٦.

الاية خصوص من شرح بالكفر صدراً لايقتضي اختصاص الاية به.

وقد ورد في بعض الأخبار[١] تفسير المغضوب عليهم باليهود، وفي أخرى بالنُّصّاب[٢].

وظاهر كلا الطائفتين اختصاص الآية بها، ولكن ببركة أخبار الجري - التي تكرّرت الإشارة إليها - تُحمل الأخبار المذكورة على بيان بعض موارد الآية، وهو الذي يقتضيه الجمع العُرفي؛ إذ لايُعقل أن تكون آية مختصّة باليهود أو مختصة بالنُّصّاب، فلابدّ وإن يكون المراد بيان بعض المصاديق.

وقد يُستشهد[٣] لاختصاص «المغضوب عليهم» باليهود بقوله تعالى: **﴿وَلَقَد عَلِمتُمُ الَّذينَ اعتَدَوا مِنكُم فِي السَّبتِ فَقُلنا لَهُم كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾**[٤].

ولا يخفى أنّ الآية إنّما تدلّ على كون اليهود من المغضوب عليهم، امّا على اختصاص الوصف بهم، فليس فيها دلالة على ذلك.

وقد وردت رواية تُفسّر «المغضوب عليهم» بمطلق الكفار[٥].

وهو - أيضاً - تفسير ببعض المصاديق بقرينة أخبار الجري.

---

(١) البحار ٩٢: ٢٣٩/ ح٤٠/ كتاب القرآن/ باب فضائل الفاتحة وتفسيرها.

(٢) البحار ٩٢: ٢٣٠/ ح٦ و٧/ كتاب القرآن/ باب فضائل الفاتحة وتفسيرها.

(٣) مجمع البيان ١: ٣٠.

(٤) البقرة: ٦٥.

(٥) البحار ٩٢: ٢٥٦/ كتاب القرآن/ باب فضائل سورة الفاتحة وتفسيرها، مجمع البيان ١: ٣٠.

وإن قلنا بدلالة الآية السابقة على تخصيصها بخصوص المعاندين، فتحمل هذه الرواية على بيان مرتبة من مراتب الغضب، وأنّ أعلى مراتب الغضب تحمل على المعاندين، وبعض المراتب على مطلق الكافرين.

[بيان المقصود من الضّالّين]:

والضلال هو التيه، ويقابله الهُدى، والضالّون هم الذين سلكوا غير طريق الهدى.

وقد قيل[١] باختصاصه بالمقصّر منهم، وهو الذي أوصله ضلاله إلى الهلاك الأبدي والعذاب الدائم.

ويمكن أن يراد به مطلق الضالّ ولو كان قاصراً.

وقد فُسّر «الضالين» في بعض الأخبار[٢] بالنصارى، وفي بعضها[٣] بأهل الشكوك الذين لايعرفون الإمام.

والظاهر أنها تنصّ على بعض الموارد بقرينة أخبار الجري.

ويشهد لذلك: أنه لايمكن أن تكون مختصّة بكلا الموردين، فلابدّ وأن يكون المراد بيان بعض المصاديق.

وقد استشهد[٤] على أنّ المراد بهم النصارى، بقوله تبارك وتعالى عن النصارى، في سورة المائدة: ﴿**ولاتتَّبعُوا أهواءَ قومٍ قد ضلّوا من قبلُ وأضلُّوا**

---

(١) آلاء الرحمن في تفسير القرآن: ٦٣.

(٢) تفسير العياشي ١: ٢٢/ ح ١٧.

(٣) تفسير العياشي ١: ٢٤/ ح٢٨.

(٤) البرهان في تفسير القرآن ١: ٥٢/ ح٤٠.

كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[1].

ولايخفى ضعف هذا الاستشهاد، لأنّ الآية لاتدلّ إلاّ على أنّ النصارى من الضالّين، ولا يدلّ ذلك على انحصار الضالّين بهم.

[بيان المقصود من صراط الذين أنعم الله عليهم]:

فالمراد هو طلب الهداية إلى صراط مَن أنعمَ الله عليه، غير ضالّ وغيرمغضوب عليه.

ولقد فُسّر في بعض الأخبار[2] بمحمّد صلّى اللّه عليه وآله وذرّيّته، وفي بعضها[3] بشيعة عليّ عليه السلام، الذين أنعم اللّه عليهم بولاية علي بن أبي طالب.

والخبران إنّما هما تفسير ببعض المصاديق:

فالرواية الأولى: ذكرت أظهر مصاديق من أنعم اللّه عليهم، والفرد الكامل منهم، وهم محمّد وأهل بيته الطاهرون.

والرواية الثانية: فسّرت الآية المباركة بمصداقها في أُمّة محمد صلّى اللّه عليه وآله؛ لوضوح أنّ من اهتدى إلى الحقّ، ولم يضلّ عن الطريق، ولم يستحقّ الغضب من اللّه، هم شيعة علي عليه السلام، والمراد بهم من عرف حقّ الإمام، واتّبعه في الأصول والفروع، ولم يعرف سوى محمد وآل محمد واسطة إلى اللّه تبارك و تعالى.

---

(١) المائدة: ٧٧.

(٢) البرهان في تفسير القرآن ١: ٥١/ ح٢٦.

(٣) البرهان في تفسير القرآن ١: ٥١/ ح٢٧.

[أسئلة وأجوبة]:

وهنا أسئلة: لابأس بذكرها مع توضيح الجواب عنها، وإن كان قدظهر الجواب عن بعضها سابقاً:

السؤال الأوّل: إنّ من يطلب الهداية من اللّه لابدّ وأن يكون فاقداً لها، والمصلّي لابدّ وأن يكون مسلماً موحّداً، قد هداه اللّه إلى الصراط المستقيم، فإن اللّه تبارك وتعالى قد تفضّل على جميع المسلمين بالهداية، ولولا هدايته لما وُفّقنا للإسلام، فكيف يطلب الأمرَ الذي عنده؟ وهل هذا إلاّ تحصيل الحاصل؟

وقد كثرت الأجوبة عن هذا السؤال:

فمنها: أن يراد بطلب الهداية هو الاستمرار عليها فبعد ما منّ اللّه تعالى على المصلّي بهدايته إلى الإيمان، يطلب منه تعالى الاستمرار والثبات على هذه النعمة؛ لكي لاتزلّ قدمه بعد ثبوتها[1].

ولايخفى عدم إمكان المساعدة على الجواب المذكور؛ لمخالفته للظاهر اللازم اتّباعه وعدم رفع اليد عنه، إلاّ بقرينة من آية مُحكمة أو رواية مُعتبرة؛ لظهور الآية المباركة في طلب شيء لم يمكن، ففاقد الهداية يطلب وجودها، وواجدها يطلب استمرارها.

وقد يستشهد للجواب المذكور بما ورد في الأخبار[2] من تفسيرها

(١) مجمع البيان ١: ٢٧ ـ ٢٨، مفردات الراغب: ٧٨٧، اللسان ١٥: ٣٥٥، مادّة «هدى».

(٢) البرهان في تفسير القرآن ١: ٥٠/ ح٢٣، و٥١/ ٢٤٤، تفسير العسكري: ٤٤/ ح٢٠، البحار ٩٢: ٢٥٤.

باستمرار الهداية.

ولا يخفى أنّ هذا تفسير لها بذكر بعض مصاديقها، وذلك بقرينة أخبار الجري التي تكرّرت الإشارة إليها، وهي الحاكمة بأنه إذا وردت رواية في تفسير الآية بمورد خاصّ لاتختصّ الآية بذلك المورد.

الجواب الثاني: أنّ المراد بالهداية الثواب، فمعنى الآية المباركة: اهدنا طريق الجنة ثواباً لنا[1].

وهذا الجواب ضعيف كسابقه، بل أضعف؛ لأن طريق الجنّة إن كان هو الهداية، فالمفروض حصولها، وإن كان غيرها فكيف يكون هو المطلوب في الآية، مع أنّ المذكور فيها هو الهداية لاغير؟!

وقد يستشهد[2] لهذا الجواب بقوله تعالى: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ﴾[3] بدعوى أنّ المراد هدايتهم إلى طريق الجنّة.

والجواب عن الاستشهاد المذكور: أنه موقوف على أن يكون المراد هدايتهم بالثواب، ويمكن أن يكون المراد بها العمل الموصل إلى الجنة، لانفس الثواب.

ولو سُلّم أنّ المراد الثواب، فلا ملازمة مابين الآيتين؛ لأنّ المطلوب في آيتنا الهداية إلى الصراط المستقيم، الذي عرفت معناه، المستفاد من ظاهره، ومن الأخبار الواردة في بيانه.

---

(١) مجمع البيان ١: ٢٨، مفردات الراغب: ٧٨٧، مادّة «هدى».

(٢) مجمع البيان ١: ٢٨.

(٣) يونس: ٩.

ثالث الأجوبة: أنّ المراد، دلّنا على دين الحقّ في مستقبل العمر، كما دللتنا عليه في الماضي[١].

وهذا الجواب راجع إلى الجواب الأوّل، الذي عرفت مافيه.

رابعها: أن يراد بالهداية زيادتها[٢] فإنّ الهداية قابلة للزيادة والنقصان، فمن كان واجداً لمرتبة منها جاز أن يطلب مرتبة أكمل منها.

وهذا الجواب مخالف لظاهر الآية المباركة بلاقرينة؛ لأن ظاهر الآية طلب الهداية لاطلب زيادتها.

نعم إذا فُرض عدم إمكان دفع الإشكال إلا بهذا الجواب، يكون ذلك قرينة على هذا الحمل، ويرفع بذلك [اليدُ][٣] عن ظهور الآية المباركة في طلب ماليس بموجود.

[الحقّ في الجواب وأقسام الهداية]

إذا عرفنا ذلك، فالحقّ في الجواب أن يقال: إنّ الهداية على قسمين: عامّة، وخاصّة، والمطلوب في المقام هي الهداية الخاصّة.

وتوضيح ذلك: أنّ اللّه تفضّل على عباده بهدايتين: إحداهما تكوينيّة، والأخرى تشريعيّة:

أمّا الهداية التكوينية: فهي على ثلاثة أنواع:

أوّلها: هداية الوجدان والإلهام الفطري: وتكون هذه الهداية للأطفال

---

(١) مجمع البيان ١: ٢٨.

(٢) مجمع البيان ١: ٢٧ ـ ٢٨.

(٣) إضافة يقتضيها السياق.

منذ ولادتهم، فإنّ الولد بعد أن يولد يشعر بألم الحاجة إلى الغذاء، فيصرخ طالباً للغذاء بفطرته، وعندما يصل الثدي إلى فمه يُلهم كيفية الاستفادة منه.

ثانيها: هداية الحواسّ والمشاعر: وهذه تكمل بالتدريج، ولاتوجد دفعة واحدة، فالطفل عقيب الولادة لاتظهر عليه علامات إدراك الأصوات والمرئيّات، ثمّ بعد مدّة يُبصر، ولكنه لقصر نظره يجهل تحديد المسافات، فيحسب البعيد قريباً، فربما يمدّيديه ليتناول القمر، ولاتكمل عنده هذه الهداية إلا بعد مدّة.

ثالثها: هداية العقل: وهي أعلى الهدايات التكوينية، فإنّ العقل هو الذي يصحّح غلط الحواسّ والمشاعر، ويطهّر أسباب الغلط فيها. وذلك لأنّ البصر يخطأ، فيرى الكبير صغيراً إذا كان بعيداً، ويرى العود المستقيم معوجّاً إذا كان في الماء، ويرى بعض الأشياء على خلاف لونها اذا أُصيب بانعدام المقدرة على تميز اللون، والّذي يصطلح عليه باسم عمى الألوان، والشمّ ـ أيضاً ـ قد يخطأ في حالات الزكام، والذوق قد يعجز عن تمييز الطعم في بعض حالات المرض، والذي يحكم بفساد مثل هذه الادراكات الخاطئة هو العقل، وهو مما اختصّ اللّه تعالى به البشر.

أمّا سواه من المخلوقات فقد أرشدها اللّه تبارك وتعالى إلى الطريق الصالح لها، وهو الذي جعل فيها قوّة الاستكمال والنموّ، وحسبنا أن نرى كيف يهدي اللّه النبات إلى نموّه، فيسيّره إلى جهة لاعائق له يعيقه بها عن سيره، وكيف يهدي الحيوان، فيميّز بين من يؤذيه و من لايؤذيه، فالفارة ـ مثلاً ـ تفرّ من الهرّ، ولاتفرّ من الشاة، وكيف يهدي النمل والنحل إلى

تشكيل اجتماع وحكومة وبناء مساكن.

وأمّا الهداية التشريعية: فهي الهداية التي هدى اللّه بها جميع البشر بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب، وبهذا تمّت النعمة على بني آدم، وأتمّ اللّه الحجّة عليهم، فتفضّل عليهم تعالى بالعقل الذي به يميّز الحقّ عن الباطل.

ولمّا كان العقل قد يشتبه ويغلط في ادراكه، كما تغلط الحواس، وقد يهمل الإنسان استخدام عقله وحواسّه فيما فيه سعادته الشخصيّة والنوعيّة، ويسلك بهما مسالك الضلال، ويسخّرها لشهوته الحيوانية وملذّاته المحرّمة، فيورد نفسه موارد الهلكة، فيخسر ـ حينئذ ـ السعادة التي أرادها اللّه له في الدارين، والتي منّ اللّه عليه بهذه الهدايات لأجل الوصول إليها، فيحتاج إلى هداية ترشده في ظُلُمات الأهواء، وتبيّن له حدود أعماله، وما هو السبب لسعادته في الدارين ليتبعه، وما هو السبب لشقائه فيهما ليتجنبه، وهذه الهداية التشريعيّة هي الدين، وقد منحه اللّه تعالى للبشر بإرسال الرسل الذين يتلون عليهم آياته، ويبيّنون لهم شرائع أحكامه، وقرن تعالى رسالتهم بما يدلّ على صدقها من معجز باهر وبرهان قاهر.

[الهداية الخاصّة]:

هذه هي الهدايات الأربع العامّة، وليست هي الهداية المطلوبة في المقام، لأنها حاصلة، ولامعنى لطلب الحاصل.

وإنما المطلوب في المقام هو الهداية الخاصّة، وهي هداية تكوينية وعناية ربّانية، خصّ اللّه بها بعض عباده، حسب ما تقتضيه حكمته؛ مجازاة لهم على بعض طاعاته، أو لأجل شدّة رغبتهم للوصول إلى مرضاته فهيّأ لهم ما

يهتدون به إلى الكمال، ويصلون به إلى المقصود.

وقد أُشير إلى هذه الهداية الخاصّة في غير واحدة من الآيات المباركة:

فمنها: قوله تعالى في سورة الاعراف[١]: ﴿**فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيهِمُ الضَّلالة**﴾.

ومنها: قوله تعالى في سورة البقرة[٢]: ﴿**لَيسَ عَلَيكَ هُداهُم وَلكِنَّ اللّهَ يَهدي مَن يَشاء**﴾.

[شروط الهداية الخاصّة]:

ويشترط فيمن تشمله هذه الهداية:

أن لايكون من الظالمين، لالنفسه بمعصية الله، ولالغيره؛ لقوله تعالى في سورة الانعام:[٣] ﴿**إنَّ اللّهَ لايَهدي القَومَ الظّالمين**﴾.

ويظهر من القرآن الكريم: أنّ هذه الهداية تصل إلى من يجاهد في سبيل الله بسلاحه أو بيده أو لسانه، كما ذكر ذلك تعالى في سورة العنكبوت[٤]: ﴿**وَالَّذينَ جاهَدُوا فينا لَنَهدِيَنَّهُم سُبُلَنا**﴾.

وهذة الهداية لاتُنال إلاّ من قِبَله تعالى، وقد ذكرها في سورة القصص[٥] : ﴿**إنَّكَ لاتَهدي مَن أَحبَبتَ وَلكِنَّ اللّهَ يَهدي مَن يَشاءُ**﴾،

(١) الأعراف: ٣٠.

(٢) البقرة: ٢٧٢.

(٣) الانعام: ١٤٤.

(٤) العنكبوت: ٦٩.

(٥) القصص: ٥٦.

وذكرها في سورة البقرة[1] فقال تعالى: ﴿لَيسَ عَلَيكَ هُداهُم وَلكِنَّ اللّهَ يَهدي مَن يَشاءُ﴾.

وأمّا الهداية التي كلّف اللّه تعالى بها الرسول الأعظم صلّى اللّه عليه وآله فهي الهداية العامّة التشريعيّة، وهي التي ذكرها في سورة الشورى[2] بقوله تعالى: ﴿وَإنَّكَ لَتَهدي إلى صِراطٍ مُستَقيم﴾.

السؤال الثاني: أنه ما معنى طلب الهداية إلى الصراط المستقيم، وقد هدانا اللّه إليه؛ لأنا ممّن أنعم اللّه عليه بالإسلام، ولسنا بضالّين ولاشكّاكين؟

وقد أُجيب على هذا السؤال بعدة أجوبة:

منها: أنّ المراد صراط الأوّلين في تحمّل المشاقّ العظيمة لأجل مرضاة اللّه تعالى.

ومنها: أنّ المراد أن يطلب من اللّه أن يُعرّفه دلالة الأشياء عليه.

ومنها: أن يجعله مُعرِضاً عما سوى اللّه.

ومنها: أن يهديه إلى طريق الجنّة.

ولايخفى أنّ الصراط المستقيم هو الطريق الموصل إلى مرضاة اللّه ليس خصوص طريق الأوّلين، وليس هو معرفة دلالة جميع الأشياء عليه.

وأما أن يجعله مُعرِضاً عمّا سوى اللّه، فإن كان المراد أنه لايعبد سواه، فهذا معناه التوحيد، وهو داخل فيما قلنا.

وأمّا إذا كان المراد أنه لايُفكّر في أُمور معاشه وحياته، فليس هذا من

---

(١) البقرة: ٢٧٢.

(٢) الشورى: ٥٢.

الأمور التي جاء بها الإسلام، فالإسلام دين عمل للدنيا والآخرة، ولقد قال إمام المسلمين عليه السلام ((اعمل لدنياك، كأنّكَ تعيش أبدا، واعمل لآخرتك، كأنّك تموتُ غدا))[١].

وأما طريق الجنّة: فإنه إن أُريد به العمل الموصل للجنّة فيرجع إلى ما ذكرنا، وإلاّ فهو غير الصراط المستقيم، ولايمكن أن يحمل عليه.

والتحقيق في الجواب أن يقال: إنّ المراد من الصراط إن كان هو الدين الموصل إلى الله؛ أي الدين الذي ارتضاه اللّه لخلقه، فإنّ للسؤال المذكور مجالاً.

وإن كان المراد العقيدة الموصلة للّه ـ أعمّ ممّا يتقوّم به الدين، أولا يتقوم ـ فيلزم أن يكون كلّ شيعيّ إماميّ حاصلاً على الصراط المستقيم.

وعلى الأوّل: يكون المراد من الضالّ من كان دينه على ضلال.

وعلى الثاني: يكون المراد من الضالّ من كان ضالاً في عقيدته، وإن كان دينه دين حق.[٢]

وأمّا إذا كان المراد من الضلال كلّ من ضلّ عن الطريق ـ إمّا بعقيدته، أو عمله ـ كما هو ظاهر إطلاق الضالّ، فإنه يشمل المؤمن بعقيدته والغير

---

(١) في رحاب أئمّة اهل البيت ٢: ٤٤.

(٢) لاشكّ أنّ العقيدة هي الجزء الأهمّ من الدين المشتمل عليها وعلى جملة الأحكام الإلهية لتنظيم أمور المعاش والمعاد، بل العقيدة هي السنام الأعلى من الدين، فمراده ـ رحمه اللّه ـ من ضلال العقيدة مع كون الدين دين الحقّ، هو الضلال في بعض جهات العقيدة غير التوحيد والنبوّة والمعاد، وإلاّ كان الضلال في نفس الدين؛ لأنّ هذه الثلاثة أثافيُّه وأعمدته.

المستقيم في أعماله، بل ويشمل غير الملتفت الى الصحيح والفاسد من أعماله، وشامل ـ أيضاً ـ غيرالملتفت إلى لزوم إتيان الفعل الصحيح ولزوم تطبيق جميع أحكامه على وفق الشريعة الإسلامية، وليس كلّ مسلم أو كلّ مؤمن هداه اللّه إلى الصراط المستقيم، بهذا المعنى.

والحاصل: أنّ المطلوب الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو صراط النبيّين والشهداء والصدّيقين ومطيعي أوامر اللّه تبارك وتعالى وأوامر رسوله؛ وذلك لقوله تبارك و تعالى في سورة النساء[1]: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئكَ مَعَ الَّذينَ أنعَمَ اللَّهُ عَلَيهِم مِنَ النَّبِيّينَ وَالصِّدِّيقينَ وَالشُّهَداءِ وَالصّالِحينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفيقاً**﴾.

ومن المعلوم أنّ كون الإنسان مسلماً أو مؤمناً، لايلزم أن يكون ممّن أنعم اللّه عليه بهذا المعنى، فمن لم يكن قد وُفّق إلى الهداية إلى الصراط المستقيم، يطلب أن يُهدى إليه، ومن هُديَ إليه من المؤمنين، يطلب ثبوت الهداية واستمرارها، فإنّ الهداية الحاصلة في الزمان السابق لايعلم حصولها في المستقبل، فيطلب حصولها في المستقبل الملازم لاستمرارها.

السؤال الثالث:

إن كان كلّ ضالّ فهو مغضوب عليه، فما هو الوجه في ذكر الضالّين بعد المغضوب عليهم؟

والجواب: أنّ هذا الإشكال يتوقّف على أن يكون المراد مطلق المغضوب عليهم، لاقسماً من المغضوب عليهم، وأن يكون المراد من الضالّين

---

(١) آية: ٦٩.

خصـوص من ضلّ عن الطريق عن تقـصيـر يستحقّ الـعقاب عليـه من اللّه، فيكون الضالّ أخصّ من المغضوب عليه.

أمـا إذا كـان المراد من المـغـضـوب عليـهـم، خـصـوص من عـاند الحق وجحده، وأصرّ على العناد، فلا يكون شاملاً لكلّ ضالّ.

وهكذا إذا قلنا: إن الضـالّين شامل لكـلّ من لم يهتـدِ إلى الحقّ، ولو عن قصور وعجز، فلا يكون أخصّ من المغضوب عليهم.

وإن قلنا: إنّ المراد مطلق من غـضب اللّه عليـه؛ لأنّ الضـالّ عن قصـور ليس من المغضوب عليـهم، فلا يكون من باب ذكر الخاصّ بعـد العامّ، وقد عرفت أنه لا برهان على تخـصيص الضالّين بمن ضلّ عن تقصـير، ولا وجه لأن يرفع اليد عن العـموم، مع أنّ ذكر الخاصّ بعـد العامّ متعـارف [عليه][1] في الكلام العربي، ولا سيّما الخاصّ الذي قـد يتوهمّ عدم شمـول العامّ له، كـمـا في المقـام، فـإنه ـ حـذراً من توهُّم اختـصـاص المغـضـوب عليـهم بالمعاندين ـ ذكَرَ اللّهُ تبارك وتعالى هذا الفرد بالخصوص.

السؤال الرابع: ماالوجه في تكـرار أداة الاستثناء؛ إذ كان يمكن أن تكون الآية هكذا: غير المغضوب عليهم والضالّين؟

والجـواب: أنّ تكرار أداة الاسـتـثناء أوجب جـمـال التـعـبيـر، مع أنه لو لم تتكرر أداة الاسـتثناء لأوجب تـوهُّم أن المستـثنى هو صراط من جـمع كلتـا الصـفـتين؛ أي صـراط المغضـوب عليـهم والضـالين مـعـاً، لاصـراط كلّ منهـما، كـما هـو المطلوب في المقام، ومع تـكرار الأداة لايبقى للتـوهُّم

(١) إضافة يقتضيها السياق.

المذكور مجال.

السؤال الخامس: لماذا قال: ﴿إهْدِنا﴾: ولم يقلْ: إهْدني؟

والجواب: أنه لمّا خاطب العبد ربّه، وأخبره بقوله: ﴿إيّاك نعبد وإيّاك نستعين﴾، وناب عن إخوانه المسلمين بإخبار اللّه تعالى بأنه لا معبود لهم سواه، ولا يمكن لهم أيّ عمل بلا مساعدته، ناسب أن يطلب الهداية له ولإخوانه.

هذا مع أنّ الدعاء للمؤمنين من أفضل الأعمال، فكأنّ اللّه تبارك وتعالى اقتضت حكمته أن يُعلّم عبيده المسلمين بأن يدعو بعضهم لبعض؛ لأنّ ذلك ممّا يقوّي الرباط الروحي بينهم، ويُشعر كُلّاً منهم أنه جزء من جماعة لا ينفكّ عنها، وأنّ عليه أن يسعى لما فيه خيرها وصلاحها، ولو عمّ هذا الشعور أبناء أُمّة من الأمم بلغت الأُمّة أعلى مراتب الرقيّ والسعادة.

السؤال السادس: هل الآية المباركة دالّة ـ كما يقول الفخر الرازي في تفسيره ـ[1] على أنه ليس للّه على الكافر نعمةٌ، أولا تدلّ على ذلك؟

وإذا كان للّه على الكافر نعمةٌ، فهل يكون المطلوب صراط الكافرين ـ كما يقول الفخر ـ[2] أولا يلزم منه ذلك؟

والجواب: أنّ نعم اللّه تبارك وتعالى تعمّ جميع عباده، ومن أعظم نعمه

---

(١) التفسير الكبير ١: ٢٥٩/ الفصل الثامن في تفسير قوله: ﴿صراط الذين انعمت عليهم﴾.

(٢) نفس المصدر السابق.

رحمته، وقد عرفنا أنها تعمّ الكافر والمؤمن. ويدلّ على ذلك نصّ هذه الآية المباركة، مضافاً إلى غيرها من الآيات، فإنّ نعم اللّه لو كانت مختصّة بالمؤمنين لما صحّ استثناء المغضوب عليهم والضالّين. فيفهم من الآية المباركة أنّ نِعَمَ اللّه تشمل المغضوب عليهم وتشمل الضالّين، وتشمل غيرهم، والمطلوب هو صراط من أنعم اللّه عليه غير هذين الفريقين.

وقد ظهر: أنّ الالتزام بشمول نعم اللّه للكافرين، لا يقتضي أنّ المطلوب الهداية إلى صراط الكافرين؛ لأنّ المطلوب ليس هو الهداية إلى صراطِ مُطلقِ مَنْ أنعم اللّه عليه، بل المقيَّد بأن لا يكون من المغضوب عليهم، ولا يكون من الضالّين، وقد خرج صراط الكافرين بالقيد المذكور.

السؤال السابع: هل الآية المباركة ـ كما يقول الفخر الرازي ـ[1] تدلّ على إمامة أبي بكر؛ لأن صراط الذين أنعم اللّه عليهم قد ذكره اللّه تعالى في آية أُخرى، فقال في سورة النساء[2]: ﴿**فَأُولئكَ مَعَ الَّذينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيهِمْ مِنَ النَّبيِّينَ وَالصِّدِّيقين**﴾، ولما كان أبو بكر رأس الصِّدِّيقين، فتدلّ على إمامته.

والجواب: أنّ هذا من أغرب الاستدلال، فإنّ الآية المباركة إنّما تدلّ على أنّ من أطاع اللّه ورسوله يكون في الجنّة مع النبيّين والصدّيقين والشهداء؛ لأنه تابع لهم، ولو سُلِّم أنّها تدلّ على إمامة أبي بكر، فهي تدلّ على إمامة جميع الصِّدِّيقين والشهداء، ولا إشكال أنّ أمير المؤمنين عليه

(١) التفسير الكبير ١: ٢٦٠.

(٢) آية: ٦٩.

السلام سيّد الصدّيقين والشهداء، فإنْ سُلِّم أنّ أبابكر من الصدّيقين فعليٌّ أولى منه؛ لأنه قد اجتمعت فيه الصفتان، ومن أولى منه عليه السلام أن يكون صدِّيقاً، وهو أوّل مُصدِّق بالرسالة السماوية؟!

[الدروس العملية في الآية المباركة]:

وفي هذه الآية المباركة توجد دروس عمليّة متعدّدة:

[شروطُ نيل الهداية ومراتبُها]:

أوّلها: أنّ اللّه تبارك وتعالى لمّا علّم عبيده أن يطلبوا الهداية منه، علّم أنّ هذه الهداية من أعظم ما ينعم به على عبيده، وأنها هي التي تُوصل إلى الصراط المستقيم، وأنه لا يمكن الوصول إليها إلاّ برحمة منه تبارك وتعالى، كما يدلّ على ذلك قوله تبارك وتعالى في سورة البقرة:[1] **﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَلكِنَّ اللّه يَهْدي مَنْ يَشاءُ﴾**.

فإذا كانت الهداية لا تحصل من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، فإنّها لا تحصل من سواه بطريق أولى، فيجب علينا السعي لأن يمنّ اللّه بها علينا، وأن نرفع مايمنع من شمولها لنا، فقد ذكر اللّه تبارك وتعالى: أنّ هذه الهداية لاتنال الظالمين؛ حيث قال في سورة الانعام:[2] **﴿إنّ اللّهَ لا يَهْدي الْقَوْمَ الظّالمينَ﴾**.

فيلزم أن نُنقذ أنفسنا من هذه الصفة المذمومة، التي تمنع من شمول الهداية لنا، ولا نكون ظالمين لا لغيرنا ولا لأنفسنا بالمعاصي؛ بأن نوردها

---

(١) آية: ٢٧٢.

(٢) آية: ١٤٤.

الهلاك ونُحقّ عليها العقاب، فإنّ كلّ فِسْق إنّما هو ظُلم من الإنسان لنفسه وتجنٍّ عليها، وأن لا نكتفي بطلب الهداية بالدعاء، بل نَجهد على أن نتّصف بالأوصاف التي حدّدها اللّه لمن يستحقّ أن تناله تلك الهداية.

وأهمّ هذه الصفات هو الجهاد في سبيل اللّه، فقد قال اللّه تعالى في سورة العنكبوت[1]: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾.

وليس الجهاد المذكور في الآية مختصاً بالجهاد بالسلاح؛ لأجل أن يسقط وجوبه مع عدم التمكّن [منه][2]، بل يشمل الجهاد باللسان والقلم، والجهاد في سبيل نشر مبدأ الإسلام، والدفاع عن عقيدته المثلى ونظامه الكامل، والجهاد في سبيل إفهام الناس أنّ الإسلام هو الكفيل الوحيد بحلّ[3] مشاكلنا، وأنّ السعادة الحقيقيّة في المجتمع لا تتمّ إلاّ باتّباع القرآن، فإنّ للجهاد مراتب: فمرتبة بالحرب والسلاح، ومرتبة باليد، ومرتبة بالعلم واللسان، ومرتبة بإصلاح الإنسان نفسه، وبجهاده مع روحه إذا فرض انه لا يتمكّن من إصلاح غيره، فلا أقلّ أن يُصلح نفسه، فإنّ كلّ إنسان إذا صمّم على إصلاح نفسه، صلح المجتمع بالتدريج، وأصبح مجتمعاً إسلاميّاً صميماً[4]، وعند ذلك يتمكّن المجتمع المسلم أن يصل إلى ما يتمنّاه من حياة مُثلى ومحلّ رفيع.

---

(١) آية: ٦٩.

(٢) في الأصل: عليه ...

(٣) في الأصل: لحلّ ...

(٤) أي خالصاً محضاً.

[السير على الصراط المستقيم]:

وأمّا الدرس الثاني: الذي يستفاد من هذه الآية فهو أنّا لمّا علمنا أنّ الصراط الموصل إلى رحمة اللّه ونعمه هو الصراط المستقيم، الغير المنحرف إلى اليمين أو إلى اليسار، الخالي من الغُلُوّ والتقصير، فينبغي لنا أن نسير على ذلك الصراط، ونطبّق أعمالنا على منهاجه وتعاليمه، وأن نحرص على ألاّ تزلّ بنا القدم عنه، وأن نكون ممّن يهديه اللّه الصراطَ المستقيم، وممّن ذكرهم اللّه تعالى في كتابه الكريم في سورة النساء(١): ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسول فَأُولئِكَ مَعَ الّذينَ أنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقينَ وَالشُّهداءِ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفيقا﴾، فنكون أهلاً لأن تشملنا تلك الهداية، ونصل إلى الصراط المستقيم؛ وذلك بأن نُطيع اللّه ورسوله، ولا نعصي لهما أمراً، ولانخالف لهما نهياً؛ لنكون ممّن هداه اللّه إلى الصراط المستقيم.

[تجنُّب صفتي المغضوب عليهم والضالّين]:

أما الدرس الثالث: الذي يستفاد من الآية المباركة، فهو أنّا إذا علمنا أنّ الضالّين والمغضوب عليهم لم تصلهم الهداية، ولم يصلوا إلى الصراط المستقيم الموصل إلى رضاء اللّه وعفوه، فعلينا أن لا نكون من المغضوب عليهم، ولا نكون من الضالّين، وأن نسعى بكلّ جُهدنا إلى المعرفة بديننا وحقيقة إيماننا وأحكام شريعتنا.

والطريق الى ذلك هو اتّباع كتاب اللّه وسُنّة نبيّه وأهل بيته، فهو الطريق الموصل إلى رضاء اللّه وعفوه، ولذا فُسِّر الصراط المستقيم كما عرفت آنفاً

---

(١) آية: ٦٩.

بأمير المؤمنين عليّ تارة، وبمطلق الحجّة أُخرى، وبالإمام ثالثة، وبحبّ محمد وآل محمد رابعة، فإنّ معنى ذلك أنّ اتّباع الإمام والحُجّة هو الطريق الموصل، وأن الحبّ الحقيقي لهم عليهم السلام الملازم لاتّباعهم هو الطريق إلى النجاة، فإنّ المحبّ الحقيقي هو الذي يطيع محبوبه، ويتّبع أوامره، والمحبّ العاصي كاذب في دعوى الحبّ.

وقد روي[1] عن سيّدنا وإمامنا ومذهبنا جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال:

تعصى الإلهَ وأنتَ تُظهرُ حُبَّهُ هذا لَعمرُكَ - في الفعالِ بَديعُ
لو كانَ حبُّك صادقاً لأطعتَهُ إنَّ المُحبَّ لمن أحبَّ مُطيعُ

وإذا لم نتمكن من معرفة شيء، فعلينا أن لا نُصرّ على انكاره، ولا نجزم بأنّ ما تصوّرناه بدون برهان هو الحق؛ لكي لا نكون من المغضوب عليهم، ولانأخذ إلاّ ما علمنا أنه من اللّه ومن أحكامه العادلة.

[الخاتمة: في إجمال معاني أمّ الكتاب]:

هذا خلاصة الكلام في تفسير سورة الحمد وأُمّ الكتاب.

وهي على اختصارها قد حوت كثيراً من المباحث الكلامية، فدلّت على حصر الحمد باللّه تعالى؛ لأنه الجامع للكمالات والمربّي للعوالم، ولأنّ رحمة اللّه واسعة مستقرّة، وإليه مرجع العباد، دلت السورة المباركة على سعة رحمته وثباتها.

كما دلّت على وجود يوم آخر، وهو يوم الحساب والعقاب، وبه يجتمع

---

(١) تحف العقول: ٢٩٤، ولكن عُزيا فيه إلى الإمام الباقر عليه السلام.

الناس، وأن الميزان في ذلك اليوم هو الدين لا سواه.

ودلّت على انحصار العبادة باللّه تعالى، وأنّ العمل لا يمكن بدون معونته، ولا يتم بلا مساعدته، وأنه هو الذي يهدي عباده إلى الصراط المستقيم، وأنّ الهداية لاتكون إلاّ من اللّه، وأنّ على العباد طلبها منه تعالى، وأنّ الصراط المستقيم هو صراط من أنعم اللّه عليه، ولا يوفّق له المغضوب عليهم ولا الضالّون.

ويفهم من ذلك التحذيرُ من أنْ نكون [من][1] إحدى الطائفتين اللتين لاتصلها الهداية، ولاتصلان إلى رضا اللّه تعالى، وهما المغضوب عليهم والضالّون. وأن نسعى للوصول إلى الحقّ، ولا نُعادي الحقّ، ولانصرّ على الباطل.

[معارضة فاشلة لسورة الحمد]:

والغريب مع بلاغة هذه السورة وكثرة ما فيها من مطالب على اختصارها أن يتصدّى بعض المسيحيّين إلى مُعارضة السورة المذكورة[2]، فيقول معارضاً:

(الحمد للرحمن، ربّ الأكوان، الملك الديّان، لك العبادة وبك المستعان، اهدنا صراط الإيمان).

---

(١) إضافة يقتضيها السياق.

(٢) وردت هذه المعارضة في كتيّب أصدرته المطبعة الإنجليزيّة الأمريكانيّة ببولاق مصر سنة (١٩١٢) ميلاديّة باسم «حُسن الإيجاز»، وقد كتب في ردّه آية اللّه العظمى السيّد الخوئي ـ قدّس سرّه ـ كتاباً أسماه «نفحات الإعجاز» طبع في المطبعة العلويّة في النجف الأشرف سنة (١٣٤٢) هجريّة قمرية. البيان: ١٠٨.

والواقع أنّ هذه عبارة أُخرى عن نفس سورة الفاتحة، مع تغيير في بعض ألفاظها، أوجب ذهاب جمالها ورونقها، وخلوّها من كثير من المعاني المشتملة عليها، والمطالب الكلاميّة التي تحويها.

مع أنّ المعارِض ينبغي أن يُنشيء كلاماً مُستقلاً في ألفاظه وتركيبه.

وليت شعري أين قوله «الحمد للرحمن» من قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾، فإنه تبارك وتعالى ذكر اسمه المبارك «اللّه» وأضاف الحمد إليه؛ للإشارة [إلى][1] أنّ انحصار الحمد [به][2]؛ لاستجماع ذاته الكريمة لكلّ صفات الكمال والجلال، التي أوجبت انحصار الحمد به تبارك وتعالى. كما أنّ هذا المُعارِض الجاهل قد أهمل لفظ الرحيم، مع دلالته على استقرار الرحمة وثبوتها.

كما أنه لا معنى لما في هذه الكلمات من نسبة الربِّ إلى الكون؛ لأنّ الكون ـ كما عن «لسان العرب»[3] ـ الحدوث والوقوع والصيرورة [و][4] الكفالة، وكلّ من هذه المعاني لاتصحّ نسبة الربوبية إليها، مع خُلوّها عمّا تشتمل عليه كلمة «ربّ العالمين» من الإشارة إلى تعدّد العوالم وكثرتها، وأنّ من أسباب انحصار الحمد به هو تفضُّله على عباده بتربية جميع العوالم وتهْيئتها لهم.

---

(١) في الأصل: على ...

(٢) في الأصل: له ...

(٣) اللسان ١٣: ٣٦٥ ـ ٣٦٦ و ٣٧٠.

(٤) إضافة يقتضيها السياق.

كما أنّ قوله: (الملك الديّان) لايستفاد منه ما يستفاد من ﴿مالِكِ يَوْمِ الدِّين﴾: من يوم الحساب والعقاب، وأنه تعالى هو مالك ذلك اليوم، والحاكم فيه.

كمالم يفهم من قوله: [إهدنا صراط الإيمان][1] المعاني العظيمة السامية المشتمل عليها قوله تعالى: ﴿صِراطَ الَّذينَ أنعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضّالِّين﴾ التي ذكرناها سابقاً.

وأودّ قبل الانتهاء من المباحث المتعلّقة بهذه السورة أن أنقل رواية تدل على عظمة هذه السورة، وعلوّ مكانها، وجلالة قدرها، وكيف انها مقسمة ما بين اللّه وبين عباده، وكيف انه تعالى يعطف على عبده بعد قراءة كل آية من آياتها ، فعن العيون[2] عن الإمام علي الرضا عليه السلام، عن آبائه عن أميرالمؤمنين عليه السلام، قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يقول: ((قال اللّه عزّوجلّ: قسمتُ فاتحة الكتاب بيني وبين عبدي؛ فنصفها لي، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل: إذا قال العبد ﴿بِسْمِ اللّهِ الرّحمنِ الرحيم﴾، قال اللّه عزّوجلّ: بدأ عبدي باسمي، وحقّ عليّ أن أُتِمّم له أموره، وأبارك له في أحواله.

---

(١) في الأصل: (الملك الديّان)، والمناسب ما أثبتناه، وإن كان يقوى في ظنّي أنّ هنا سقْطاً ربما يكون أكثر من سطر تعرّض فيه لجهات أُخرى في ﴿مالك يوم الدين﴾ قصُر عنها قوله: (الملك الديّان)، وكذا تعرّض فيه لقوله: (لك العبادة وبك المستعان) وقصورها عن قوله تعالى: ﴿إيّاكَ نعبُدُ وُ إيّاكَ نَستَعينُ﴾.

(٢) عيون أخبار الرضا ١: ٣٠٠ ـ ٣٠١/٥٩ باب ٢٨ فيما جاء عن الإمام علي بن موسى عليهما السلام من الأخبار المتفرّقة.

فإذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله جلّ جلاله: حمدني عبدي، وعلم أنّ النعم التي له من عندي، وأنّ البلايا التي دُفعتْ عنه فبطولي[1]، أُشهدكم أني أُضيف له إلى نعم الدنيا نِعَمَ الآخرة، وأدفع عنه بلايا الآخرة، كما دفعت عنه بلايا الدنيا.

وإذا قال: ﴿الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ قال الله جلّ جلاله: شهد لي عبدي أني الرحمن الرحيم، أُشهدكم لأوفِّرنَّ من رحمتي حظَّه، ولأُجْزِلَنّ من عطائي نصيبه. فإذا قال: ﴿مالِكِ يوم الدين﴾ قال الله تعالى : أُشهدكم كما اعترف بأنّي مالك يوم الدين، لأسهّلنّ يوم الحساب حسابه، ولأتقبَّلنّ حسناته، ولأتجاوَزنّ عن سيّآته.

فإذا قال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قال الله عزّوجلّ: صدق عبدي، إيّاي يعبد، أُشهدكم لأُثيبَنَّهُ على عبادته ثواباً يغبطه كلّ مَن خالفه في عبادته.

فإذا قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال الله تعالى: بي استعان عبدي وإليّ التجأ، أُشهِدُكم لأُعيننّه على أمره، ولأعيننَّه في شدائده، ولآخُذَنَّ بيده يوم نوائبه. فإذا قال: ﴿اهدِنا الصِّراطَ المستقيم...﴾ إلى آخر السورة، قال الله عزّوجلّ: هذه لعبدي،ولعبدي ما سأل، وقد استجبت لعبدي، وأعطيتُه ما أمّل، وآمنته ممّا منهُ وَجل)).

---

(١) في الأصل: (بتطوُلي)، وقد أثبتناها كما في المصدر.

تفسير
سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد

وآله الطيبين الطاهرين



سورة البقرة مدنية، وقد نزلت جميع آياتها في المدينة عدا آيةً واحدة، وهي ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرجَعونَ فيهِ إلى اللّهِ﴾[1]، فإنّها نزلت في حِجّة الوداع بـ «منى»، وعدد آيات سورة البقرة «٢٨٦»، وهي أطول سورة في القرآن الكريم، والعدد المذكور مرويّ[2] عن سيّد الوصيّين وأمير المؤمنين عليه السلام، وهو الموافق لما عليه جميع المصاحف المتعارفة، وهو المعروف بالعدد الكوفي.

وقد جَهِد بعض المفسّرين في بيان وجه جعلها أوّل القرآن بعد سورة الفاتحة، ولكن نحن لا يهمّنا الخوض في ذلك بعد أن لم يكن ترتيب السورة بأمر من اللّه أو نبيّه أو أوليائه، وإنّما كان ممّن جمع القرآن من الصحابة، ويمكن أن يكون الداعي لوضعها في هذا الموقع هو طولها، وإنّما تأخّرت عن الفاتحة لفضل الفاتحة.

وقد ذكرنا في أوّل تفسير سورة الحمد: أنّ هناك غاية لإنزال القرآن الكريم هي هداية الناس وإرشادهم، وهناك غاية تترتّب على كلّ سورة،

---

(١) البقرة: ٢٨١.

(٢) مجمع البيان ١: ٣٢.

وهي الداعية لإنزالهـا، فلابدّ من شرح الغاية من إنزال سورة البقـرة المباركة فالمتأمّل في هذه السورة المباركة يجدها تهـدف إلى غرضين يجمعها جامع واحد:

أوّلهما: هو بيان أنّ من حقّ اللّه على عبـاده أن يؤمن عباده بجميع رسله وأن يُصدّقوا جميع كتبه وآياته وأن يمتثلوا جميع أوامره ونواهيه.

وأيضـاً تقريع المـنافقين والكافـرين ـ ولاسيّما «بني إسـرائيل» ـ على مـا يذهبـون إليـه من التـفـرقـة في دين اللّه والإيمـان ببـعض الرسل دون بعض، والتصديق ببعض الأحكام دون بعض.

ثمّ مناقـشـة بـني إسـرائيل فـيـمـا يثيـرونه حـول الـرسـالة المحمّدية من تشكيكات وشُبَه، وتذكـيـرهم بـنعم اللّه علـى أسـلافـهم، وبما لاقـوه ـ أسلافهم ـ حينما كذّبوا وعاندوا وخالفوا.

ثاني الغرضين: هو التشريع الذي اقتضاه كونُ المسلمين جماعـةً متميّزة عن غـيـرها في المدنيـة، فاشـتـملت على كـثـير من الأحـكام الشرعـيـة في العـبادات والمعـاملات والعـلاقات الاجـتمـاعـيـة، كالحكم بتـحويل القـبلة، وأحكام الحج، والإرث، والصوم، والدَّين، والرهن، وغيرها.

ولا يستبعد كون هذه السورة ذات غرضين؛ لأنها لم تنزل دفعة واحدة، بل نزلت نجـوماً ودفـعات، والجـامع بين الغـرضين هو إفهـام الناس بحقّ اللّه وبأحكامه.

وأمّا وجه تسـمـيتها بسـورة البقرة: فهـو لأنها انفردت بذكر حـادثة قتلٍ وقعت في بني إسـرائيل، وكان للبـقـرة شأن عـجيب في هذه الحادثة، كـما سنشــرح ذلك حين نتكـلم عن الآيات التي تـخصّ هذا الموضــوع، وننقل

الحادثة المذكورة.

وتبتدئ هذه السورة كغيرها من السور المباركة بالبسملة، وقد عرفنا أنّ البسملة جزء من كلّ سورة، كما ذكرنا ذلك في أوّل سورة الفاتحة، لوجود الأدلّة على ذلك التي منها الأخبار الواردة من طرق أُخواننا حُفّاظ أهل السُّنة[1].

وقد ذكرنا في أوّل سورة الحمد تفصيل الكلام في ترجمتها، ولذلك فلا داعي للإعادة.

(١) راجع الصفحة: (٦٩-٧٩) من كتابنا هذا.

﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ
هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾

[في تفسير الحروف المقطّعة]:

قد اختلفت كلمات المفسّرين في تفسير هذه الحروف وغيرها من الحروف المقطّعة في أوائل السور، وقد ذكرنا في مقدمة تفسيرنا: أنّ الآيات الغير المشتملة على معانٍ ظاهرة عند العرف نرجع في تفسيرها إلى ما ورد في تفسيرها من آية مُباركة أو رواية معتبرة، ومن هذه الآيات الحروف المقطّعة:

وقد ورد في الأخبار:[1] أنها تشتمل على معانٍ وإشارات لايفهمها إلاّ الرسول الأعظم صلّى اللّه عليه وآله، وأنّ الغرض من إفهام تلك المعاني بهذه الكيفية هو إفهام الناس أنّ القرآن المعجز ـ الذي عجز العرب عن الإتيان بسورة من سوره ـ مركّب من هذه الحروف التي يتركّب منها كلامهم، وتتكّون منها خطبهم وأشعارهم، فعجزُهم مع ذلك عن معارضته ومقابلته، والتجاؤهم إلى السيف، دليل على أنه من اللّه تبارك وتعالى.

وقد يستفاد ذلك من نفس القرآن ـ أيضاً ـ فإنّ ظاهر قوله تعالى: ﴿ذلِكَ

---

(١) مجمع البيان ١: ٣٤.

الكِتابُ﴾ هو إخبار عن نفس هذه الحروف، ولما لم تكن هذه الحروف هي القرآن الكريم، فلابدّ وأن يكون المراد أنّ القرآن الكريم مركّب منها، ومع ذلك عجز العرب عن مجاراته.

[في تفسير قوله تعالى: ﴿ذلِكَ الكِتابُ﴾]:

ذلك اسم إشارة أُشير به إلى القرآن، ولهذا قد يرد سؤال في المقام وهو: أنّ «ذلك» اسم إشارة للبعيد، فكيف أُشير به في المقام إلى القرآن مع قربه؟

ويمكن الجواب عن ذلك بوجوه:

أوّلها: أنّ الإشارة إلى مجموع القرآن، ومن المعلوم أنّ القرآن لم يكن مجموعاً حين ذلك، بل كان محفوظاً في أحد الألواح العالية في السماء، فلذا أُشير إليه بذلك.

ثانيها: أنّ الإشارة إلى ما نزل من القرآن، ولم تكن تلك السورة حاضرة أمام رسول اللّه حين نزول الآية.

ثالثها: أنّ القرآن لمّا اشتمل على حكم عظيمة وعلوم كثيرة يعسُر على كثير من الناس الوصول إليها جاز أن يُشار بـ «ذلك» إليه.

رابعها: أنّ القرآن لرفعة مقامه وعلوّ شأنه استحقّ الإشارة [إليه][1] بـ «ذلك»، وهذا متعارف في لغة العرب، فكما يعبّر العظيم عن نفسه بـ «نحن» يُشار إليه ـ أيضاً ـ بإشارة البعيد بـ «ذلك» لسموّ منزلته وعلوّ مقامه.

ويمكن توجيه الجوابين الأخيرين: بأنّ «ذلكَ» ـ وهوالمشار إليه بـ «ذلك»

---

(١) إضافة يقتضيها السياق.

ـ لم توضع للبعيد،[1] وإنّما [هي] اسم إشارة، و «ها» للتنبيه،[2] واللام لتأكيد معنى الإشارة، وإنما يُشار بها إلى البعيد؛ لأنه لبعده ناسب أن يُبالغ في التنبيه إليه، ومثلُ البعيد في المكان ـ في المناسبة المذكورة ـ المرتفع شأناً، والبعيدُ معناه عن الأذهان.

وقد أُجيب عن السؤال المذكور بأجوبة أُخرى ضعيفة:

منها: أنّ اللّه وعد رسوله أن ينزّل عليه كتاباً لا يمحوه الماحي[3].

ولا يخفى أنّ الكتاب الموعود به هو القرآن، فيرد الإشكال، ولا يُدفع إلاّ بما ذكرنا.

ومنها: أنّ المراد الكتاب الذي وعد به موسى وعيسى[4].

ولا يخفى أنّ ذلك الكتاب هو القرآن، فيرد الإشكال.

ومنها: أن المشار إليه هو ﴿الم﴾، ولمّا انقضى التكلّم بها صارت في حكم البعيد. ولايخفى أن مجرّد الانتهاء من التلفّظ لايجعله بحكم البعيد، وهكذا مجرّد وصول القرآن إلى النبيّ لايصيّره بحكم البعيد ـ وإن توهّم ذلك بعضهم ـ[5] ما لم يوجّه بما ذكرنا.

والكتاب هوالقرآن كما يدلّ على ذلك وصفه بكونه لاريب فيه؛ إذ ليس هناك كتاب يخلو من الريب والشكّ فيه أو في صحّة ما جاء فيه،

(١) كذا، والصحيح: بأنّ «ذا» ـ وهو المشاربه بـ«ذلك» ـ لم توضع للبعيد.

(٢) الظاهر أنه سهو، والصحيح: والكاف للخطاب.

(٣) مجمع البيان ١ : ٣٦، الجامع لأحكام القرآن ١ : ١٥٨، باختلاف يسير.

(٤) مجمع البيان ١ : ٣٦، الجامع لأحكام القرآن ١ : ١٥٨.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١ : ١٥٧.

إلاّ القرآن الكريم، ألم تسمع إلى قوله تبارك وتعالى في سورة النساء:[1] **﴿أفلا يَتدَبَّرونَ القُرآنَ ولَوْ كانَ من عندِ غيرِ اللّهِ لوَجَدُوا فيه اختلافاً كثيراً﴾**؟!

وإطلاق الكتاب على القرآن الكريم: إمّا لكونه من اسمائه كما قيل، وإمّا لكون القُرآن من أظهر مصاديق الكتاب.

والريب: هو الشكّ، والمراد أنه خالٍ ممّا يوجب الشكّ في صدوره من قِبَل اللّه لمن يتدبّر ويعقِل، ولا تُعمي قلبه العصبيّة.

[إعجاز القرآن]:

وكيف يُشكّ في القرآن الكريم وفي إعجازه، وقد عجزت العرب - وهي في أوج فصاحتها وبلاغتها - عن مجاراته ومقابلته والإتيان بمثله، مع تحدّيه لهم بقوله تبارك وتعالى في سورة هود آية١٣ **﴿أمْ يَقُولُونَ افتَراهُ قُلْ فَأتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِه مُفْتَرَياتٍ وَادْعوا مَنِ استَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللّه إنْ كُنْتُمْ صادِقينَ﴾**، وفي آية١٤: **﴿فإنْ لَمْ يَستَجيبُوا لكُمْ فاعْلَمُوا أنَّما أُنزِلَ بِعِلْمِ اللّهِ، وَأنْ لا إلهَ إلاّ هُوَ فَهَلْ أنْتُمْ مُسْلِمونَ﴾**، ولمّا لم يُجيبوه إلى ذلك تحدّاهم بسورة واحدة، حيث قال في سورة يونس:[2] **﴿أمْ يَقُولُونَ افتَراهُ قُلْ فَأتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِه وَادْعُوا مَنِ استَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ إنْ كُنْتُمْ صادِقينَ﴾**، فعجزوا عن ذلك - أيضاً - والتجؤوا إلى الحرب وبذلوا الأموال والأرواح.

وكيف يكون في القرآن ريب أوشكّ ولا اختلاف فيه أبداً، كما قال

---

(١) النساء: ٨٢.

(٢) يونس: ٣٨ .

تبارك وتعالى في سورة النساء[١]: ﴿أفَلا يَتَدَبَّرُون القُرْآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثيراً﴾؟! وستعرف أنّ جميع ما تُوهّم فيه من الاختلاف من عدم فهم القرآن.

[القرآن والإخبار بالغيب]:

وكيف يكون في القرآن ريب، وقد وردت فيه آيات كثيرة تُخبر بأمور لم تكن حين نزولها، وإنّما وُجدت بعد ذلك؟! وإليك بعض هذه الآيات:

أوّلها: قوله تبارك وتعالى في أوّل سورة الروم:[٢] ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ في أدْنى الأرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ وقد وقع ما أخبر به تبارك وتعالى.

وبيان ذلك: أنّ الآية المباركة نزلت حينما انتصر الفرس على الروم، وتأثّر المسلمون من ذلك، وسبب تأثّرهم أنّ دولة الروم كانت دولة كتابيّة، وفارس دولة مشركة، والكتابيّون أقرب عقيدةً إلى المسلمين، هذا، مع أنّ قيصر الروم كان قد أحسن استقبال رسول النبيّ صلّى اللّه عليه وآله، بينما أساء كسرى استقباله.

وهكذا نرى أنّ ميلهم إنّما كان لجهة دينية، وهكذا يجب أن تكون عواطف المسلمين متّجهة كلّها اتّجاهاً دينياً عقائدياً، وأن يكون ميزان الحبّ والبغض عند المسلمين هو القُرب من اللّه والبعد عنه، فالقريب من اللّه حبيب وإن بعد نسباً، والبعيد عن اللّه مبغوض وإن كان ولداً أو والداً.

---

(١) النساء: ٨٢.

(٢) الروم: ٢ - ٣.

ثانيها: قوله تبارك وتعالى مخبراً نبيّه صلّى اللّه عليه وآله برجوعه إلى مكّة بعد هجرته منها بقوله تبارك وتعالى في سورة القصص آية ٨٥[١].

ثالثها: إخباره تعالى بعدم تحريف القرآن وبقائه سالماً من الزيادة والنقصان، وذلك في قوله عزّوجلّ في سورة الحجر:[٢] ﴿**إنّا نحْنُ نزّلْنا الذِّكْرَ وَإنّا لَهُ لَحافِظُون**﴾، وقد وقع ذلك، وبقي القرآن محفوظاً من جميع ألوان التحريف والزيادة والنقيصة، كما مرّ تفصيلاً في مقدّمة التفسير، فراجع.

[القرآن وأسرار الكون]:

وكيف يكون فيه ريب، وقد اشتمل على آيات تستوعب كثيراً من أسرار الكون وعجائب الخلقة؛ مما لم يكن معروفاً في تلك الأيّام في بلاد المدنية والعلم والحضارة، فضلاً عن تلك البلاد القاحلة البعيدة عن كلّ ثقافة؟!

وإليك بعض تلك الآيات:

١ـ قوله تعالى في سورة القيامة:[٣] ﴿**بَلَى قَادِرينَ على أنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ**﴾:

فإنّ تخصيص البَنان بالذكر لم يكن له وجه معروف عند المتقدّمين؛ لعدم اطّلاعهم على ما في البَنان من عجيب الخِلْقة ودِقّة الصُّنع، بل ربما

---

(١) وهي قوله تعالى: ﴿إنَّ الّذي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرآنَ لَرادُّكَ إلى مَعادٍ﴾.

(٢) الحجر: ٩.

(٣) القيامة: ٤.

كان يُظنّ أنّ بعض أجزاء الإنسان [الأخرى][١] أولى بالذكر، ولكن بعد أن كشف العلم الحديث دقّة خلق البَنان، ودلّل على عدم وجود اثنين في البشر يتّفقان في البنان تماماً، عُلم الوجه في التأكيد عليه بصورة خاصّة، وتبيّن أنّ ذلك لأجل التنبيه على ما في خِلقته من دقّة وإتقان.

٢ـ قوله تعالى في سورة الحجر:[٢] ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾:

فإنّ هذه الآية المباركة دلّت على أنّ كلّ ما ينبُت في الأرض من أجزاء موزونة،[٣] ولم يكن هذا المعنى معروفاً عند المتقدّمين، حتى اكتشف علماء النبات أخيراً أنّ كلّ نوع من أنواع النبات مركّب من أجزاء خاصّة على وزن مخصوص؛ لو زِيدَ في بعض أجزائه مقدار جزء من ألف جزء من الذرّة، لكان ذلك نباتاً آخر، وأنّ أجزاء النبات من الدِّقّة بحيث لايُمكن ضبطها بأدقّ الموازين المعروفة عند البشر.

٣ـ قوله تبارك وتعالى في سورة الحجر[٤] ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾:

فقد دلّت هذه الآية المباركة على حاجة إنتاج الشجر إلى التلقيح، وحصول التلقيح عن طريق الرياح، ولم يكن العلم قد توصّل إلى هذا المعنى، حتّى اكتشف علماء النبات أخيراً حاجة الشجر والنبات إلى اللقاح، وحصوله بسبب الريح، كما في المشمش والصنوبر والرُّمّان والبُرتقال

(١) إضافة يقتضيها السياق.

(٢) الحجر: ١٩.

(٣) إي: كلّ ما ينبت في الأرض متكوّنٌ من أجزاء موزونة.

(٤) الحجر: ٢٢.

والقُطْن، وكيفية التلقيح: أنّ الطلع حينما يتفتّح تحمل الرياح منه أجزاء صغاراً إلى بقيّة الأزهار، فتكون ثمراً.

وأشار تبارك وتعالى إلى ذلك في آيات أُخرى، فقال في سورة الرعد:[1] ﴿**وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ**﴾، وقال في سورة يس:[2] ﴿**سُبْحانَ الَّذي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمّا لا يَعْلَمُونَ**﴾، فإنّ هذه الآيات تُشير إلى أمرٍ لم يكن معروفاً سابقاً، حتى أنّ بعض القُدماء من المفسِّرين لجهلهم بحاجة الأشجار إلى التلقيح ـ فسّروا الآية الدالّة على التلقيح: بأنّ وصف الرياح بـ «لواقح» لحملها للسحاب. ولايخفى بُعد هذا التفسير؛ إذ بمجرد حملها للسحاب الذي يسقي الأشجار لا يصدق اسم اللواقح عليها، مضافاً إلى أنّ الرياح تدفع السحاب لاتحمله.

٤ـ قوله تبارك وتعالى في سورة طه[3] وفي سورة الزُّخرف[4]: ﴿**الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ مَهْداً**﴾:

فانّ هاتين الآيتين المباركتين[5] قد أثبتتا حركة الأرض في وقت لم يكن علماء الهيئة قد اكتشفوا ذلك، وهذا من آيات القرآن الكريم ومعاجزه.

وبيان دلالتها: هو أنّ الآية المباركة في مقام بيان تشبيه الأرض بالمهد،

(١) الرعد: ٣.

(٢) يس: ٣٦.

(٣) طه: ٥٣.

(٤) الزخرف: ١٠.

(٥) يريد أنّ قوله تعالى: ﴿الذي جَعَلَ...﴾ جزء من الآيتين المشار إليهما.

وبيان أنه كما أنّ المهد مريح للطفل حينما يوضع فيه، كذلك الأرض مريحة للبشر ، ومن المعلوم أنّ المهد إنما يُريح الطفل بحركته لابسكونه، فلو لم تكن الأرض متحرّكة لم يكن للتشبيه المذكور معنىً.

٥ـ الآيات الكونية التي هي من دلائل عظمة القرآن وإعجازه، ولايبقى مع ملاحظتها أيّ ريب فيه، وفي صدوره من الله عزّوجلّ، وهي[١] الآيات الدالّة على عدم سطحيّة الأرض في وقت كان من المسلّم فيه سطحيّة الأرض، والآيات الدالّة على تعدّد المشارق والمغارب:

منها: قوله تبارك وتعالى في سورة الأعراف[٢]: ﴿وأَوْرَثْنا الْقَوْمَ الّذينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَها﴾.

وقوله تعالى في سورة المعارج[٣]: ﴿فلا أُقسِمُ بِرَبِّ المشارِقِ والمغاربِ إنّا لَقادِرونَ﴾.

وقوله تبارك وتعالى في سورة الصافّات[٤]: ﴿رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَمَابَيْنَهُما وَرَبُّ المشارِقِ﴾.

فانّ تعدّد المشارق والمغارب ملازم لعدم سطحيّة الأرْض؛ إذ لو كانت الأرض مسطّحة كما هو مُقتضى الهيئة القديمة يكون المشرق والمغرب واحداً لجميع الدنيا في جميع الأيام والفصول، فحملها ـ كما عن تفسير

(١) كذا، والصحيح: ومنها...
(٢) الاعراف: ١٣٧.
(٣) المعارج: ٤٠ .
(٤) الصافات: ٥.

القُرطبي(١) ـ على تعدّد المشارق والمغارب باعتبار الفصول، لا يتمّ بناءً على سطحيّة الأرض، وقد وردت روايات عن طلاّب القرآن والثَّقَل الثاني الذي أُمِرنا بالتمسُّك به ظاهرها ـ أيضاً ـ تعدّد المشارق والمغارب الملازم لعدم سطحّية الأرض، منها قول الإمام عليه السلام للسائل حينما سأله عن الوقت، فقال: ((**إنّما عليك مشرقك ومغربك**)).(٢)

٦ـ قوله تعالى في سورة الزُّخرف(٣): **﴿يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِين﴾**:

فإنّ هذه الآية المباركة ظاهرها أنّ هناك شرقين البعدُ بينهما هو أطول مسافة محسوسة، وليس هو إلاّ البعد بين مشرق العالم القديم ومشرق أمريكا المسماة بالعالم الجديد، فدلّت هذه الآية المباركة على وجود أمريكا قبل أن تستكشف بألف سنة، وحملها على أنّ المراد المسافة بين مشرق الشمس ومشرق القمر ضعيف؛ لأنّ المسافة بينهما وإن كانت كبيرة، إلاّ أنها ليست محسوسة، فلا يمكن أن تحمل الآية المباركة عليها.

٧ـ قوله تعالى في سورة الحج:(٤) **﴿فَإذا أَنْزَلْنا عَلَيْها الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهيج﴾**:

فإنّ هذه الآية المباركة قد دلّت على كيفيّة تأثير الماء في الأرض لأجل إنباتها، الأمر الذي لم يكن معروفاً في تلك الأيّام، لا في مكّة فقط،

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٥: ٦٤.

(٢) البيان: ٨٩.

(٣) الزُّخرف: ٣٨.

(٤) الحجّ: ٥.

بل في أرقى بلاد العالم القديم ـ أيضاً ـ وعن طريق العالم الحديث أمكننا أن نفهم حقيقة هذه الآية المباركة، وأنّ الأرض إذا أصابها الماء تحرّكت، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿اهْتَزَّتْ﴾، وزاد حجمها ـ أيضاً ـ وهو المراد بقوله: ﴿وَرَبَتْ﴾، ثم تُنبت بعد ذلك، وقد أصبح من الميسور علمياً في العصر الحاضر قياس حركة الأرض حين يصيبها الماء ومعرفة الزيادة في حجمها.

٨ـ قوله تعالى في سورة الزمر[١]: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾:

فإنّ هذه الآية المباركة دلّت على أنّ حقيقة النوم مفارقة موقّتة للروح، وهو ما توصّل إليه العلم الحديث، ولم يكن معروفاً في تلك العصور، فكيف يمكن أن يدخل في القرآن ريب أو شكّ؟!

٩ـ قوله تعالى في سورة الحديد[٢] ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾:

فانّ ظاهر هذه الآية المباركة وجود منافع يمتاز بها الحديد عن بقيّة المعادن، ولم يكن ذلك معلوماً حين نزول الآية المباركة، وقد اكتُشف بعد نزول الآية بقرون، فالعلم اليوم يعرف للحديد خواصّ تُميّزه عن غيره، وتجعله مفضّلاً على باقي العناصرالأخرى، فهو أقواها قاطبة للشدّ والضغط، وبالرغم من ذلك فهو خفيف الوزن بالنسبة إلى سائر المعادن التي

(١) الزُّمر: ٤٢.

(٢) الحديد: ٢٥.

تقاربه في خواصّه، ويستخرج من الحديد زهر الحديد، وهو حديد خامّ مستخرج من تراب الحديد بعد إذابته، وكذلك الصاج، وهو عبارة عن ألواح رقيقة من الحديد، والصفيح هو الألواح الرقيقة من الصاج وقد طليت بالقصدير، أمّا الفولاذ فهو الحديد الذي تمّت تنقيته من الشوائب تماماً، وهو أقوى أنواع الحديد.

وقد أصبح الحديد في كلّ معالم الصناعة أساسًها، وهكذا في كلّ ما يستعمل الإنسان، فتصنع منه القاطرة وعرباتها وآلاتها، وتصنع منه الأشياء الدقيقة ـ أيضاً ـ كأسلاك البرق والدبّوس، وهو من أفيد الأشياء حال الحرب والسلم.

١٠ـ قوله تعالى في سورة مريم:[١] **﴿يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أبوكِ امْرأَ سَوْءٍ وَما كانَتْ أُمّكِ بَغِيّاً﴾**:

فإنّ ظاهر هذه الآية أنّ قانون وراثة الأخلاق يشمل جهة الأمّ، كما يشمل جهة الأب، وقد كان هذا خلاف المعروف بين علماء الوراثة السابقين، فإنّ المعروف لديهم كان هو اختصاص وراثة الأخلاق بجهة الأب، ولكن علم الوراثة أخيراً خطّأ هذه النظريّة، وأوضح أنّ الأخلاق كما تنتقل من جهة الأب، كذلك من جهة الأم أيضاً.

١١ـ قوله تعالى في سورة الشورى[٢]: **﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُكُورَ﴾**:

---

(١) مريم: ٢٨.

(٢) الشورى: ٤٩.

فإنّ ظاهر هذه الآية ـ على [ما][1] قيل ـ يعيّن حقيقة الجنين، وأنه ذكر أو أُنثى، وقد اعترف الأطبّاء أخيراً بعجزهم عن التعيين.

١٢ـ قوله تعالى في سورة النازعات:[2] ﴿**وَالأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها * أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَمَرْعاها * وَالْجِبالَ أَرْساها**﴾:

فإنّ اللّه تعالى ذكر في هذه الآيات كيفية خلقة الأرض، ولم يكن العلم قد توصّل إلى الكيفية المذكورة، فلم يكنْ يمكن فهم معنى هذه الآيات المباركة، حتى اكتشف العلماء أنّ الأرض لما انفصلت عن الشمس كانت مُحاطة بأبخرة من جميع جهاتها، فأُنزلت الأمطار والسيول، فتبخّرت الأبخرة، وسبّبت الأمطار المراعي في الأرض، أمّا السيول فأوجبت هبوط بعض أجزاء الأرض عن بعضها، فكانت المنخفضة هي الوديان، والمرتفعة هي الجبال، ولو لم يكن القرآن من اللّه لما أمكن التوصُّل إلى هذه الأُمور في عصر نزول الآيات من أكثر الناس دراسة واطّلاعاً، وأرقاهم مجتمعاً وبيئة، فضلاً عن أُمّيّ في بلد جاهل قاحل كالحجاز ومكّة.

١٣ـ قوله تعالى في سورة الأنبياء:[3] ﴿**أَوَ لَمْ يَرَ الَّذينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالأَرْضَ كَانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَجَعَلْنا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنون**﴾:

فقد دلّت هذه الآية المباركة على أنّ السماوات والأرض كانتا شيئاً

---

(١) إضافة يقتضيها السياق.

(٢) النازعات: ٣٠ ـ ٣٢.

(٣) الأنبياء: ٣٠.

واحداً مُتَّصلاً، ثمّ انْفصلتا، وهو مالم يكن قد اكتشفه العلم سابقاً، ولم يكن يمكن للنبيّ معرفته إن لم يكن القرآن من اللّه، فإنّ العلم الحديث أثبت أنّ الأرض كانت جزءاً من السماء، ثم انفصلت عنها.

كما أنّ ما في ذيل هذه الآية المباركة من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ من أدلّة إعجاز القرآن؛ إذ لم يكن معروفاً سابقاً حتى اكتشف أخيراً بفضل التحليل العلمي أنّ في كلّ شيء نسبة معيّنة من الرطوبة تتراوح بين(٩٥) في المائة، كما في الخضر والنباتات، وتتناقص إلى أجزاء من الماء، كما في المواد الصلبة.

وهكذا أثبت العلم قول القرآن عن إسكان الماء في الأرض، كما جاء في سورة «المؤمنون»[1]: ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ في الأرضِ﴾ وقد كشف العلم عن وجود الماء في كلّ شيء حتّى في الأحجار، وهو ما أخبر به اللّه تعالى في سورة البقرة[2]: ﴿وإنَّ مِنَ الحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ منه الأنهارُ وإنّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الماءُ﴾.

١٤ـ قوله تعالى في سورة فُصّلت[3]: ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلأرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتا أَتَيْنا طائِعينَ﴾.

فإنّ هذه الآية المباركة تُخبر أنّ السماء كانت في بدء خلق الكون دُخاناً، وقد ثبت عند علماء الأرض المتأخّرين أنها كانت غازاً مثل الدخان،

---

(١) المؤمنون: ١٨.

(٢) البقرة: ٧٤.

(٣) فُصّلت: ١١.

وقد سبق القرآن إلى ذلك قبل ألف عام، وهذا السبق العظيم من أدلّة إعجازه.

١٥ـ قوله تعالى في سورة يس[1]: **﴿والشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْديرُ العَزيزِ العَليمِ * وَالقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتّى عادَ كَالعُرْجُونِ القَديمِ * لا الشَّمْسُ يَنْبَغي لَها أنْ تُدْرِكَ القَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحون﴾**:

فإنَّ هذه الآيات المباركة تدّل على أنّ الشمس تجري إلى حدّ معيَّن، وتشير إلى حركة الشمس والقمر معاً، وذلك ما أثبته العلم الحديث إذ كشف عن أنّ الشمس تتحرّك مع مجموعتها بسرعة(١٩) كيلومتر في الثانية في اتّجاه نقطة معينة.

١٦ـ قوله تعالى في سورة الأنعام[2]: **﴿فَمَنْ يُرِدِ اللّهُ أنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أنْ يُضِلَّهُ يَجعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كأنَّما يَصَّعَّدُ في السَّماءِ﴾**:

فإنّ المراد بالسماء ـ واللّه العالم ـ هو العلوّ، والذي يُستفاد من الآية المباركة بناء على ذلك هو نقص الأوكسجين في المناطق المرتفعة، فلذا يكون صدره ضيّقاً حَرَجاً، وقد أصبح هذا محسوساً في العصر الحديث الذي تمكّن فيه الإنسان من الارتفاع، وهذا من دلائل إعجاز القرآن، فكيف يكون فيه ريب؟!

---

(١) يس: ٣٨ ـ ٤٠.

(٢) الأنعام: ١٢٥.

١٧ـ قوله تعالى في أوّل سورة «إقرأ»[١]: ﴿إِقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ﴾:

فإنّ هذه الآية المباركة قد أشارت قبل أربعةَ عشرَ قرناً تقريباً إلى ما أثبته العلم الحديث من أنّ مَنيَّ الإنسان ما هو إلاّ سائل يحوي حيوانات صغيرة لاترى بالعين المجرّدة، وإنّما تُرى بالمكرسكوب، وكل حيوان منها له رأس ورقبة وذيل يُشبه في شكله دودة العلق في شكلها ورسمها.

١٨ـ قوله تعالى في سورة الذاريات:[٢] ﴿وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَ إِنّا لَمُوسِعُون﴾:

فقد دلت هذه الآية المباركة على تمدّد الكون وسعته، وقد وضح هذا لدى العلماء أخيراً؛ إذ لاحظ علماء الفلك على أبعد مدًى يدركه المنظار وجود علامات تدلّ على حركات السُّدُم الخارجيّة حركات نظاميّة، واستدلّوا بذلك على أنّ جميع السُّدُم الخارجية أو الجزر الكونية تبدو وكأنها تتباعد عن مجموعتنا الشمسيّة، بل انها تتباعد بعضها عن بعض، فما أعظم قوله تعالى: ﴿وإنّا لَمُوسِعون﴾.

١٩ـ الآيات الدالّة على وجود أحياء في السماء:

منها: قوله تعالى في سورة الشورى:[٣] ﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ

---

(١) العلق: ١ ـ ٢.

(٢) الذاريات: ٤٧.

(٣) الشورى: ٢٩.

وَالأَرْضِ وَما بَثَّ فيهِما مِنْ دابّةٍ﴾.

ومنها: قوله تعالى في سورة مريم:[١] ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ في السَّماواتِ وَالأَرْضِ إلاّ آتي الرَّحمنِ عَبْداً﴾.

فقد أثبتت هاتان الآيتان وجود أحياء في السماء في وقت لم يكن هناك من يحتمل ذلك، وقد ثبت في البحوث الحديثة أنّ على سطح المرّيخ وفي جوّه حرارة وماء واكسجيناً، وهي الشروط الثلاثة اللازمة للحياة، وقد أيّدت المباحث القائمة على التصوير الضوئي والإرصاد بالعين المجرّدة أنّ الأحوال اللازمة للحياة لا تختلف كثيراً في جوّ المِرّيخ عنها في الأَرْض، وأنّ العلماء الأمريكيين والسوفيات متّفقون على نظريّة وجود أحياء في المريخ.

٢٠ـ قوله تعالى في سورة الذاريات:[٢] ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ﴾:

وظاهر هذه الآية الكريمة أنّ الزوجيّة غير مقتصرة على الحيوان والنبات، بل تشمل جميع الأشياء، وهذا ما أثبته العلم الحديث، فهو يعرف الآن أنّ الكهرباء يتولّد من سالب وموجب، وباتّحادهما يتولّد التيّار الكهربائي، بل وحتى الذرّة التي هي أصغر الأشياء حجماً تحتوي قلباً صغيراً يسمّى النواة الذرّيّة، يحيط بها عدد من الجُسيمات الخفيفة جداً المسمّاة بالالكترونات، والنواة تحمل شحنة كهربائية موجبة،

---

(١) مريم: ٩٣.

(٢) الذاريات: ٤٩.

والالكترونات تحمل شحنة كهربائية سالبة، وقد اكتشف العلماء النواة الذرّيّة نفسها مُؤلّفة ـ أيضاً ـ من أجزاء أصغر، ووجدوا أنها مؤلّفة من وحدتين أساسيّتين:

إحداهما نواة ذرّة الهيدروجين، وقد أطلق عليها العلماء اسم البروتون.

والأخرى الوحدة التي اكتشفها العالم الطبيعي الانجليزي السيد «جيمس شادويك» واسمها «النيوترون».

٢١ـ قوله تعالى في سورة النور:[1] **﴿أَلَم تَرَ أنّ اللّهَ يُزْجِي سَحاباً ثُمَّ يُؤلِّفُ بَيْنَهُ ثُمّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خلالِه﴾**:

فإنه تعالى أشار في قوله **﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾** إلى أن السحاب مُكهرب، كما اكتشف ذلك «ونكلين» في عام(١٧٥٢) ميلادي، ومن المعلوم أنّ القوّة الكهربائية تؤلّف من سالب و موجب، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً.

٢٢ـ قوله تعالى في سورة الأنعام:[2] **﴿وَما مِنْ دابّةٍ في الْأرْضِ وَلاَطَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلاّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا في الكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إلى رَبِّهِمْ يُحْشَرونَ﴾**:

وَصَف اللّه تبارك وتعالى جماعة من الحيوان والطير بالأمم، وقد اعترف العلم حديثاً بأنّ جماعات الحيوان أُمم يربط آحادها رباط اجتماعي وثيق العُرى، وإنّ منها ما تعيش على صورة ممالك، كالنمل والنحل وغيرها، وإنّ لكلّ جماعة لغة يتفاهم آحادها بها، فاكتشاف القرآن ذلك دليل على

---

(١) النور: ٤٣.

(٢) الانعام: ٣٨.

صدوره من اللّه، فكيف يكون فيه ريب؟!

٢٣ـ قوله تعالى في سورة الزمر:[١] ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذٰلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾:

ففي هذه الآية الكريمة مُعجزة علميّة للقرآن، فقد أخبر أنّ الجنين له ثلاثة أغشية أسماها ظلمات، وهي الآن يطلق عليها أسماء: الغشاء المنباري، والخربون، والغشاء اللفائفي، والجدير بالذكر أنّ هذه الأغشية لاتظهر إلاّ بالتشريح الدقيق؛ لأنها تبدو للعين المجرّدة كأنها غشاء واحد، وهذا من آيات إعجاز القرآن، فكيف يكون فيه ريب؟!

هذه(٢٣) آية اقتصرنا عليها من آيات كثيرة كلّها تدلّ على عجائب الكون والخلْقة ممّا لم يكن من الممكن في عصر نزول القرآن معرفة ما فيها لأرقى مثقّف في أرقى المدن ثقافة وتعليماً، فكيف يمكن أن تصدر تلك الآيات من النبيّ الأمّيّ في بلد جاهل فقير ـ كمكّة المكرّمة ـ لو لم يكن من اللّه تبارك وتعالى؟!

وقد ذكر حضرة الأستاذ الجليل «أحمد أمين» في كتابه «التكامل في الإسلام» ـ الجزء الثالث ـ : (أنّ في القرآن الكريم «٧٥٠» آية كونية هي عصارة ما توصّل إليه العلم الحديث، وأنها معجزة خالدة ما بعدها معجزة؛ كلّ ذلك لكي يعتبر الإنسان بهذا الكتاب السماوي، ويعلم أنه منزّل من ربّه)[٢] انتهى.

---

(١) الزمر: ٦.

(٢) التكامل في الاسلام ٣: ٢٢.

فهل بعد هذا كلّه يمكن الريب فيه، أو يدخله الشكّ، وقد اعترف باشتمال القرآن على كثير من العلوم الطبيعية بعض علماء الغرب:

فهذا «أو بيتو نبورث» يقول: يجب أن نعترف أنّ العلوم الطبيعيّة والفلك والفلسفة مُقتَبسة من القرآن، فجميع العلماء مدينون له.

وقال آخر: إنّ العلوم كلّ يوم في تغيرٌ وتبدُّل، وفي كلّ لحظة تظهر معانٍ باهرة لآيات قرآنية ما كنّا لنفهم(١) معناها، لولا تقدّم العلوم.

والدكتور «جرينه» المسلم الفرنسي الشهير الذي كان عضواً في مجلس النوّاب، قال ـ حينما سُئل عن سبب دخوله في الإسلام ـ: تتبّعتُ كلّ الآيات القرآنية التي لها ارتباط بالعلوم الطبيعيّة والصحّيّة والطبيّة، فوجدتُها مُنْطبقةً كلّ الانطباق [على](٢) معارفنا الحديثة، فأسلمتُ؛ لأني تيقَّنْتُ أنَّ محمداً أتى بالحقّ الصَّراح من قبل ألف سنة، من غير أن يكون له مدرّس من البشر، ولو أنّ صاحب كلّ فنّ من الفنون أو علم من العلوم قارن كلّ الآيات القرآنية المرتبطة بما يعلمه حسيّاً ـ كما قارنتُ أنا ـ لأسلم دون ريب إن كان عالماً خالياً عن الأغراض.

فهل بعد ذلك في القرآن ريب أو إشكال؟! وكيف يقع في القرآن ريب وقد اشتمل على كثير من الحكم والنصائح والآداب؛ ممّا لايمكن أن تصدر من إنسان يعيش في تلك البلاد القاحلة الجاهلة، ولم يتعلم حتّى القراءة والكتابة؟!

---

(١) في الأصل: (تنفهم ...)، والصحيح ما أثبتناه.

(٢) في الأصل: مع ...

[اشتمال القرآن على النظام الأصلح]:

وكيف يكون في القرآن ريب، أو يدخله شكّ، وقد اشتمل على النظام التامّ الكامل الذي لا تسعد الأمّة إلاّ به؟! فنظامه أسمى نظام، وقانونه أعدل قانون، يوجب إصلاح البشر في كلّ زمان ومكان، وما ارتفعت الأمة الاسلاميّة في صدر الإسلام إلاّ باتّباعها القرآن واقتدائها به، فقد أصبحت لذلك في ربع قرن أعظم دولة تكتسح حضارات الكفر في بلاد كسرى وقيصر، وما ضُربت عليهم الذلّة حتى أصبحوا أُلعوبة بيد الأجانب، إلاّ لأجل إهمالهم القرآن، وإخراجهم له من الحياة، وأخذ أنظمتهم وقوانينهم من العقول الناقصة، فبلغوا من الذلّ والهوان أن أسّس الكُفّار دولة لشُذّاذ من الآفاق في وسط بلادهم.

ولقد اعترف كثير من الأجانب بسموّ نظام القرآن وامتيازه، فهذا «ادموند بورك» الخطيب السياسي الإنكليزي يقول: القانون المحمّدي «القرآن» قانون ضابط للجميع؛ من الملِكِ إلى أقلّ رعاياه، وهو قانون نُسج بأحكم[1] نظام قضائيّ، وأعظم قضاء علميّ وتشريع لامعٍ، ما وجد قطّ مثله في هذا العالم من قبل.

وهذا الأستاذ «سنايس» يقول: إنّ القرآن هو القانون العامّ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو صالح لكلّ زمان ومكان فلو تمسّك به المسلمون حقّاً، وعملوا بموجب تعاليمه وأحكامه، لأصبحوا سادة الأمم كما كانوا.

---

(١) كذا، والأقوم في العبارة: نَسَجَ أُحكمَ ...

وقال «جبون» عن القرآن بأنه الدستور الأساسي ليس لأصول الدين فقط، بل للأحكام الجنائية والمدنية والشرائع التي عليها مدار نظام حياة النوع الإنساني وتدبير شؤونه.

وقال «داورالو هارت» ـ في أثناء كلامه عن النبيّ صلّى اللّه عليه وآله ـ: وأبقى لهم دستوراً لن يضلّوا بعده أبداً، وهو القرآن الجامع لمصالح دنياهم ولخير أُخراهم.

وقال الدكتور «شبلي شميل»: إنّ القرآن هو أحكم الشرائع التي يتّبعها البشر.

ومن المؤسف جدّاً أنّ الأجانب يعترفون بعظمة القرآن وسموّ نظامه، ويُعرض عنه المسلمون، ولا يهتدون بهداه، ولا يرتضون ما ارتضاه اللّه لهم، ولا يعتبرون بسعادة آبائهم حين اتّباعهم له، وبشقائهم حينما أعرضوا عنه، وهل يمكن لعاقل أن يرتاب فيه؟!

[هل يتعارض العلمُ والقرآن؟]:

نعم يتوهم بعض من عميت بصيرته أنّ بعض الآيات تدلّ على معانٍ ثبت علميّاً بطلانها، فكيف يمكن التصديق بأنها من اللّه تبارك وتعالى، وقد يستشهد لذلك بعدة آيات:

منها: قوله تعالى في سورة الفلق:[1] **﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفّاثاتِ فِي الْعُقَدِ﴾**:

فإنّ ظاهر الآية المباركة هو الاعتراف بوجود السحر، وأنّ ما تعمله الساحرات من النفث بالعُقد له أثر واقعي، مع أنه ثبتَ في العلم الحديث

(١) الفلق: ٤.

بطلان السحر وعدم تأثيره.

ولا يخفى تفاهة هذا الإشكال وضعف الشبهة؛ إذ يرد عليها لأجل عدم وصوله إليه:

أوّلاً: أنّ العلم لم يصل حتّى الآن إلى كثير من الأمور، وعدم إدراك العلم لشيء لا يدلّ على عدم صحّته، وإذا ثبت أنّ ظاهر الآية المباركة هو وجود السحر وتأثيره، فلابدّ من الاعتماد عليها وإن أنكره العلم.

فكم كان العلم يُنكر أُموراً كثيرة كانت مذكورة في القرآن، كحركة الأرض وعدم كونها مسطّحة، حتّى توصّل أخيراً إليها، وظهر أنّ الحقّ ما هو في القرآن الكريم، فلا يمكن الطعن في القرآن الكريم، أو رفع اليد عن ظاهر آية من آياته المباركة، لمجرّد عدم إدراك العلم لمعناها، فإنّ القرآن قطعيّ الصدور من اللّه تبارك وتعالى، والمباحث العلمية قد بُنيت جميعها على أُمور ظنّية قابلة للنقض والإبرام.

وثانياً: انه ليس في الآية المباركة تصريح بتأثير السحر؛ لأنّ «النفّاثات في العقد» يُتعوذ من شرّهنّ، سواء كان سحرهن مؤثّراً، أم لم يكن:

أمّا مع التأثير فواضح.

وأمّا مع عدمه فلأنها سبب لخديعة الناس وأخذ أموالهم، بل التأثير عليهم أحياناً بالإيحاء النفسي، الذي يجعلهم يتصوّرون وجود التأثير الخارجي، وكثير من أطبّاء علم النفس إنما يعالجون في هذه السنين الأخيرة بالإيحاء النفسي، فالنفّاثات إذن بالإيحاء النفسي مصدر شرّ على كلا التقديرين، فيصحّ التعوّذ منهنّ دون أن يتوقّف ذلك على الاعتقاد بتأثيرهنّ موضوعياً.

والآية الثانية: التي توهّم البعض تعارضها مع العلم الحديث هي قوله تبارك وتعالى في سورة يوسف:[1] ﴿**فَلَمّا أنْ جاءَ الْبَشيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصيراً**﴾ بدعوى أنّ العلم الحديث يحكم باستحالة عود البصر بعد العمى بمجرّد وضع الثوب.

ولايخفى أنّ هذا الإشكال كما هو ناشئ من الجهل بالقرآن وعظمته وحقيقته، كذلك هو ناشئ ـ أيضاً ـ عن الجهل بالعلم الحديث وتطوّره واكتشافاته؛ إذ ثبت علمياً أنّ من أسباب العمى هو الضغط، وأنّ الضغط قد حصل من الحزن والتأثّر، ويعود البصر بمجرّد هبوط الضغط، ومن أهمّ أسباب الهبوط هو ارتفاع سببه، وهو الحزن والتأثّر، فلمّا أُلقي الثوب على وجه يعقوب عليه السلام، وتيقّن بسلامةِ ولده وقُرْبِ رجوعه، أَنِسَ قلبه، وارتفع حزنه، فهبط ضغطه، فرجع إليه بصره، فلا مجال لأيّ اعتراض على الآية من الناحية العلميّة.

وهذه الآية المباركة من الآيات التي لم يكن العلم قد توصّل إلى معناها إلى عهد قريب، فهي من أدلّة إعجاز القرآن، وذلك إذ كيف يمكن للنبيّ صلّى اللّه عليه وآله أن يتوصّل إلى ذلك لو لم يكن القرآن من اللّه العزيز العظيم.

ثالث الآيات: قوله تبارك وتعالى ﴿**الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ فِراشاً**﴾[2]، فإنّ هذه الاية المباركة تدلّ على أنّ الأرض مسطّحة، وهذا ما أبطله العلم،

---

(١) يوسف: ٩٦.

(٢) البقرة: ٢٢.

بل أصبح عدمه من البديهيّات، ومثل هذه الآية في ذلك قوله تعالى في سورة نوح[١] ﴿جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً﴾.

والجواب: أنّ هاتين الآيتين وإن استدلّ بهما أبو علي الجبائي[٢] على إبطال القول بكرويّة الأرض، غير أنّ الحقّ أنهما لا تدلاّن على ذلك، كما أشار إليه سيّد الطائفة الشريف المرتضى[٣] طاب ثراه" لأنّ الآيتين المباركتين في مقام بيان نِعَم اللّه على العبيد، وأنه جعل لهم الأرض على نحوٍ يستفيدون منها، وينتفعون بها؛ إذ جعل سطحها كالبساط والفراش، ومن المعلوم أنّ هذا لا ينافي القول بكرويّة الأرض؛ لأن القائل بالكرويّة لا يمنع ذلك أيضاً.

رابع الآيات: التي تُوهِّم أنّ مدلولها لايتّفق مع العلم الحديث قوله تبارك وتعالى في سورة الأعراف[٤]: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنا﴾.

ووجه التعارض المزعوم: أنّ الآية المباركة ظاهرة في أخذ ذُرّيّة بني آدم من ظهورهم، مع أن الثابت علمياً أنّ محلّ ماء الرجل هي الخصية، وهي في الجزء الأسفل من الجذع، لا في الظهر.

والجواب: أنّ اللّه تبارك وتعالى يتكلّم في هذه الآية المباركة عن مبدأ نشأة الإنسان، ولقد ثبت علمياً في علم الأجنّة، إن الجزء الذي يخصص

(١) نوح: ١٩.

(٢) التبيان في تفسير القرآن ١: ١٠٢.

(٣) رسائل الشريف المرتضى ٣: ١٤١.

(٤) الاعراف: ١٧٢.

للنطفة في جسم الجنين عند اسفل الكّليتين تماماً، وتنمو الأعضاء التي تكوّن الخصيتين، وتبقى في الظهر تحت الكُليتين حتى الأشهر الأخيرة من حياة الجنين في بطن أُمّه ثمّ تنحدر إلى الأسفل وعند الولادة تكون في مركزها الطبيعي المعتاد.

فالآية الكريمة تشير إلى النقطة الأصليّة في جسم الجنين التي تؤخذ منها النطفة، وهي الظهر بلاشك، ولمّا كان علم تشريح الجنين لم يتقدم إلاّ في المائة سنة الأخيرة، فإنّ هذه الآية تعدّ في حكم المعجزات، وتثبت أنّ القرآن لا يأتيه الباطل؛ إذ لم يكن يمكن للنبيّ صلّى اللّه عليه وآله أن يتوصّل إلى هذا لو لم يكن القرآن من اللّه، فكيف يدخله الشكّ أو الريب؟!

هذا تمام الكلام في تفسير نفي الريب في قوله تعالى: ﴿لا رَيْبَ فِيه﴾.

[في تفسير قوله تعالى: ﴿هدىً للمتقين﴾]:

ولننتقل الآن إلى قوله تعالى في نهاية الآية المباركة ﴿هُدىً لِلْمُتَّقين﴾:

إنّ معنى كون القرآن هُدًى للمتّقين أنه مرشد للمتّقين إلى الطريق السويّ ودالّ عليه.

[الأقوال في معنى «الهُدى»]

وعن الكشّاف:[1] أنَّ الهدى: هو الدلالة الموصلة إلى البُغية.

وقال الفخر الرازي:[2] إنّ الهدى: مطلق الدلالة، أوصلت أم لم توصل.

---

(١) الكشّاف ١: ٣٥.

(٢) التفسير الكبير ٢: ١٩.

وقال ثالث:[١] إن الهدى: هو الاهتداء والعلم.

والظاهر هو القول الأوّل، كما تشهد له نفس الآية الكريمة؛ لأنّ الهدى لو كان يشمل الدلالة الموصلة وغير الموصلة، لما اختصّ بالمتّقين؛ لأنّ الدلالة ثابتة في حقّهم جميعاً، مع أنّ الهداية في الآية أُضيفت إلى المتّقين خاصّة، فيعلم أنّ ذلك باعتبار اختصاص الدلالة الموصلة بهم، فإنّ امتياز المتّقين على غيرهم هو أنّ الكتاب الكريم أوصلهم إلى الصراط المستقيم، دون غيرهم.

والذي يشهد لما ذكرناه: أنّ الشخص إذا حاول هداية ولديه ـ مثلاً ـ فنجح في هداية الأكبر منهما دون الأصغر، صحّ أن يقال عُرفاً: إنّ الأب هدى ولده الأكبر، ولم يهدِ ولده الآخر، مع أنه سعى لهدايتهما معاً.

واستعمال اللفظ في موارد عدم حصول الاهتداء وإن كان صحيحاً، إلاّ أنه على نحو المجاز لا الحقيقة، كما يكشف عن ذلك صحّة السلب التي أشرنا إليها. ويشهد لما ذكرنا ـ أيضاً ـ ما ذكره الزمخشري:[٢] من أنّ «اهتدى» مطاوع «هدى» يقال: هديته فاهتدى، كما يقال: كسرته فانكسر، وقطعته فانقطع، فكما أنّ الانكسار والانقطاع لازمان للكسر والقطع وجب ان يكون الاهتداء من لوازم الهدى.

ولقد أجاب عن هذا الوجه الفخر الرازي[٣] بالنقض، فقال: إنّ الائتمار

(١) التفسير الكبير ٢ : ١٩ .

(٢) الكشاف ١: ٣٥.

(٣) التفسير الكبير ٢ : ٢٠ .

مطاوع الأمر يقال: أمرته فأتمر، ولا يلزم منه ان يكون شرطُ كون الشخصِ آمراً حصولَ الائتمار، فكذا هذا لا يلزم من كونه هادياً أن يكون مُفضياً إلى الاهتداء.

ولايخفى الفرق بين المقامين؛ فإنّ الأمر لابدّ وأن ينتج كون الآخر مأموراً، وأمّا كونه مُؤتمراً، فهذا موقوف على اختيار المأمور ذلك، وليس هو من لوازم الأمر. وهذا بخلاف الاهتداء فإنّ الهدى لا يتحقّق مفهومه بلا مهديّ، والأمر وإن توقّف مفهومه على وجود مأمور، إلاّ أنه غير موقوف على وجود مؤتَمِر.

وأما القول الثالث فلا إشكال في منافاته لمعنى المهديّ[1] لغة؛ لأن الاهتداء والعلم بالمهديّ إليه من لوازم الاهتداء، ويترتّب عليه، لا أنه داخل في معناه.

وهناك نزاع آخر في المقام: وهو أنّ معنى الاهتداء هل هو مجرّد الإراءة أو إيصال الهدى[2] إلى المهديّ إليه ولا أثر لهذا النزاع في المقام؛ لأنّ المهديّ إليه في المقام هو الطريق، و إراءته هو عين الإيصال اليه.

[مناقشات حول قوله تعالى: ﴿هُدىً لِلمُتَّقِينَ﴾]:

وهنا ينبغي التعرُّض لبعض الأسئلة التي قد تخطر بالذهن:

السؤال الأوّل: أنه مَن هم المتّقون؟

السؤال الثاني: انه لماذا اختصّت الهداية بالمتّقين مع أنّ القرآن أُرسل

(١) كذا، والمناسب هنا: الهُدى.

(٢) كذا، والمناسب هنا: المهديّ.

لهداية جميع البشر، كما قال اللّه تبارك وتعالى في سورة سبأ[1]: ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلاّ كافَّةً لِلنّاسِ بَشيراً وَنَذيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمون﴾، وقال تعالى في سورة الأنبياء:[2] ﴿وَمَا أَرْسَلْناكَ إِلاّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾، فإذا كانت نبوّته عامّة فلا بدّ وأن يكون قرآنه هادياً لجميع البشر، فلماذا اختصّت هدايته بالمتّقين؟

والجواب: أنّ المتّقين هم الذين اتّصفوا بالتقوى.

والتقوى في اللغة: هي الصيانة، وفي الاصطلاح: صيانة النفس عن العذاب باتّباع العقيدة الحقّة وإطاعة أوامر اللّه وترك معصيته.

ولمّا كانت النفس لا يمكن أن تُصان من العذاب إلاّ بالاقتداء بالقرآن والاهتداء بهداه، فلا بدّ للمتّقين من الاهتداء بالقرآن، فالقرآن وإن أُرسل لهداية جميع البشر، إلاّ أنّ من يهتدي به خصوص المتّقين الذين يخشون، ويريدون أن يقوا أنفسهم من عذابه، وهم يعلمون أنّ ذلك لايحصل إلاّ باتّباع أمر اللّه، وأنّ مخالفة أيّ أمر من أوامر اللّه وارتكاب أيّ فعل ممّا نهى اللّه عنه يوقع الإنسان في البلاء والعذاب، ويفقده سعادته في الدارين.

أمّا غير المتّقي فهو مُقبل على لهوه ولعبه ولذّاته وشهواته الحيوانيّة، وقد عَمَت بصيرته، فهو لا يهتمّ بالقرآن، ولا بتعاليمه ولا بآدابه وأحكامه، فلا يهتدي بالقرآن، ولا يستنير بأنواره، فالقرآن وإن أُرسل لهداية جميع البشر، إلاّ أنّ المهتدين به خصوصُ المتّقين.

---

(١) سبأ: ٢٨.

(٢) الانبياء: ١٠٧.

وهذه الآية نظير قوله تبارك وتعالى في سورة المائدة:[1] ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾؛ إذْ لا إشكال أنّ القرآن أُنزل لهداية جميع البشر، ولكن من يهتدي به هو خصوص من اتّبع رضوان اللّه.

السؤال الثالث: أنّ المتّقي مُهتدٍ، والمهتدي لا يهتدي ثانياً، فكيف يوصَف القرآن بكونه هُدىً للمتّقين؟

والجواب: أنّ المتّقي هو من يريد أن يقي نفسه من العذاب، فهو مهتدٍ؛ بمعنى أنه قد هُدي إلى لزوم وقاية نفسه، وأمّا كيفيّة وقاية نفسه، فهذا ما يهديه القرآن إليه.

السؤال الرابع: كيف وصف القرآن كلّه بأنه هدىً، مع أنّ فيه مجملاً ومُتشابِهاً؟

والجواب: أنّ القرآن كلّه هدىً حتى المجمل منه والمتشابه. نعم، لا يمكن الاهتداء بمجمله ومتشابهه إلاّ بعد معرفة معناه؛ بأن يفسَّر: إمّا بآية مباركة، أو رواية معتبرة، أو حصر عقلي؛ بأن يدور أمره بين معنيين يُقطع بعدم إرادة أحدهما، فيتعيّن الآخر.

السؤال الخامس: الهدى هو الذي بلغ في البيان والوضوح إلى درجة بحيث يكون بيِّناً لغيره، والقرآن ليس كذلك؛ لاختلاف المفسِّرين فيه.

والجواب: أنّ القرآن على أقسام: إمّا نصّ، وإمّا ظاهر، وإمّا مجمل. والأوّل يهدي بنصوصيته، والثاني بظاهره، والثالث بمعناه الواقعي؛ ببركة

---

(١) المائدة: ١٥ - ١٦.

ما ورد في تفسيره.

السؤال السادس: كلّ ما يتوقّف صحّة كون القرآن حجّة على صحّته، لا يكون القرآن هدىً إليه، فاستحال إذن كون القرآن هدىً إلى معرفة ذات[1] اللّه تعالى وصفاته ومعرفة النبوّة، ولا شكّ أنّ هذه المطالب أشرف المطالب، فإذا لم يكن القرآن هدىً إليها، فكيف جعله اللّه هدىً على الإطلاق؟

ونجيب عن هذا السؤال بأمرين:

أوّلهما: أنّ وصف القرآن بكونه هدىً ليس معناه أنه هدىً في جميع الأمور، بل يكفي في صحّة الوصف المزبور كونه هدىً في الجملة، أو لخصوص المتّقي؛ فانّ الذي يريد أن يقيَ نفسه من العذاب يكون القرآن هو الذي يهديه إلى طريقة ذلك.

وثانيهما: أنّ القرآن إن ثبت بإعجازه عدم كونه من صُنع البشر، وأنه من صُنع قوّة عالية غيبيّة، يكون حجّة في جميع الأمور التي ذكرها السائل:

أمّا معرفة ذات[2] اللّه: فإن كان المراد المعرفة التفصيليّة، فهي مستحيلة ولا يهدي القرآن إلى شيء مستحيل.

وإن كان المراد معرفته على سبيل الإجمال، فهذا ممّا يثبته القرآن الكريم؛ وذلك لأنه إن ثبت إعجازه ثبت أنّ هناك قوّة عالية هي التي أرسلته، ويكون القرآن ـ عندئذ ـ دليلاً على إثبات الصانع وصفاته وفقاً لما يخبر به.

و أمّا النبوّة: فإن أراد السائل نبوّة نبينا صلّى اللّه عليه و آله، فلا إشكال

---

(١) و(٢) كذا، والأقوم في العبارة حذف كلمة «ذات».

في أنّ القرآن بإعجازه و بثبوت صدوره من اللّه، يكون أعظم دليل على صحّة نبوّة نبيّنا صلّى اللّه عليه وآله، و إن أراد أصل النبوّة، فإنها ثبتت ـ أيضاً ـ بثبوت نبوّة نبيّنا، و بما يخبر به، ويستفاد منه؛ من أنّ معنى النبيّ هو الإنسان المرسل من اللّه لهداية البشر.

وإن أُريد حاجة البشر إلى نبيّ، فهو ـ أيضاً ـ يُستفاد من بعض آياته المباركة، كقوله تعالى في سورة طه:[1] ﴿**وَلَوْ أَنّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزى**﴾، وقوله تبارك وتعالى في سورة القصص:[2] ﴿**وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾، وقوله تعالى في سورة الإسراء:[3] ﴿**وَما كُنّا مُعَذِّبِينَ حَتّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾، فإنّ المستفاد من هذه الآيات أنّ إرسال الأنبياء إنّما هو لإتمام الحجّة على الناس، ويُستفاد من قوله تعالى في سورة إبراهيم:[4] ﴿**وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**﴾ أنّ غاية إرسال النبيّ هو تعليم الناس وهدايتهم.

وهنا آيات أُخرى ـ أيضاً ـ يُستفاد منها ثمرة بعثة الأنبياء، نتعرّض لها في أماكنها، وفي ما ذكرناه كفاية.

---

(١) طه: ١٣٤.

(٢) القصص: ٤٧.

(٣) الإسراء: ١٥.

(٤) إبراهيم: ٤.

﴿أَلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ * وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

إنّ اللّه تبارك وتعالى ـ بعد أن خصّ هداية القرآن بالمتّقين ـ وَصَف المتّقين بقـوله عزّ من قـائل: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمـونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِيـنَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَـــــــا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنون﴾.

ثمّ مـدح المتّقين بـقـوله تعـالى: ﴿أُولئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

والمستفاد من هذه الآيات المباركة هو وصف المتّقين بأوصاف خمسة:

١ـ الإيمان بالغيب.

٢ـ إقامة الصلاة.

٣ـ الإنفاق ممّا رزقهم.

٤ـ الإيمان بما أنزله اللّه على نبيّنا وعلى الأنبياء السابقين.

٥ـ اليقين بالآخرة.

فإنّ المتّقي هوالذي يجمع بين العقيدة والواجبات بقسميها: ماليّة، وعباديّة.

ولقد أشار سبحانه وتعالى إلى العقيدة بقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، فإنّ من يؤمن بما لا يُحسّ بالحواسّ الخمسة إذا قام عليه البرهان العقليّ أو

الشرعيّ، لابدّ وأن يؤمن باللّه وأنبيائه وبالقرآن وبجميع ما جاء من اللّه؛ لقيام البراهين العقلية أو الشرعيّة أو هما معاً على هذه الحقائق، كما ستعرف ذلك في الأماكن المناسبة لها.

وأشار بإقامة الصلاة إلى إتيان الواجبات العباديّة. وإنّما ذكر خصوص الصلاة؛ لأنها أفضل العبادات، حتى ورد في حقّها: أنّها عمود الدين.[1]

والمراد من قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ هو العبادات الماليّة.

ثمّ أشار تعالى إلى بعض موارد الإيمان بالغيب، فقال تعالى: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، ولعلّ تخصيص هذا الفرد بالذكر للاهتمام به، أو لدفع توهُّم اختصاص الإيمان الغيبي بالإيمان بالأمور الغيبيّة في شريعتنا خاصّة، فأراد تعالى أن يوضّح أنه كما يجب الإيمان بما أُنزل إلى رسول اللّه يجب الايمان ـ أيضاً ـ بما أُنزل على الأنبياء السابقين أيضاً.

ثمّ قال عزّ من قائل: ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾؛ للتنبيه على أنّ الإيمان بيوم الآخرة لايوجب الاتّقاء من العذاب؛ لأنّ الإيمان يجتمع مع النسيان والمعصية، دون اليقين، كما ستسمع تفصيل ذلك في محلّه إن شاء اللّه.

أمّا الإيمان بالغيب: فمعناه أنهم يُصدّقون بما لم يشاهدوه، وبما غاب عنهم، وعن حواسّهم الخمسة، إذا قام عليه البرهان العقلي أو الدليل الشرعي.

وأوضح مثال لما قام عليه البرهان العقلي: هو وجود اللّه تبارك وتعالى، ومن أمثلة ما قام عليه البرهان النقلي: هو وجود صاحب الأمر مهديّ

---

(١) الوسائل ٣: ١٧/ ١٢ باب ٦ من أبواب أعداد الفرائض ونوافلها.

آل محمد، بل ستعرف أنّ البرهان العقلي قام على وجوده ـ أيضاً ـ والقرآن الكريم يؤكّد في كثير من آياته المباركة على عدم الاقتصار على الحسّ، ولزوم اتّباع سليم العقل وخالص اللُّبّ والبرهان الشرعي والدليل التعبّدي.

[قيمة الإدراكات الحسّيّة والعقليّة]:

ولقد نُسب إلى بعض الفلاسفة(١) القول بعدم جواز التعويل على غير الإدراكات الحسّية، وعدم جواز التعويل على المعاني العقليّة؛ بدعوى كثرة وقوع الخطأ والغلط فيها، بخلاف الإدراكات الحسّيّة، فإنّا إذا أدركنا شيئاً بإحدى الحواسّ الخمس، أتبعنا ذلك بالتجربة بتكرار الأمثال، ولا تزال تكرّرالتجربة، حتّى تثبت الخاصّة المطلوبة في الخارج، ولا يخفى عدم إمكان الاعتماد على الوجه المذكور لوجوه:

أوّلها: أنّ الدليل المذكور لا يستغني عن البرهان العقلي؛ لأنه مشتمل على مقدّمات عقليّة، فإن اعتمد عليها فلازم ذلك صحّة الاعتماد على جميع البراهين العقلية؛ إذ لا فرق بين هذا البرهان وسواه، وإن لم يصحّ الاعتماد على هذا البرهان ـ لعدم إمكان الاعتماد على مقدّماته العقلية ـ فلا يبقى دليل على انحصار سبب العلم بالحسّ.

ثانيها: أنّ الغلط فى البراهين العقليّة إن منع من الاعتماد عليها، فلا يصحّ أن يعتمد على الحواسّ أيضاً؛ لأنّ الغلط فيها ليس أقلّ من الغلط في العقليّات، وذلك لاختلاف الحواسّ نفسها، فالنسيج الذي نشتريه نرى لونه في الدكّان غير لونه في ضوء الشمس، والمنضدة المدوّرة تبدو لك

(١) فلسفتنا: ٦٤ ـ ٦٨.

مستديرة وأنت قريب منها، ولا تبدو كذلك إذا ابتعدت عنها، والطعام يبدو طيّباً إذا أكلته وأنت جائع، ولا تستطيبه وأنت شبعان.

وأكبر دليل على ذلك الاختلاف الكثير في موازين الجمال: فرُبّ منظر جميل بنظر واحد دون آخر، وربّ صوت يستلطفه إنسان دون غيره ورُبّ رائحة يُعجب بها بعض الناس دون بعض، وهكذا بالنسبة إلى الحرارة والبرودة، فضع إحدى يديك في ماء حارّ، والأخرى في ماء بارد، ثمّ ضعهما معاً في ماء فاتر، فيبدو هذا الماء بارداً بالنسبة لأحدى يديك ، وحارّاً بالنسبة إلى الأخرى.

فاذا كان مجرّد وقوع الخطأ في بابٍ موجباً لسدّه لانسدّ باب الحسّ أيضاً، لازم ذلك انسداد باب العلم على البشر.

ثالثها: أن العلوم الحسّيّة وإن كانت مؤيّدة بالتجربة، ولكن الاعتماد على التجربة والإيمان بها لا يكون مستنداً إلى الحسّ والتجربة، بل إنّ كشفها بحكم العقل، فإذا أمكن أن يعتمد على الدليل العقلي في المقام، أمكن في بقيّة الموارد، وإلاّ فلا تكون التجربة كاشفة عن شيء.

رابعها: أنّ الحسّ لّما كان لا ينال غير الجزئي، وإنّما يحكم العقل ـ لتكرّر التجربة ـ بعدم الفرق بين هذا الفرد وغيره، فإن أمكن الاعتماد على هذا الحكم العقلي، فلا بدّ وأن يعتمد على جميع البراهين العقليّة؛ إذ لا فرق بين هذا الحكم العقلي وسواه، وإن لم يمكن أن يعتمد على الحكم العقلي المذكور، فلا يفيد الاعتماد على الحسّ.

وتوضيح ذلك: أنّ التشريح إنّما يتمّ في بعض الأفراد، ولا يمكن التعدّي عن هذه الأفراد إلاّ بحكم العقل بعدم الفرق بين الأفراد، فإن لم يعتمد على

العقل فلا يؤثّر الحس، ولا يكون سبباً لتحصيل العلم.

خامسها: أنّ الحسّ ـ وهكذا التجربة ـ لا يمكن ان يتوصّل بكلٍّ منهما إلى حقيقة الأشياء ومادّتها، ومع الحكم بعدم الاعتماد على العقل ينسدّ باب العلم بمعرفة هذه الأمور؛ لأنّنا بالحسّ والتجربة إنّما نعرف لون الوردة ورائحتها، وإذا تذوّقناها فإنّما نحسّ بطعمها، ولا يمكن لنا بأيّ حاسّة من الحواسّ أن نُدرك مادّتها.

سادسها: أنّ الفكر لو كان محبوساً في حدود الحسّ والتجربة، لما أمكنه أن يُدرك استحالة بعض الأشياء، ولا إشكال في وجود[1] أشياء مستحيلة كاجتماع الضدّين من ليل ونهار، أو ارتفاع النقيضين من وجود وعدم.

سابعها: أنّ الفكر إذا فرضناه سجيناً في حدود الحسّ، فلا يمكنه إدراك العلّيّة، فإنه يدرك النار، ويدرك الإحراق، أما أنّ النار علّة للإحراق، فهذا ما لا سبيل للحسّ إليه، ولا يمكن معرفته إلاّ بالبرهان العقلي الحاكم: بأنّ الشيء لايصدر عن شيء آخر إلاّ إذا كان ذلك الشيء علّة له.

[الإيمان بالغيب والمهدي المنتظر عليه السلام]:

وقوله تبارك وتعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ شامل لجميع موارد الإيمان بالأمر الغير المحسوس، إذا قام عليه برهان عقلي، أو دليل شرعي.

ولا يخفى أنّ الإيمان بالغيب مقدّمة للإيمان باللّه وبالنبّوة والإمامة؛ إذمَن لايؤمن إلاّ بالمحسوسات لايؤمن بذلك.

---

(١) كذا، والأقوم في التعبير: في أنّ هناك أشياء ...

وقد ذكر الفخر الرازي:[١] أنّ بعض الشيعة قال: إنّ المراد بالغيب المهدي المنتظر، الذي وعد اللّه تعالى به في القرآن والخبر:

أمّا القرآن فقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللّهُ الّذينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصّالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرْضِ كَما اسْتَخْلَفَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[٢].

وأما الخبر فقوله عليه السلام: ((**لو لم يبقَ من الدُّنيا إلاّ يوم واحد لَطوَّل اللّه ذلك اليوم حتى يخرجَ رجلٌ من أهل بيتي يُواطئ اسمه اسمي وكنيته كنيتي يملأ الأرض عدلاً كما مُلِئتْ جَوراً وظلما**))[٣].

ثمّ قال الفخر:[٤] (و اعلم أنّ تخصيص المطلق من غير دليل باطل). انتهى.

ولا ريب أنه لا يمكن تخصيص المطلق من غير دليل، إلاّ أنّ من قال بذلك من الشيعة استند إلى دليل، وهوالخبر المرويّ عن الإمام أبي عبداللّه جعفر الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿الّذينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال: ((**مَنْ آمن بقيام المهديّ أنه حقّ**))[٥] وفي نسخة: ((**من أقرّ بقيام المهديّ**))[٦] وفي حديث آخر عنه أنه قال عليه السلام: ((**والغيب فهو الحجّة الغائب**)).[٧]

---

(١) التفسير الكبير ٢: ٢٨.

(٢) النور: ٥٥.

(٣) و (٤) التفسير الكبير ٢: ٢٨.

(٥) و (٦) البرهان في تفسير القرآن ١: ٥٣/ ح٤.

(٧) البرهان في تفسير القرآن ١: ٥٣/ ح٥.

وفي كتاب ينابيع المودّة [١] نقل: أنّ الخوارزمي في كتاب المناقب روى بسنده[٢] عن النبيّ صلّى اللّه عليه وآله: أنها نزلت في أصحاب المهديّ.

وإنّما لم تُخصّص الآية الكريمة بهذا المورد، مع أنّ ظاهر الخبرين المذكورين: أنّ المراد بالغيب خصوص الإيمان بالمهديّ عليه السلام، ولا يشمل بقيّة موارد الإيمان بالغيب؛ لوجود أخبار أسماها بعض الأعلام بأخبار الجري، وقد ذكرناها في المقدّمة،[٣] وتكرّرت الإشارة إليها، ومفاد هذه الروايات المعتبرة الواردة عن أهل بيت العصمة ـ أحد الثَّقَلين وطلاّب القرآن وحفظته وأُمناؤه ـ:

هو أنه إذا وردت رواية تقول: إنّ معنى الآية الفلانية كذا، فليس معنى ذلك اختصاص الآية بذلك المعنى وعدم شمولها لغير ذلك المورد؛ لأنّ الآية المباركة لا تختصّ بمورد خاصّ. كما مرّ تفصيل ذلك في المقدّمة.

فببركة هذه الأخبار نرفع اليد عن ظهور الأخبار السابقة في اختصاص الآية المباركة بالمهديّ عليه السلام، فيكون تفسيرها بالمهديّ: إمّا لأنه مورد نزول الآية، أو لأنه بعض مصاديقها، وإنما ذكر بالخصوص للاهتمام به، أو لإفهام الناس لزوم الاعتقاد به، والذي يُؤيّد ما ذكرنا اختلاف الأخبار في تفسيرها:

فالأخبار السابقة فسّرتها بالإيمان بالمهديّ.

---

(١) ينابيع المودة: ٤٤٣.

(٢) في الأصل: (روى سنده) والصحيح ما أثبتناه.

(٣) مرّ في مقدمة كتابنا هذا في الصفحة: ٣٧-٣٨.

وأخبار أُخرى[١] فسرّتْها بالشيعة مطلقاً

وأخبار ثالثة[٢] فسرّتها بالشيعة أيّام الغيبة.

والجمع بين الأخبـار: إنما هو بحمل جميع الأخبار السـابقة على أنّها في مقـام بيان بعض المصـاديق؛ لوضوح أنّ الإيمان بالمهـديّ من أظهر مـصاديق الإيمان بالغيب، كما أنّ الشيعـة يؤمنون بكثير من الأمور غير المحسـوسة، كوجود اللّه والوحي والآخرة، وإنّما ذكر الشيعة في خصوص حال الغيبة؛ لأنهم يؤمنون بإمـام لا يرونه، مضافاً إلى بقيـة مصاديق الإيمـان بالغيب؛ إذ لايجتمع اختصاص الآية بالإيمان بالمهديّ مع بقيّة تفـاسيرها، إلا أن يكون تفسيرها بالشيعة لأجل أنهم من أظهر مصاديقها، وذلك بلحاظ إيمانهم بالمهديّ.

ويشهـد لما ذكرنا من تفسيرٍ ـ أيضـاً ـ ما عن تفسير الإمـام أبي محـمد العسكري عليه السـلام حيث قـال عليه السلام في تفسير الآية المبـاركة: **((يعني مـا غاب عن حـواسّهم من الأمور التـي يلزمهم الإيمان بهـا، كالبـعث والحسـاب والجنّة والنار وتوحيد اللّه، وسـائر ما لا يعرف بالمشاهدة، وإنّما يعرف بدلائل قد نصبها اللّه تعـالى دلائل عليها، كآدم وحواء وإدريس ونوح وإبراهيم والأنبيـاء الذين يلزمـهم الإيمان بهم بحـجج اللّه تعـالى وإن لم يشاهدوهم، ويؤمنون بالغيب وهم من الساعة مشفقون))**[٣].

---

(١) البرهان ١ : ٥٣/ ح ٢، ٣، ٥.

(٢) البرهان ١ : ٥٤/ ح ٦.

(٣) البرهان ١ : ٥٦ ـ ٥٧/ ح ١١.

الامام المهدي «عج»:
وجوده، سيرته، علائم ظهوره، واجبنا في غيبته:

ولا بأس بنقل الكلام إلى الإمام المهدي عليه السلام بملاحظة تفسير الآية بالإيمان به عليه السلام، والكلام يقع في مواقع أربعة:

الأوّل: فيما دلّ على وجوده، وجواب بعض الأسئلة المتعلّقة بذلك.

الثاني: الكلام عن سيرته وأعماله.

الثالث: الإشارة إلى بعض علامات ظهوره.

الرابع: الكلام عمّا يجب علينا في أيّام غيبته عليه السلام.

وسأقتصر في المقامين الأوّلين على ذكر الأخبار التي رواها حُفّاظ أهل السُّنة لأجل أن تكون حجّة عليهم؛ إذ لاريب عندنا في وجوده عليه السلام، وأنه إمام العصر الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً، وأنّ من ينكره خارج عن التشيّع والإيمان، كما تنصّ على ذلك أخبارنا التي نذكر فيما يلي بعضها:

[الإيمان بالإمام المهديّ «عج» في روايات الشيعة]:

أوّلها: ما عن «كفاية الأثر» للعلاّمة الرازي عن الإمام أبي محمّد الحسن العسكري عليه السلام: **((أنّ المُقرّ بالأئمّة بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله المنكر لولدي، كمن أقرّ بجميع أنبياء الله ورسله ثمّ أنكر نبوّة رسول الله**

صلّى الله عليــه وآله؛ لأنّ طاعـة آخـرنا كطـاعـة أوّلنا، [و][١] **المنكر لآخـرنا كالمنكر لأوّلنا))**[٢].

ثانيها: عن كتاب «إكمال الدين وإتمام النعـمة» لشيخ المحدّثين أبي جعفر الصدوق ـ رحـمه اللّه ـ بسنده عن الإمـام جعفـر الصادق عليـه السلام: أنه قال: **((من أقـرّ بالأئمّة من آبائي وولدي، وجـحـد المهـديّ من ولدي، كـان كمن أقرّ بجميع الأنبياء وجحد محمداً صلّى اللّه عليه وآله))**[٣].

ثالثهـا: ما عن الكتـاب المذكور بسنده عن الإمـام الصادق عليـه السلام عن آبائه أنّ رسـول اللّه صلّى اللّه عليـه وآله قـال في الإمـام المـهـدي عليـه السلام: **((من أنكره في غيبته فقد أنكرني))**[٤].

رابعها: عن الكتاب المذكور عنه صلّى اللّه عليه وآله أنه قال: **((من أنكر القائم من ولدي فقد أنكرني))**.[٥]

خامسهـا: عن الكتاب المذكـور عنه صلّى اللّه عليه وآلـه أنه قال: **((من**

---

(١) إضافة من المصدر لم ترد في الأصل.

(٢) كفاية الأثر: ٢٩١، كمال الدين ٢: ٤٠٩ باب ٣٨ ما أخبـر به العسكري من وقوع الغيبة.

(٣) كمـال الدين ٢: ٤١١ باب فـيمن أنكـر القائم الثـاني عـشر من الأئـمة عليـهم السلام/ ح٤.

(٤) كمـال الدين ٢: ٤١٢ باب فـيمن أنكـر القائم الثـاني عـشر من الأئـمة عليـهم السلام/ ح٦.

(٥) كمـال الدين ٢: ٤١٢ باب فـيمن أنكـر القائم الثـاني عـشر من الأئـمة عليـهم السلام/ ح٨.

أنكر القائم من ولدي في زمان غيبته مات ميتة جاهلية)).[1]

سادسها: ما عن كتاب «الغيبة» للعلاّمة أبي عبداللّه النعماني بسنده عن أبي حمزة الثمالي أنّ الامام الباقر عليه السلام قال له: **((يا أبا حمزة من المحتوم الذي لا تبديل له عنداللّه قيام قائمنا، فمن شكّ فيما أقول لقي اللّه وهو به كافر وله جاحد))**[2]، إلى غير ذلك من الأخبار.

[الإمام المهديّ «عج» في كتب العامّة]:

[أ ـ في إثبات وجوده «عج»]:

فلنقتصر على ذكر الأخبار الواردة من طرق أُخواننا أهل السنّة، وبيان كلمات أكابر علمائهم وحُفّاظهم في ذلك، فلقد ألّف كثير من علمائهم كتباً خاصّة في إثبات الإمام المهدي عليه السلام وبيان أحواله أرواحنا فداه، إليك ذكر بعضها:

١ـ مناقب المهديّ لأبي نعيم الاصفهاني.

٢ـ نعت المهديّ له أيضاً.

٣ـ أربعون حديثاً في المهديّ له أيضاً.

٤ـ البيان في أخبار صاحب الزمان لأبي عبداللّه الكنجي.

٥ـ البرهان فيما جاء في صاحب الزمان لملاّ علي المتّقي صاحب كنزالعمال.

٦ـ أخبار المهدي لحماد بن يعقوب الروجني.

---

(١) كمال الدين ٢: ٤١٢ ـ ٤١٣ باب فيمن أنكر القائم الثاني عشر من الأئمة عليهم السلام/ ح١٢.

(٢) البحار ٥١: ١٣٩ـ ١٤٠/ ح١٣ باب ماورد عن الإمام الباقر عليه السلام.

٧ـ العرف الوردي في أخبار المهدي لجلال الدين السيوطي.
٨ـ القول المختصر في علامات المهدي المنتظر لابن حجر العسقلاني.
٩ـ علامات المهدي للسيوطي.
١٠ـ عقد الدرر في أخبار الإمام المنتظر للشيخ جمال الدين يوسف بن يحيى الدمشقي.

[ب ـ المصرّحون بتواتر روايات الإمام المهديّ «عج»] :

وأمّا الأخبار الواردة في الإمام المهدي من طرق أُخواننا أهل السُّنّة، فمتواترة واليك تصريح بعض علمائهم في ذلك:

١ـ ابن حجر في «الصواعق:[1] ص٩٩» قال: قال أبوالحسين[2] الآبري: قد تواترت الأخبار، واستفاضت بكثرة رواتها عن المصطفى صلّى اللّه عليه وآله بخروج المهديّ، وأنه من أهل البيت.

٢ـ الشبلنجي في «نور الأبصار»:[3] ص٢٣١» قال: تواترت الأخبار عن النبيّ صلّى اللّه عليه وآله: أنّ المهديّ من أهل البيت وأنه يملأ الأرض عدلاً.

٣ـ زيني الدحلان في «الجزء الثاني من الفتوحات الإسلامية: ص٣٢٢» قال: الأحاديث التي جاء فيها ذكر ظهور المهديّ كثيرة مواترة.

٤ـ محمد بن رسول البرزنجي ذكر في آخر كتاب «الإشاعة في أشراط

(١) الصواعق المحرقة: ١٦٧.
(٢) في الأصل: «أبو الحسيني»، وقد أثبتناه كما في المصدر.
(٣) نور الأبصار : ١٧١ / تتمة في الكلام على أخبار المهدي .

الساعة»[١]: تواتر الأخبار التي جاء فيها ذكر المهديّ، وأنه من المقطوع به، وأنه من ولد فاطمة، وأنه يملأ الأرض عدلاً.

٥ـ الشيخ عبد الحقّ قال في «اللمعات» قد تظاهرت الأخبار البالغة حدّ التواتر على كون المهديّ، من أهل البيت من أولاد فاطمة.

٦ـ الصبّان في «إسعاف الراغبين[٢]: ب٢ ص١٤٠، المطبوع في مصر سنة ١٣١٢» قال: وقد تواتر ت الأخبار عن النبيّ صلّى اللّه عليه وآله بخروجه ـ أي المهديّ ـ وأنه من أهل بيته، وأنه يملأ الأرض عدلاً.

٧ـ الحافظ في «فتح الباري» قال: تواترت الأخبار: بأنّ المهديّ من هذه الأمّة، وأنّ عيسى عليه السلام سينزل ويصلّي خلفه.

٨ـ الشوكاني في رسالته المسمّاة بـ «التوضيح» ذكر تواتر ما جاء في المهديّ المنتظر من الأخبار.

٩ـ الكنجي الشافعي في «البيان:[٣] ص١١٢» قال: تواترت الأخبار، واستفاضت بكثرة رُواتها عن المصطفى صلّى اللّه عليه وآله في أمر المهديّ.

١٠ـ مؤلّف «كفاية الموحّدين» ينقل عن الشافعي إمام الشافعية القول بتواترالأخبار.

١١ ـ الأستاذ أحمد بن محمدالصديق قال: إنّ الأخبار في المهدي بلغت حدّ التواتر.

---

(١) الإشاعة في اشراط الساعة ـ المطبوع في ضمن موسوعة الامام المهدي «عج» ١: ٢٤٩.

(٢) إسعاف الراغبين: ١٤١ / الباب الثاني.

(٣) البيان في أخبار صاحب الزمان «عج»: ١٢٦.

[ج ـ القول بالإمام المهديّ «عج»]:

وقد نسب بعض علماء إخواننا أهل السنّة والجماعة القول بالإمام المهديّ إلى المسلمين تارة، وإلى أهل السنّة خاصّة، واليك بعض كلماتهم في ذلك:

١ ـ العلاّمة ابن أبي الحديد المعتزلي في «شرح النهج ٢: ٥٣٥» نسب القول بالمهديّ إلى مجموع المسلمين.

٢ ـ السويدي في «سبائك الذهب: ص٧٨٠» قال: الذي اتّفق عليه العلماء أنّ المهديّ هو القائم في آخر الوقت، وأنه يملأ الأرض عدلاً.

٣ ـ الشيخ منصور علي ناصف في «غاية المأمول ٥: ٣٦٢» قال: اتّضح ممّا سبق: أنّ المهدي المنتظر في هذه الامّة، وأنّ الدجّال سيظهر في آخر الزمان، وأنّ عيسىً سينزل ويقتله، وعلى هذا أهل السنّة سلفاً وخلفاً.

[د ـ المصنفون من أهل السنّة في الإمام المهدي «عج»]:

وأمّا العلماء والحفاظ من أُخواننا أهل السنّة، الذين رووا الأخبار الدالّة على المهديّ، وذكروها في كتبهم، فكثيرون، وإليك ذِكر من ذَكَرهم سيّدُنا العمّ آية اللّه السيد صدر الدين الصدر في كتابه «المهدي»:

١ ـ البخاري في صحيحه.

٢ ـ السجستاني في صحيحه.

٣ ـ الترمذي في صحيحه.

٤ ـ مسلم في صحيحه.

٥ ـ أحمد في مسنده.

٦ ـ أبو داود في صحيحه.
٧ ـ ابن ماجة في سُننه.
٨ ـ الترمذي في جامعه.
٩ ـ النسائي في مؤلفاته.
١٠ ـ البيهقي في سُننه.
١١ ـ الماوردي.
١٢ ـ الطبراني.
١٣ ـ السمعاني.
١٤ ـ الروباني.
١٥ ـ العبدري.
١٦ ـ عبدالعزيز العكبري في تفسيره.
١٧ ـ ابن قتيبة في «غريب الحديث».
١٨ ـ ابن سري.
١٩ ـ ابن عساكر.
٢٠ ـ الدار قطني.
٢١ ـ الكسائي في كتابه «المبتدأ».
٢٢ ـ البَغَوي.
٢٣ ـ ابن الأثير.
٢٤ ـ ابن بدائع الشيباني.
٢٥ ـ الحاكم في «المستدرك».
٢٦ ـ ابن عبدالبرّ في الاستيعاب.

٢٧ ـ الحافظ ابن المطبق.

٢٨ ـ الفرغاني.

٢٩ ـ النميري.

٣٠ ـ المناوي.

٣١ ـ ابن شيرويه الديلمي.

٣٢ ـ سبط ابن الجوزي.

٣٣ ـ ابن أبي الحديد المعتزلي.

٣٤ ـ ابن صباغ المالكي.

٣٥ ـ الجمري.

٣٦ ـ ابن المغازلي الشافعي.

٣٧ ـ موفق بن أحمد الخوارزمي.

٣٨ ـ محبّ الدين الطبري.

٣٩ ـ الشبلنجي.

٤٠ ـ الصبّان.

٤١ ـ الشيخ منصور علي ناصف.

هؤلاء الأعلام ذكرهم سيّدنا العمّ في كتابه «المهديّ».

[هـ ـ إضافات من المصنف]:

وقد وُفّقت للاطّلاع على آخرين ممن ذكروا الأخبار الدالّة عليه عليه السلام، سنذكرهم فيما يأتي:

١ ـ الفخر الرازي في تفسيره الكبير.

٢ ـ عبدالرحمن بن علي، المعروف بابن الأيبع الزبيدي الشافعي، المتَوفّى

سنة «٩٢٤»، في كتابه «تيسير الوصول إلى جامع الأُصول من حديث الرسول صلى الله عليه وآله»، والكتاب اختصر به «جامع الأُصول» لابن الأثير الجزري.

٣ ـ علاء الدين علي بن حسام الدين، الشهير بالمتقي الهندي، نزيل مكّة المشرّفة، المتوفّى سنة «٩٧٥»، في كتابه «منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال» وكتابه «البرهان».

٤ ـ أبوبكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، المتوفّى سنة «٤٦٣» في كتابه «تاريخ بغداد».

٥ ـ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، المتوفّى سنة «٩١١»، في كتابيه «تاريخ الخلفاء» و«الجامع الصغير».

٦ ـ الشيخ سليمان بن الشيخ إبراهيم، المعروف بخواجه كلان البلخي القندوزي، المتوفّى سنة «١٢٩٤» في كتابه «ينابيع المودّة».

٧ ـ شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي الشافعي، نزيل مكّة، المتوفّى سنة «٩٧٤»، في كتابه «الصواعق المحرقة».

٨ ـ الحافظ محمد بن يوسف بن محمد الكنجي الشافعي، المتوفّى سنة «٦٥٨» في «كتاب البيان».

٩ ـ الشيخ حسن بن علي المدابغي، في حاشية «الفتح المبين».

١٠ ـ القاضي ناصر الدين عبداللّه البيضاوي، المتوفّى سنة «٦٨٥»، وقيل: سنة «٦٩١»، في تفسير «أنوار التنزيل».

١١ ـ علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي في «السيرة الحلبية».

١٢ ـ المقدس الشافعي في كتابه «عقد الدرر».

١٣ ـ الإمام الحافظ أبوعبدالله نعيم بن حماد في كتاب «الفتن».

[و ـ مصنّفون نُقل عنهم ذكر أخبار المهدي «عج»]:

وإليك أسماء جماعة أُخرى ممّن نُقل عن مؤلّفاتهم ذكر أخبار «المهدي»:

١ ـ الحميري في كتابه «الجمع بين الصحيحين».

٢ ـ زيدبن معاوية العبدري في كتابه «الجمع ما بين الصحاح الستة».

٣ ـ الثعلبي في تفسيره.

٤ ـ أبو محمد الحسين بن مسعود الفرّاء في كتاب «المصابيح».

٥ ـ أحمد بن جعفر بن عبيدالله المنادري في كتابه «الملاحم».

٦ ـ أبوالفتح محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الفرغاني في كتاب «الرعاية».

٧ ـ الحافظ أبو نعيم في الأحاديث الأربعين.

٨ ـ الحافظ الهيثمي[1] في كتابه «مجمع الزوائد».

فهؤلاء «٦٢» عالماً وحافظاً من إخواننا أهل السُّنّة؛ ممن روى أخبار المهديّ وتعرّض لها.

[ز ـ المصرّحون بولادة الإمام المهديّ «عج»]:

وهناك جماعة منهم صرّحوا بولادة الإمام المهديّ عليه السلام، نذكر جملة منهم فيما يلي:

١ ـ الشيخ ابن حجر الهيتمي المكّي الشافعي: المتوفّى سنة «٩٧٤»

---

(١) في الأصل: «التيهمي»، والصحيح ما أثبتناه.

في «الصواعق».

٢ ـ السيد جمال الدين عطاء الدين السيّد غياث الدين فضل اللّه: في كتابه «روضة الأحباب».

٣ ـ ابن الصبّاغ المالكي: في كتابه «الفصول المهمّة».

٤ ـ الشيخ شمس الدين أبو الفرج ابن الجوزي: في كتابه «تذكرة الخواصّ».

٥ ـ الشيخ نور الدين عبدالرحمن بن أحمد بن قوام الدين الدشتي الجامي الحنفي: في كتابه «شواهد النبوّة».

٦ ـ الشيخ الحافظ أبوعبداللّه محمد بن يوسف بن محمد الكنجي: المتوفّى سنّة «٦٥٨» في كتابه «كفاية الطالب».

٧ ـ أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبداللّه بن موسى البيهقي الفقيه الشافعي: المتوفّى سنة «٤٥٨» في كتابه «كشف الأستار».

٨ ـ الشيخ كمال الدين أبوسالم محمد بن طلحة الشافعي القرشي: المتولّد سنّة «٥٨٢» في كتابه «الدرّ المنظم».

٩ ـ القاضي فضل بن روزبهان: فإنه أثبت وجوده في كتابه «إبطال نهج الباطل».

١٠ ـ العالم المشهور أبو محمد عبداللّه بن أحمد بن محمد بن الخشاب: المتوفّى سنه «٥٦٧»، فإنه ذكر في كتابه «الإمام المهديّ»، وأنه يخرج في آخر الزمان.

١١ ـ الشيخ محيي الدين أبو عبداللّه محمد بن علي، المعروف بابن الحاتمي الطائي الأندلسي: المتوفّى سنة «٦٣٨»، فإنه ذكر الإمام المهديّ في

الباب «٣٦٦» من «الفتوحات»[1]، ومن شعره فيه:

هُوَ السيِّدُ المهديُّ من آلِ أحمدِ ... هُوَ الصارِمُ الهِنديّ حين يُبيدُ
هُوَ الشمسُ يجلو كلَّ غمٍّ وظُلمةٍ ... هُو الوابلُ الوسميُّ حينَ يجُودُ

١٢ ـ الشيخ سعد الدين محمد بن المؤيّد بن أبي الحسين بن محمد بن حمويه، المعروف بالشيخ سعدالدين الحموي: له كتاب في أحوال صاحب الزمان، وافق فيه الإمامية، كما ذكر ذلك الجامي في «مرآة الأسرار».

١٣ ـ أبو المواهب الشيخ عبدالوهاب بن أحمد بن علي الشعراني: المتوفّى سنة «٩٦٣»، ذكر الإمام المهدي في «اليواقيت والجواهر: ص / ١٤٥ ح ٢/ المطبعة الأزهريّة المصريّة سنة ١٣٠٧».

١٤ ـ الشيخ حسن العراقي: فإنه نقل عنه الشعراني في «كشف الأستار» أنه ذكر الإمام المهديّ، وادّعى أنه اجتمع معه.

١٥ ـ بعض الشافعيّة: على ما حكى عنه في «ينابيع المودّة»[2]: من أنّ له أبياتاً في أئمّة أهل البيت وتعدادهم يقول فيها:

والحسَنُ التالي ويتلو تِلوَهُ ... محمدُ بنُ الحسنِ المُمجّدِ

١٦ ـ حسين بن معين الدين: أثبت الإمام المهدي في كتابه «شرح

---

(١) الفتوحات المكّيّة المجلّد الثالث الباب ٣٦٦ في معرفة منزل وزراء المهديّ الظاهر في آخر الزمان الذي بشّر به رسول اللّه صلّى اللّه عليه [وآله] وسلّم، وهو من أهل البيت، والأبيات ثلاثة أوّلها:

ألا إنّ ختمَ الأولياء شهيدُ ... وعينُ إمام العالَمينَ فقيدُ

موسوعة الإمام المهدي «عج» المجلّد الأوّل: ٢٩.

(٢) ينابيع المودّة: ٤٧٤.

الديوان المنسوب لمولانا أميرالمؤمنين».

١٧ ـ الحافظ محمد بن محمد بن محمود البخاري: ذكر الإمام المهديّ في كتابه «فصل الخطاب».

١٨ ـ الحافظ أبوالفتح محمد بن أبي الفوارس: ذكر في أربعينه الأئمّة الاثني عشر.

١٩ ـ أبو المجد عبدالحقّ الدهلوي البخاري: المتوفّى سنة «١٠٥٢».

ذكر الإمام المهدي في رسالته المؤلّفة في المناقب وأحوال الأئمة عليهم السلام.

٢٠ ـ الشيخ أحمد الجامي النامقي: له أبيات فارسية ذكر فيها الإمام المهديّ.

٢١ ـ الشيخ فريد الدين محمد العطّار النيسابوري: فإنه ذكر الإمام المهديّ في أبيات له فارسية.

٢٢ ـ جلال الدين عارف البلخي الرومي المعروف بالمولوي: المتوفّى سنة «٦٧٢».

ذكر الإمام المهدي في ديوانه الكبير.

٢٣ ـ الشيخ العارف صلاح الدين الصفدي: المتوفّى سنة «٧٦٤».

ذكر الإمام المهدي في كتابه «شرح الدائرة».

٢٤ ـ المولوي علي أكبر بن أسد اللّه المؤدي: من متأخّري علماء الهند، فإنه ذكر الإمام المهدي في كتابه «المكاشفات».

٢٥ ـ الشيخ عبدالرحمن، صاحب «مرآة الأسرار»: نقل عنه الاعتراف بالإمام المهدي.

٢٦ ـ بعض مشايخ الشعراني: نسب إليه الشّعراني الاعتراف بالإمام المهدي.

٢٧ ـ القاضي شهاب الدين بن شمس الدين الدولة آبادي، قد حكى عنه في «النجم الثاقب» و «كشف الأستار» القول بإمامة الأئمة الاثني عشر.

٢٨ ـ الشيخ سليمان بن شيخ إبراهيم، المعروف بخواجه كلان البلخي القندوزي: المتوفّى سنة «١٢٩٤».

ذكر الإمام المهدي في عدّة مواضع من كتابه «ينابيع المودّة».

٢٩ ـ الشيخ عامر بن عامر البصري ذكر الإمام المهدي في قصيدته التائية المسمّاة بـ «ذات الأنوار»، فإنه يقول فيها:

إمامَ الهُدى حتّى متى أنت غائبٌ فمُنَّ علينا يا أبانا بأوبة
تراء ت لنا رايات جيشك قادماً ففاحت لنا منها روائحُ مكّة
وبشَّرت الدُّنيا بذلكَ فاغتدت مَباسمها مُفتَرَّةً عن مَسرَّة
مَلَلنا وطال الإنْتِظارُ فَجُدلنا بربِّكَ يا قُطبَ الوجود بلُقيَة

إلى أين قال:

فعجِّل لَنا حتّى نراكَ فَلَذَّةُ المحبِّ لِقا محبوبِهِ بعدَ غيبة

٣٠ ـ القاضي جواد الساباطي: ذكر في كتابه «البراهين الساباطية» بعد ذكر اختلاف المسلمين في المهديّ: أنّ قول الإماميّة أقرب لمطابقته مع النصّ.

٣١ ـ الشيخ أبو المعالي صدر الدين القوني: كتب في بعض مؤلّفاته يقول:

وبلّغوا منّي سلاماً إلى المهديّ عليه السلام.

٣٢ ـ عبدالله بن محمد الطبري: ذكر الإمام المهديّ فى كتابه «الرياض الزاهرة».

٣٣ ـ شيخ الإسلام أبوالمعالي محمد سراج الرفاعي، ثمّ المخزومي: ذكر الإمام المهديّ في كتابه «صحاح الأخبار».

٣٤ ـ مير خواند المؤرّخ الشهير: المتوفى سنة «٩٠٣».

ذكر الإمام المهديّ في (ج ٣) في كتابه «تاريخ الصفا».

٣٥ ـ نضربن علي الخهضمي: نسب إليه في «النجم الثاقب» التصريح بولادته.

٣٦ ـ الشيخ محمد بن إبراهيم الجويني: المتوفّى سنة «١١٧٦».

ذكر في «ينابيع المودّة» عن «فرائد السمطين»: أنه روى ما يدلّ على وجود الإمام المهديّ.

٣٧ ـ القاضي المحقّق بهلول بهجت أفندي: ذكر في كتابه «المحاكمة في تاريخ آل محمد» الإمامَ المهديّ.

٣٨ ـ الشيخ شمس الدين محمد بن يوسف الزندي: ذكر الإمام المهديّ في كتابه «معراج الوصول إلى معرفة آل الرسول».

٣٩ ـ شمس الدين التبريزي: نسب إليه الاعتقاد بالإمام المهديّ في «ينابيع المودة».

٤٠ ـ الحسين بن همدان الحضيني: ذكر الامام المهديّ في كتابه «الهداية».

٤١ ـ المؤرّخ الشهير ابن خلّكان: ذكر ولادة الإمام المهديّ وتاريخها

في كتابه «وفيات الأعيان»[1].

٤٢ ـ المؤرّخ ابن الأزرق: ذكر الإمام المهديّ في تاريخه.

٤٣ ـ المولى علي القاري: ذكر أسماء الأئمة الاثني عشر، وأشار إلى مناقبهم وكراماتهم في كتابه «المرقاة».

٤٤ ـ القطب المدار: نسب إليه الاعتراف بالمهديّ.

٤٥ ـ الحافظ أبو محمد أحمد بن إبراهيم بن هاشم الطوسي البلاذري: نُقل عنه الاعتراف بالإمام المهديّ.

٤٦ ـ الشيخ علي الخوّاص[2]: ممّن نُقل عنه الاعتراف بالإمام المهديّ.

٤٧ ـ المؤرّخ ابن الوردي: ذكر الإمام المهدي في تاريخه.

٤٨ ـ السيد مؤمن بن حسن الشبلنجي: ذكره، وذكر مناقبه في كتابه «نور الأبصار».

٤٩ ـ الشيخ النّسابة أبوالفوز محمد أمين البغدادي السويدي: ذكر الإمام المهديّ في كتابه «سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب»[3].

٥٠ ـ شيخ الإسلام إبراهيم بن سعدالدين: حكي عنه الاعتراف بالمهديّ.

٥١ ـ صدر الأئمة ضياء الدين موفّق بن أحمد الخطيب المالكي الخوارزمي، أخطب خطباء خوارزم: نُقل عنه في «كشف الأستار» ما يدلّ

---

(١) وفيات الأعيان ٤ : ١٧٦.

(٢) الخوّاص: بائع الخوص.

(٣) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب: ٧٨.

على الاعتراف بالمهديّ.

٥٢ ـ المولى حسين بن علي الكاشفي: نُقل عنه في «كشف الأستار» كلمات ظاهرة في ذلك.

٥٣ ـ السيّد علي بن شهاب الهمداني: صرّح بالامام المهديّ في كتابه «المودّة في القربى».

٥٤ ـ الشيخ محمد الصبّان المصري: يظهر من بعض كلماته في «إسعاف الراغبين»[1] الاعتراف بالمهديّ.

٥٥ ـ الناصرلدين اللّه العبّاس: أمر بعمارة السرداب، ولولا اعتقاده به لما أقدم على ذلك.

٥٦ ـ أبو الفلاح عبدالحيّ بن العماد الحنبلي: المتوفّى سنة «١٠٨٩».

صرّح بولادته في كتابه «شذرات الذهب».

٥٧ ـ الشيخ عبدالرحمن محمد بن علي بن أحمد البسطامي: ذكر الإمام المهديّ في كتابه «دُرّة المعارف»، وله فيه أشعار منها قوله:

فَهذا هو المهديُّ بالحقِّ ظاهرٌ سيأتي مِن الرحمنِ للحقِّ مُرسلا

ويملأُ كلَّ الأرضِ بالعدل رحمةً ويمحوظلام الشرك والجور أوّلا

ولا يتُهُ بالأمـر من عندِ ربّه خليفةُ خير الرُّسلِ من عالَم العُلا

٥٨ ـ الشيخ عبدالكريم اليماني القائل في الإمام المهديّ:

يُلقَّبُ بالمهديُّ بالحقّ ظاهرٌ بسُنّة خير الخلق يحكُمُ أوّلا

٥٩ ـ السيّد النسيمي: ممن نقل عنه الاعتراف بالإمام المهديّ.

---

(١) إسعاف الراغبين: ١٤٠ / الباب الثاني.

٦٠ ـ عماد الدين الحنفي ممّن نسب إليه القول بالمهديّ عليه السلام.

٦١ ـ الشيخ جلال الترتي عبدالرحمن أبوبكر السيوطي: ذكر الإمام المهدي في كتابه «إحياء الميت».

٦٢ ـ الفاضل رشيدالدين الدهلوي: يظهر من كتابه «الإيضاح» القول بالمهديّ.

٦٣ ـ الشاه وليّ اللّه الدهلوي: يظهر من روايته ما يدلّ على المهديّ اعتقاده به.

٦٤ ـ الشيخ أحمد الفاروقي النقشبندي: نقل عن كتابه المكاتيب الاعتقاد بالمهديّ.

٦٥ ـ أبو الوليد محمد بن شحنة الحنفي: ذكر في تاريخه «روضة المناظر» ولادة الإمام المهديّ، ونقل في كتاب «منتخب الأثر» عن كتاب «البرهان في علامات مهدي آخر الزمان[١]: باب ١٣» فتاوي أربعة من علماء المذاهب الأربعة في إثبات وجود صاحب الزمان، وأنه قد وردت الأحاديث الصحيحة فيه، وفي صفته، وصفة خروجه، وما يظهر من الفتن قبل ذلك.

والعلماء الأربعة هم:

١ ـ الشيخ ابن حجر الشافعي مؤلّف كتاب المختصر.

٢ ـ أبو السرور أحمد بن ضياء الحنفي.

٣ ـ محمد بن محمد المالكي.

(١) البرهان في علامات مهدي آخر الزمان: ١٧٧ ـ ١٨٣ باب ١٣ في فتاوى علماء العرب من أهل مكّة المشرفة في شأن المهدي «عج».

٤ ـ يحيى بن محمد الحنبلي.

فهؤلاء «٦٩» من أعلام إخوانناأهل السنّة ممّن قد ذكر الإمام المهدي، و«٦٢» من علمائهم وحفّاظهم ممّن روى الأخبار الواردة في الإمام المهديّ، و«٣» ممّن نَسب القول بالمهديّ إلى المسلمين أو السنّة، و«١١» ممّن صرّح بتواتر الأخبار في المهديّ، و«١٠» ممّن ألّف كتباً في إثباته، وكلّ هؤلاء من إخواننا أهل السنّة والجماعة.

[ح ـ مناقشة ابن خلّكان]:

والوحيد الذي ناقش في وجوده عليه السلام هو ابن خلّكان، ومع ذلك اعترف: بأنّ القول بالمهديّ هوالمعروف بين المسلمين؛ إذ كتب يقول:

المشهور بين الكافّة من أهل الإسلام على مرّ الأعصار: أنه لابدّ في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت، يؤيد الدين، ويتّبعه المسلمون، ويستولي على الممالك الإسلامية، ويسمّى بالمهديّ.

ولكنه ناقش بعد ذلك فى وجوده، وذلك لضعف بعض الأخبار الواردة فيه.

والجواب واضح عن ذلك؛ لوضوح أنّ ضعف بعض الأُخبار لايضرّ مع صحّة البعض الاخر، وعدم إمكان المناقشة فيه؛ لوجوده في الصّحاح التي لايشكّ إخواننا أهل السنّة في صحّة جميع ما فيها، مع أنها ـ لكثرتها وكثرة رواتها وكثرة من أخرجها ـ يُقوّي بعضها بعضاً، حتّى صارت تفيد القطع، كما جاء ذلك في (ج ٢) من الفتوحات المكية (ص ٣٢٢).

وقد ذكر العلامة المتبحّر السيّد عبدالله شبّر: أنّ ما ورد في كتب العامّة من الروايات في الإمام المهديّ ما يزيد على «١٥٠» خبراً، وقد ذكر سيّدنا العمّ آية اللّه السيد صدرالدين الصدر في كتابه المهديّ: «٣٨٨» حديثاً كلّها من طرق أُخواننا أهل السنّة، ولقد جمع بعض المعاصرين في كتابه «منتخب الأثر» الأخبار الواردة في الإمام المهديّ من طرق الشيعة والسنّة، فكانت «٦٤١٨» خبراً، فأيّ مسألة ياترى أوضح من هذه؟! وإذا شُكّ في مسألة كهذه، فلا يمكن الإيمان بأيّ مسألة أُخرى.

ويظهر من بعض الأحاديث المرويّة في كتب إخواننا أهل السنّة والجماعة كفر من أنكر خروج المهديّ ففي كتاب «ينابيع المودة: ص ٤٤٧» عن جابر بن عبدالله الأنصاري، قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ : ((**من أنكر خروج المهديّ فقد كفر بما أُنزل على محمد**))[1].

وفيه ـ أيضاً ـ عن جابر، قال: ((**قلت: يا رسول الله لولدك القائم غيبة؟**

قال: إي وربّي؛ ليمحّص الذين آمنوا، ويمحق الكافرين. يا جابر إنّ هذا الأمر من أمر الله، وسرّ من سرّ الله، مطويّ [عن][2] **عباد الله، فإيّاك والشكّ فيه، فإنّ الشكّ في أمر الله ـ عزّوجلّ ـ كفر**))[3].

---

(١) ينابيع المودة: ٤٤٧، وبمضمونه ورد في كتاب لوائح الأنوار البهيّة الجزء الثاني ـ المطبوع في موسوعة الإمام المهدي «عج»: ٣٦١، وفيه قال بتواتر الروايات بخروجه «عج»،، وقريب منه في كتاب الإذاعة لما كان أو يكون بين يدي الساعة ـ المطبوع في الموسوعة: ٤١٥.

(٢) في الأصل: من ...

(٣) ينابيع المودّة: ٤٤٨.

[ط ـ الإمام المهدي «عج» في القرآن الكريم]:

فظهر أنه يدلّ على وجوده ـ أرواح العالمين فداه ـ إجماع المسلمين والأخبار المتواترة من الفريقين، كما يدلّ على ذلك بعض الآيات القرآنية على ما فسّرها به علماء أخواننا أهل السنّة، وإليك بعضها:

أوّلها: قوله تبارك وتعالى: ﴿**وَنُرِيدُ أن نَمُنَّ عَلَى الَّذينَ استُضعِفُوا في الأرضِ وَنَجعَلَهُم أئمةً وَنَجعلَهُمُ الوَارِثينَ**﴾[1]:

ففي شرح نهج البلاغة للعلاّمة ابن أبي الحديد المعتزلي[2] (ج ٣ ص٩٩) ذكر عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: ((**لَتَعطِفنَّ الدُّنيا علينا بعد شِماسها عطفَ الضَّروس على وُلدها**))، وتلا عليه السلام عقيب ذلك قوله تعالى: ﴿**وَنُرِيدُ أن نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ استُضعِفُوا في الأرضِ وَنَجعَلَهُم أئمّةً وَنَجعَلَهُمُ الوارِثينَ**﴾.

وعقّب الشارح على ذلك: بأنه عليه السلام وَعَد بإمام من آل محمد يملك الأرض، ويستولي على الممالك، وليس هو إلاّ المهديّ.

واستشهاد الإمام بالآية ظاهر في نزولها في المهدي، كما يبدو من تعقيب الشارح موافقته على ذلك.

ثانيها: قوله تبارك وتعالى: ﴿**حم * عسق**﴾[3]:

وقد ذكرنا حين الكلام عن تفسير قوله تعالى: ﴿**الم**﴾: أنّ هذه الحروف

---

(١) القصص: ٥.

(٢) شرح نهج البلاغة ٥: ٤٩٣/ ح٢٠٥.

(٣) الشورى: ١ ـ ٢.

المقطعة المذكورة في أوائل السور من الآيات المجملة التي لامجال لنا إلى فهم معانيها ما لم تفسّر في آية مباركة، أو سُنّة نبويّة، أو حديث عن أهل بيت العصمة.

وقد ذكر[١] أنّ المستفاد من الأخبار أنّ هذه الحروف تشتمل على معان لايفهمها إلاّ النبيّ الأعظم أو من علّمه إيّاها، وأنّ الداعي إلى إفهام تلك المعاني بهذه الحروف هو إفهام العرب أنّ القرآن الذي عجزوا عن مجاراته مركبّ من هذه الحروف التي يتركّب منها كلامهم وخطبهم وأشعارهم.

والمعنى الذي تشتمل عليه هذه الحروف مرويّ عن ابن عبّاس، ولا بدّ أنه قد أخذه إما من النبيّ الأعظم صلى اللّه عليه وآله أو من باب مدينة علمه أميرالمؤمنين؛ إذ لاطريق له إلى معرفة معانيها بنفسه، وقد رُوي عنه ذلك في كتاب «عقد الدرر»[٢] أنه قال:

(«ح» حرب، و«م» ملك بني اُميّة، و«ع» علوّ بني العبّاس و «س» سَنى المهديّ ـ وفي رواية: سناء المهديّ ـ و «ق» نزول عيسى، وفي رواية: قوّة عيسى عليه السلام).

ثالثها: قوله تبارك و تعالى في سورة الزُّخرف[٣]: ﴿**وَإنّهُ لَعِلمٌ لِلسّاعَةِ فَلا تَمتَرُنّ بِها وَاتّبِعُونِي هذا صِراطٌ مُستَقِيمٌ**﴾.

وقد نقل ابن حجر في الصواعق[٤] (ص ٩٦) عن مقاتل ابن سليمان و

(١) كذا، والمناسب للسياق: ذكرنا...

(٢) عقد الدرر: ١٤٣/ الباب السابع «في شرفه وعظيم منزلته».

(٣) الزُّخرُف: ٦١.

(٤) الصواعق المحرقة: ١٦٢.

من تبعه من المفسّرين: أنّ هذه الآية نزلت في المهديّ، وفي إسعاف الراغبين (ص ١٥٦) مثله.

رابعها: قوله تبارك و تعالى: **﴿لِيُظهِرَهُ عَلى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَو كَرِهَ المشرِكُون﴾**[1].

ففي كتاب «الإبصار»: أنّ سعيد بن جبير فسرّها بالمهديّ.

خامسها: قوله تعالى: **﴿إن نَشَأ نُنَزِّل عَلَيهِم آيَةً مِنَ السَّماءِ فَظَلَّت أعناقُهُم لَها خَاضِعينَ﴾**.[2]

في ينابيع المودّة[3] «ص٤٤٨» يذكر رواية تشتمل على أن هذه الآية نزلت في النداء الذي يُسمع حين ظهور المهديّ.

سادسها: قوله تبارك وتعالى: **﴿هُدىً لِلمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِالغَيبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقناهم ينفقون﴾**[4].

ففي «ينابيع المودّة»[5] عن كتاب «مناقب الخوارزمي» أنّ رسول اللّه عليه صلى اللّه عليه وآله قال: ((**إنّ هاتين الايتين نزلتا في أصحاب المهدي**)).

فظهر أنّ الأدلّة الثلاثة ـ من الكتاب والسنّة والإجماع ـ تدلّ على مهديّ آل محمد عليه السلام.

---

(١) الصف: ٩.

(٢) الشعراء: ٤.

(٣) ينابيع المودة: ٤٤٨.

(٤) البقرة: ٢ ـ ٣.

(٥) ينابيع المودة: ٤٤٣.

[دلالة العقل على إمامة المهديّ «عج»]:

ويدلّ على ذلك العقل أيضاً.

وبيان ذلـك: أنّ المستفـاد من قوله تبـارك و تعالى في سـورة الذاريات[1] ﴿وَمَا خَلَقتُ الجِنَّ وَالانِسَ إلاَّ لِيَعبُدُونَ﴾: أنّ الغـاية القصـوى من خلقـة[2] البشـر هي العبـادة، وأنّ اللّه إنّما خلق الجنّ والإنس لذلك، ويحـتاج البـشر إلى واسطة بينهم وبين اللّه يُعـلّمهم كـيفـيّة العبـادة ويُوجّههم نحـو العبـادة الصحيحة، وهذا الوسـيط والمعلّم والموجّه هو الرسول الأعظم في أيّام حياته والإمـام بعـد وفـاته؛ لوضـوح أنّ القـرآن الـكريم لايكفي وحـده لذلك؛ لاختلاف الاراء في تـفسيـر بعض آياته المبـاركة، فـلا بدّ أن يعـيّن اللّه من يرجع إليـه الناس لرفع الخلاف في تفـسير آياته ومـعانيـه، وليس هو إلاّ النبيّ في حياته والإمـام من بعده؛ لأنه لأجل لطفه بعبـاده ورحمته بهم لايـبقيهم على اخـتلافـهم، كمـا أشار إلى ذلك هشـام بن الحكم أحد طلاّب الإمـام الصادق وخرّيجي مـدرسته في أثناء كلامـه مع ذلك الشامي الذي أتى إلى المدينة لمناظرة أصحاب الإمام الصادق في الإمامة، وذلك في مجلس الإمام الصادق عليه السلام، بعد أن اعـترف الشامي بأنّ اللازم على اللّه أن يجعل للأمّة من يرفع به الاختلاف من بينها، وتجتمع عليه الكلمة، وأنّ ذلك كان هو النبيّ في أيّام حياته:

((سأله هشام فمن هو بعد رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله؟

---

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) كذا، والمناسب للسياق: خلق ...

قال الشامي: القرآن.

فقال له هشام: فهل نفعنا القرآن اليوم في دفع الاختلاف؟

قال له: نعم.

قال هشام: إذن فلم اختلفتُ أنا وأنت، وصرت إلينا من الشام في مخالفتنا إياك؟

قال الراوي: فسكت الشامي.

فقال له الإمام أبو عبدالله الصادق عليه السلام: مالك لاتتكلّم؟

فقال الشامي: إن قلت: لم نختلف كذبت، وإن قلت: إنّ الكتاب والسُّنّة يرفعان هذا الاختلاف أبطلت؛ لأنهما يحتملان الوجوه.

ثم قال الشامي: إلاّ أنّ لي عليه هذه الحجة.

فقال أبو عبدالله عليه السلام: سله تجده مليّاً.

فقال الشامي: فهل أقام لهم من يجمع كلمتهم، ويُقيم أودهم، ويخبرهم بحقّهم وباطلهم؟

قال هشام: وقت رسول الله، أو الساعة؟

قال الشامي: الساعة.

فقال هشام: هذا القاعد الذي نشدّ إليه الرحال، ويخبرنا بأخبار السماء وراثةً عن أبٍ وجدّ))[1].

ثمّ إنّ الله تبارك وتعالى بعظيم لطفه ورحمته وحكمته، جعل لأجزاء الإنسان على قلّتها من ترجع إليه وتميز به الخير من الشرّ في أفعاله وأقواله،

---

(١) الاحتجاج ٢: ١٢٤.

فكيف لايجعل للبشر من يدبّر شؤونهم، ويعرفهم خيرهم من شرّهم؟!
كما أشار إلى ذلك هشام بن الحكم في مناظرته مع عمروبن عبيد أحد أقطاب المعتزلة وزهّاد عصره، قال هشام ـ يحدث بذلك الإمام الصادق عليه السلام ـ :

(إنه بلغني ماكان فيه عمرو بن عبيد وجلوسه فى مسجد البصرة، فعظم ذلك عليّ، فخرجت إليه، ودخلت البصرة يوم الجمعة، فأتيت مسجد البصرة.

ويستمرّ هشام في الحديث عن ذهابه إلى المسجد واجتماعه بعمرو... إلى أن يقول:

قلت له: أيّها العالم إني رجل غريب، تأذن لي في مسألة؟

فقال: نعم.

قلت: ألك عين؟

قال: بُنيّ أيُّ شيءٍ هذا السؤال؟! وشيء تراه كيف تسأل عنه؟!

فقلت: هكذا مسألتي.

فقال: يا بنيّ سل وإن كانت مسألتك حمقاء.

قلت: ألك عين؟

قال: نعم.

قلت: فما تصنع بعينك؟

قال: أرى بها الألوان والأشخاص.

ثمّ أخذ هشام يسأله عن كلّ جزء من أجزاء بدنه وعن فائدته إلى أن قال هشام:

قلت: ألك قلب؟

قال: نعم.

قلت: فما تصنع به؟ قال: أُميّز به كلّ ما ورد على هذه الجوارح والحواسّ.

فقال له هشام: أوليس في هذه الجوارح غنىً عن القلب؟

قال: لا.

فقال له: وكيف ذلك وهي صحيحة سليمة؟

فأجابه: يا بُنيّ إنّ الجوارح إذا شكّت في شيء شمته أو رأته أو ذاقته أو لمسته، ردّته إلى القلب.

قال هشام: فقلت له: يا أبا مروان إنّ الله تبارك و تعالى لم يترك جوارحك حتّى جعل لها إماماً يصحّح لها الصحيح، وتستيقن به ما شكّت به، ويترك هذا الخلق كلّهم في حيرتهم واختلافهم لايقيم لهم إماماً يردّون إليه شكّهم وحيرتهم؟! قال الراوي: فسكت عمرو بن عبيد، ولم يقل لي شيئاً).[1]

فظهر أنّ العقل يحكم بأنّ اللّه لابدّ وأن يكون قدعيّن في هذا العصر إماماً، وليس هو إلاّ المهدي عليه السلام؛ لإجماع المسلمين على أنه ليس غيره إماماً بالنصّ.

فإن قلت: إذن كان اللازم أن يُظهره اللّه لخلقه؛ لتحصل به الفائدة.

قلت: إنّ ما تقتضيه رحمته بعباده وعطفه عليهم أن يُهيّء لهم من

---

(١) الاحتجاج ٢: ١٢٦ - ١٢٨.

تحصل بوجوده الفائدة المذكورة، أمّا إذا كان الناس لسوء اختيارهم وقلّة حظّهم أوجدوا المانع عن الاستفادة بإمامهم، وألجؤوه إلى أن يغيب عنهم، فهم المسؤلون عن ذلك، ولا يلزم من ذلك أيّ قصور في لطفه ورحمته على خلقه.

فظهر: أنّ الأدلّة الأربعة تدلّ على وجود مولانا الامام المهديّ عليه السلام، وهل يمكن لمسلم أن يشكّ بعد ذلك؟!

[ي ـ ثلاث طوائف أخرى من الأخبار الدالّة على الإمام المهديّ «عج»]:

وسنقتصر على الإشارة إلى ثلاث طوائف من الأخبار وذكر بعضها، فإنها وإن لم يُذكر في بعضها اسم الإمام المهديّ إلاّ أنها من أقوى الأدلّة على وجوده الشريف:

[طائفة: الأئمة اثنا عشر]:

أوّلها: ما دلّ على أنّ خلفاء رسول اللّه اثنا عشر، وذلك كالخبر المروي في مسند إمام الحنابلة أحمد بن حنبل(1)، بسنده عن جابر بن سمرة بأربعٍ وثلاثين طريقاً: ((**أنّ جابراً قال: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله يقول: يكون لهذه الأُمة اثنا عشرَ خليفةً**)).

وكالخبر المرويّ في صحيح مسلم(2) عن جابر عن النبيّ صلى اللّه عليه

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥: ٨٦ ـ ٨٨.

(٢) صحيح مسلم ٢: ١٢٢ كتاب الإمارة ـ باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش.

وآله أنه قال: ((**لايزال الدينُ قائماً حتى تقوم الساعة أو[1] يكون عليهم اثنا عشرَ خليفة كلّهم من قريش**)).

وقد تواتر مضمون هذين الخبرين في كتب الخاصّة والعامّة: إمّا بهذا اللفظ، أو قريب منه، وقد جمع بعض المعاصرين هذه الأخبار فكانت «٢٧١»، وقد رواها أكابر حفّاظ أهل السنّة إليك ذكر بعضهم:

(١) البخاري في صحيحه.

(٢) مسلم في صحيحه.

(٣) الترمذي في صحيحه.

(٤) ابي داود في صحيحه.

(٥) الحاكم في المستدرك.

(٦) الشيباني الزيدي الشافعي في كتابه «تيسير الوصول إلى جامع الأصول».

(٧) المتّقي الهندي كتابه «منتخب كنز العمال».

(٨) الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد».

(٩) خواجه كلان البلخي القندوزي في كتابه «ينابيع المودّة».

(١٠) الخوارزمي في كتاب «المناقب».

(١١) السيوطي في كتابه «تاريخ الخلفاء».

ومن الواضح أنّ هذا الحديث المتواتر الشريف لاينطبق إلاّ على مذهب الشيعة الإماميّة الاثني عشرية؛ لأنه ليس هناك أيّ مذهب آخر تكون أئمته

---

(١) في الأصل: (ويكون ...)، وقد أثبتناه كما في المصدر.

اثني عشر إماماً.

[مناقشة الفضل بن روزبهان]:

ولشهرة هذه الأخبار واستفاضتها بل تواترها، لم يتمكن الفضل بن روزبهان ـ في ردّه على آية الله العلاّمة الحلّي ـ من إنكار صدور هذه الأخبار، واعترف بثبوتها في الصحاح، ووجّهها بتوجيهين[1] غريبين جداً:

أوّلهما: أنّ المراد بهم هم الخلفاء بعد رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وكان اثنا عشر منهم تولّى الخلافة إلى ثلاث مائة سنة.

ولا يخفى مخالفة هذا التوجيه لما يظهر من الأخبار المذكورة، لاسيّما من الرواية المذكورة آنفاً ـ التي نقلناها عن صحيح مسلم ـ من اتّصال زمان الخلفاء الاثني عشر بيوم القيامة.

[ثمّ][2] إنه ماهي خصوصية هؤلاء الاثني عشر، وفيهم معاوية بن أبي سفيان، الذي شقّ عصا المسلمين، وحارب إمام زمانه الذي قال فيه رسول الله صلّى اللّه عليه وآله: ((حربه حربي))،[3] وفيهم ولده يزيد الذي قتل الحسين، وهدم الكعبة، وأباح المدينة[4].

مضافاً إلى ما ستعرف من عدم كون بني اُمية من قريش، مع أنّ الحديثَ الذي رويناه عن صحيح مسلم صريحٌ في كونهم من قريش.

---

(١) دلائل الصدق ٢: ٤٨٦.

(٢) إضافة يقتضيها السياق.

(٣) ينابيع المودّة: ٧١.

(٤) راجع الإمامة والسياسة ١: ٢٠٩ ـ ٢٢٠ و ٢: ٣ ـ ١٢، الصواعق المحرقة: ٢٢٢.

التوجيه الثاني: أنّ المراد هم الخلفاء الصالحون، وهم الخمسة الأوائل، وعبدالله ابن الزبير، وعمر بن عبدالعزيز، وخمسة من خلفاء بني العباس.

ويرد على هذا التوجيه ما أوردناه أوّلاً: من أنّ ظاهر الأخبار اتّصال الخلفاء الاثني عشرَ بيوم القيامة.

ثمّ إنّ أحد المذكورين هو عمربن عبدالعزيز الأمويّ، وهو ليس من قريش؛ لما ستعرف.

مضافاً إلى أنّ ظاهر الرواية اتّصال الخلفاء بعضهم ببعض.

وياليت شعري كيف يُعدّ عبدالله بن الزبير من الخلفاء الصالحين وقد أراد إحراق بني هاشم، ولم يصلّ على الرسول الأعظم في صلاته[1].

ومن ياترى هم الخمسة الصالحون من بني العبّاس؟! فهل هم الخمسة الأوائل؟!

ومنهم: المنصور الذي ملأ السجون بآل الرسول، وجعلهم في أساس الدور.

ومنهم: المهديّ الذي قتل شهداء فخّ.

ومنهم: الرشيد صاحب السيرة المعروفة مع العلويين، ولا سيّما مع الإمام الكاظم عليه السلام.

وإذا كانت الأعمال التي قام بها المنصور والمهديّ والرشيد لاتمنع من الاتّصاف بالصلاح، فليس في الأسرة العبّاسيّة ـ ولا في غيرها ـ من لايتّصف بالصلاح، فلماذا الاختصاص بهؤلاء؟!

---

(١) شرح نهج البلاغة ٥: ٨١٧، ٨٢٠ ـ ٨٢١.

[توجيه غريب]:

وأغرب من هذين التوجيهين من علماء أُخواننا أهل السُّنّة من أنّ المراد بنو أُميّة ما بعد الصحابة.

ويا ليت شعري ما اختصاص هؤلاء بالذكر؟! ومنهم يزيد قاتل الحسين، وهادم الكعبة، ومبيح المدينة ومنهم سليمان الشره الأكول الذي أوقف تقدّم الجيش الإسلامي، ومنهم يزيد بن عبدالملك الذي لم يهمّه انكسار الجيش الإسلامي فى «اوربا» لانشغاله بالبكاء على مغنّيته «حبّابة»، ومنهم ولده الوليد المعروف بفسقه، وقد استفتح بالقرآن الكريم فخرجت الاية: ﴿فَاستَفتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبّارٍ عَنيد﴾[1]، فجعل القرآن مرمىً للنبل، ثمّ أخذ يرميه بالنبل، حتّى مزّقه، وأنشد يقول[2]:

تُهدّدني بجبارٍ عنيدِ فها أنَاذاك[3] جبّارٌ عنيدُ
إذا ما جئتَ ربَّكَ يومَ حشرٍ فقُل يا ربّ مزّقني الوليدُ

مع ما عرفت من أنّ ظاهر الأخبار اتّصال الخفاء الاثني عشر بيوم القيمة، مضافاً إلى أنّ المستفاد منها: أنهم يبدؤون بعد عهد الرسالة بلا فصل، فلا مجال للتوجيه المذكور.

مع أنّ الخبر ـ الذي رويناه قريباً عن صحيح مسلم ـ صريح في أنّ الاثني عشر من قريش، وبنوأُميّة ليسوا من قريش؛ وذلك لأنّ أُمية عبدٌ ادّعاه عبد شمس، وليس من أولاده.

---

(١) إبراهيم: ١٥

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٩: ٣٥٠.

(٣) في الأصل: «ذا»، و الصحيح ما أثبتناه.

وتوضيح ذلك: أنه ذكر في التاريخ أنّ هاشماً وعبد شمس توأمان ـ كما أشار إلى ذلك ابن الأثير الجزري في تاريخ الكامل ـ[1] وقد أجمع المؤرّخون على أنّ هاشماً حينما تُوفّي لم يزد عمره على (٢٥) سنة[2]، والمشهور أنه مات في العشرين من عمره ـ كمااختاره في الكامل[3] ـ ولازم ذلك أنّ عبد شمس حين وفاة أخيه لم يزد عن الخامسة والعشرين.

وقد ذكر المؤرخون ـ أيضاً ـ ومنهم ابن الأثير في الكامل[4]: أنّ أُميّة ـ المنسوب إلى عبد شمس ـ حسد عمّه على رئاسته وإطعامه، فتكلّف أن يصنع صنيع هاشم، فعجز عنه، فشمتت به ناس من قريش، فغضب ونال من هاشم، ودعاه إلى المنافرة، فكَرِه هاشم ذلك، فلم تَدعه قريش حتى نافره إلى الكاهن الخُزاعي، فقضى لهاشم بالغلبة.

ومن المعلوم: أنّ أُميّة إن كان ابناً حقيقيّاً لعبد شمس، فلا يعقل أن يكون عمره أكثر من (١٢) سنة، ومن كان في [هذه] السنّ ـ و [هي] سنّ الطفولة ـ لا يعقل أن يطمع في زعامة قريش، وينافر زعيمها، فلا بدّ أنه دعيّ ادّعاه عبدشمس، وما أكثر الأدعياء في هذه الأسرة، وحديث زياد وإلحاق معاوية له[5] من أوضح القضايا التأريخية.

هذا، مع أنه إذا سُلّم: أنّ بني أُميّة من قريش، وأعرضنا عن جميع ما أوردناه على التوجيهات الثلاثة، فلايمكن المصير إلى شيء منها؛ لتصريحه

---

(١) الكامل في التاريخ ١: ٤٥٧.

(٢) ـ (٤) نفس المصدر السابق.

(٥) تاريخ الطبري ٤: ١٦٣.

صلى اللّه عليه وآله بكونهم من بني هاشم، كما يروي ذلك إخواننا علماء أهل السنّة، ففي كتاب «ينابيع المودّة»[1] قال: ((كنتُ مع أبي بمجلس رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، فسمعته صلّى اللّه عليه وآله يقول: بعدي اثنا عشر خليفة.

ثمّ أخفى صوته، فقلت لأبي: ما الذي أخفى صوته به؟

قال أبي: قال صلى اللّه عليه وآله: كلّهم من بني هاشم)).

بل إنه صلى اللّه عليه وآله قد ذكر أوّلهم وآخرهم تارة، وتارةً أُخرى ذكرهم واحداً واحداً، كما رواه اخواننا علماء السنّة، ففي كتاب «ينابيع المودّة: ص ٤٤٧» بسنده عن سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس قال: ((**قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله؛ إنّ خلفائي وأوصيائي حجج اللّه على الخلق بعدي اثنا عشر: أوّلهم عليّ، وآخرهم المهديّ**[2])).

وفي كتاب الينابيع أيضاً «ص: ٤٨٦» مسنداً عن رسول ـ اللّه صلى اللّه عليه وآله ـ في حديث طويل ذكر فيه صلّى اللّه عليه وآله فضله وفضل أهل بيته وطرفاً من حديث المعراج، قال:

((فقلت: يا ربّي ومن أوصيائي؟

فنوديتُ: يا محمد تُحبُّ أن تراهم؟

قلت: نعم يا رب.

قال لي: انظر إلى يمين العرش.

فنظرتُ، فإذا عليّ، والحسن، والحسين، وعليّ بن الحسين، ومحمّد بن

---

(١) ينابيع المودة: ٤٤٥، عن عبدالملك بن عمير عن جابر بن سمرة قال:

(٢) ينابيع المودة: ٤٤٧.

عليّ، وجعفر بن محمّد، وموسى بن جعفر، وعليّ بن موسى، ومحمّد بن عليّ، وعلي بن محمّد، والحسن بن عليّ، ومحمّد المهديّ، كأنه كوكب دُرّيّ بينهم.

وقال تعالى: هؤلاء حُجَجي على عبادي، وهم أوصياؤك))[1].

وعلى أيّ حال، فمن المعلوم ضرورةً: أنّ الفرقة الوحيدة التي يكون عدد خلفائها اثني عشر، هي فرقتنا المحقّة.

وقد ذكرت في المقام قصة سمعتها قبل مدّة وخلاصتها:

أنّ رجلاً من إخواننا أهل السُّنّة في الهند قد تشيّع، فاجتمع حوله علماء السُّنّة وأنّبوه على تشيعه.

فأجابهم: إنني رأيت الحقّ مع الشيعة، فاتّبعته، وصرت معهم.

فقالوا له: إجمع لنا علماء الشيعة، ونحن نُثبت لك أنّ الحقّ معنا.

فعُيِّن يوم خاصّ للاجتماع في مكان عامّ، فاجتمع علماء السُّنّة جميعاً، وأتى هذا الرجل المتشيّع وحده.

فقالوا له: أين علماء الشيعة؟

فأجابهم: إني لم أجد داعياً لدعوتهم، وإنّ عندي سؤالاً واحداً إن أجبتموني عليه رجعت إلى مذهبي السابق.

قالوا ما هو هذا السؤال؟

قال: ما تقولون في الحديث المعروف: ((**الخلفاء اثناعشر، وهم من قريش**)).

قالوا: إنه حديث صحيح، روته الصحاح والمسانيد المعتبرة.

---

(١) ينابيع المودة: ٤٨٦.

قال: فمن هم الخلفاء الاثنا عشر؟ فأجابوا: هم الخلفاء الصالحون.

قال: فمن هم؟

فذكروا اثني عشر واحداً من خلفاء المسلمين، فناقشهم في صلاح بعضهم، وادّعى أنّ غيرهم أولى منهم، فبدّلوا أربعة منهم بأربعة أُخرى.

فقال لهم: إنّ مذهباً يتغيّر أربعة من أئمته في ساعة واحدة لاخير فيه.

[توجيه السيوطي هوالأغرب]:

وأغرب من التوجيهات الثلاثة السابقة ما روي عن السيوطي، ورواه عنه العلاّمة محمود أبو ريّه، فقد ذكر ما يأتي في كتابه «أضواء على السنّة المحمّدية»[1]: (أمّا السيوطي فبعد أن أورد ما قاله العلماء في هذه الأحاديث المشكلة، خرج برأي غريب نورده تفكهة للقرّاء وهو:

(و على هذا فقد وُجد من الاثني عشر: الخلفاءُ الأربعة، و الحسن، و معاوية، و ابن الزبير، و عمر بن عبدالعزيز، و هؤلاء ثمانية، و يحتمل أن يُضمّ إليهم المهديّ من العبّاسيين؛ لانه فيهم كعمر بن عبدالعزيز في بني أُمية، وكذلك الظاهر؛ لما أُوتيه من العدل، و بقي الاثنان المنتظران أحدهما المهديّ؛ لأنه من أهل بيت محمد).

ثمّ علّق أبو ريّة بقوله: (ولم يبيّن ـ أي السيوطي ـ المنتظر الثاني، ورحم اللّه من قال في السيوطي: إنه حاطب ليل ... الخ).

ثمّ ذكر في الهامش يرجع إلى (ص ١٧٩ ـ ١٨٣ ج ١٣) من فتح الباري وتاريخ الخلفاء.

---

(١) أضواء على السنّة المحمّدية: ٢٣٥.

أقول: ولم يذكر خصوصيّة هؤلاء، وما الذى امتاز به معاوية؟ وهو الذي شقّ عصا المسلمين، وقتل الصالحين، وألحق ابن الزنا بالفراش.

وما الذي امتاز به المهديّ عن أسرته؟ وهو الذي ملأ أرض فخّ بدماء آل رسول اللّه.

والحقّ مع «أبي رية»، إذ وصف الأخبار بكونها مشكلة؛ إذ لا تتّفق إلاّ على رأي الإماميّة الاثني عشريّة.

بل إنّ جميع هذه التوجيهات الأربعة تنافي الحديث المشهور عندهم، الذي ذكر الشيخ «أبوريّة» في كتابه[1] أنه أخرجه أصحاب السُّنن، وصحّحه ابن حبّان وغيره. ((**الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثمّ تكون مُلكاً**)).

[طائفة: لكلّ زمانٍ إمام]:

الطائفة الثانية: من الأخبار التي تدلّ على وجود إمامنا المهديّ وإن لم يُصرَّح فيها باسمه الشريف، ما دلّ على أنه لا بدّ وأن يكون لكلّ زمانٍ إمام، كالحديث المعروف عند الفريقين، وهو قوله صلى اللّهُ عليه وآله: ((**من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية**))[2].

وهذا الحديث الشريف يرويه جمع من علماء أهل السُّنّة كالعلاّمة المعتزلي في شرح النهج (ج٣ ص٢٦٢)، والنووي الشافعي في (ص ١٦٤) من كتابه «رياض الصالحين» المطبوع في مصر سنة (١٣٤٤).

فإنّ هذا الحديث واضح الدلالة على أنّ لكلّ عصر إماماً؛ إذ لا معنى

(١) اضواء على السُّنّة المحمدية: ٢٣٥.

(٢) المعجم الكبير للطبراني ١٠: ٢٨٩/ ح١٠٦٨٧.

لوجوب معرفته مع عدم وجوده، ومن المعلوم أنه ليس في العالم الإسلامي اليوم من تُتوهّم إمامته وتجب معرفته سواه عليه السلام.

والحاصل: أنّ عدم إمامة سواه يُعيِّن أنه الإمام الموجود، والأخبار المصرِّحة بوجوده، والتي تذكر أنّ الائمة اثنا عشر تعيّنه أيضاً.

[مصلح آخر الزمان من آل محمد]:

الطائفة الثالثة: الأخبار الدالّة على أنه سيظهر في آخر الزمان رجل من آل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، وأنه لولم يبقَ إلاّ يومٌ من الدُّنيا، لَطوَّل اللّه ذلك اليوم، حتّى يبعث المهديّ:

منها: ما عن أبي داود في صحيحه[1] عن عبداللّه بن مسعود عن النبيّ صلى اللّه عليه وآله أنه قال: ((**لو لم يبقَ من الدُّنيا إلاّ يوم لَطوَّل اللّه ذلك اليوم، حتّى يبعث فيه رجلاً منّي**)).

وروى قريباً منه الشبلنجي في «نور الأبصار»[2]، وعن أبي داود في صحيحه:[3] أنه قال: ((**لو لم يبقَ من الدُّنيا إلاّ يوم لَطوّل اللّه ذلك اليوم حتى يلي رجل من أهل بيتي**)).

وقد نقل مثله عن صحيح الترمذي[4] وقريب منه عن الصواعق وإسعاف الراغبين، وعن ابن ماجة والترمذي وأبي داود والإمام أحمد وابن حجر أنهم رووا: أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله قال: ((لو لم يبقَ

(١) صحيح أبي داود ٢: ٢٠٧/ أوّل كتاب المهديّ.

(٢) نور الأبصار ـ موسوعة الإمام المهدي «عج»: ٣٨٤/ سطر ٢٠ ـ ٢٢.

(٣) صحيح أبي داود ٢: ٢٠٧/ أوّل كتاب المهدي.

(٤) صحيح الترمذي ٤: ٤٣٨/ ح٢٢٣٠ باب ٥٢ ماجاء في المهدي.

من الدهر إلاّ يومٌ لبعث الله فيه رجلاً من عترتي))، ولا ريب أنّ الإمام المهديّ هوالمراد من هذه الأخبار؛ إذ ليس سواه من عترة النبيّ وأهل بيته يظهر آخر الزمان قطعاً.

ولقد ذكر صلّى الله عليه وآله ما يقتضي تعيينه، فذكر تارة: أنه من وُلده، وذكر ثانيةً: أنه من ولد عليّ، وذكر ثالثة: أنه من وُلد الحسين، وذكره رابعةً: باسمه ونسبه.

وكلّ ذلك رواه عنه إخواننا علماء أهل السُّنّة:

ففي كتاب «ينابيع المودة:[1] ص ٤٤٨» قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله **((المهديُّ من وُلدي تكون له غيبة إذا ظهر يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما مُلئت ظلماً وجَوراً))** وفي «الينابيع»[2] أيضاً (ص: ٤٤٨) مسنداً عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: **((إنّ علياً وصيّ، ومن وُلده القائم المنتظر المهديّ، الذي يملأ الأرض قسطاً وَعدلاً، كما مُلئت ظُلماً وجَوراً))**.

وفي كتاب «المهديّ» لسيّدنا العمّ، عن كتاب «عقد الدرر»[3]، عن الحافظ أبي نعيم في كتابه «صفة المهديّ» بسنده، عن حذيفة بن اليمان، قال: **((خطبنا رسول الله صلّى الله عليه وآله، فذكر لنا ما هو كائن إلى يوم القيامة، ثم قال:**

---

(١) ينابيع المودة: ٤٤٨.

(٢) ينابيع المودة: ٤٤٨.

(٣) عقد الدرر: ٢٤/ الباب الأوّل في بيان أنه من ذُريّة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وعترته. بتفاوت يسير.

لو لم يبقَ من الدُّنيا إلاّ يومٌ واحد، لطوَّل اللّه ذلك اليوم، حتى يبعث اللّه رجلاً من وُلدي، اسمه اسمي.

فقام سلمان، فقال يا رسول اللّه من أيّ ولدك؟

فقال: هو من وُلد هذا، وضرب بيده على الحسين)).

وفي كتاب «الينابيع:[1] ص: ٤٩٤» بسنده، عن جابر بن عبداللّه الأنصاري قال:

((قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله: يا جابر إنّ أوصيائي وأئمة المسلمين من بعدي أوّلهم عليّ، ثّم الحسن، ثمّ الحسين، ثمّ علي بن الحسين، ثمّ محمد بن علي المعروف بالباقر، ستدركه يا جابر، فإذا لقيته فاقرأه عنّي السلام، ثمّ جعفر بن محمد، ثمّ موسى بن جعفر، ثمّ علي بن موسى، ثمّ محمد بن عليّ، ثمّ عليّ بن محمد، ثمّ الحسن بن عليّ، ثمّ القائم، اسمه اسمي، وكنيته كنيتي، ابن الحسن بن عليّ، ذلك الذي يفتح اللّه على يده مشارق الأرض ومغاربها، ذلك الذي يغيب عن أوليائه غيبة لايثبت على القول بإمامته، إلاّ من امتحن اللّه قلبه للإيمان)).

[شبهات وردود حول الإمام المهديّ «عج»]:

وهنا ـ بعد أن ثبت بالأدلّة الأربعة وجود سيّدنا الإمام المهدي ـ عليه السلام ـ ينبغي ذكر بعض ما يخطر في الذهن من الأسئلة مع الجواب عليها:

---

(١) ينابيع المودة: ٤٩٤.

[هل الصغر مانع من الإمامة؟]:

السؤال الأوّل: أنّ الإمام المهديّ المنتظر ـ على ما في كتب التاريخ ـ قد تُوفّي أبوه وهو في الخامسة من عمره، فكيف يمكن أن يصل إلى مرتبة الإمامة وهو في هذه السنّ المبكّرة قبل البلوغ؟

والجواب: أنه بناء على ما هو الحقّ من أنّ أمر الإمامة والخلافة، كأمر النبوّة والرسالة، بيدالله سبحانه وتعالى، وأنّ علم الإمام كعلم النبي، إنما هو بإلهام من الله تبارك وتعالى، فلا فرق بين الكبير والصغير، ولا يمنع العقل من إعطاء الإمامة للطفل وإلهامه العلم، فإذا قام الدليل عليه فلا بدّ من تصديقه، وليس هو عليه السلام أوّل من وصلته الإمامة وهو صغير، فإنّ جدّه عليّ بن محمد الهادي وصلته الإمامة، وهو في الثامنة من عمره الشريف، وجدّه محمد بن علي الجواد أتته الإمامة، وهو في السابعة من عمره الشريف، وإذا جاز أن تعطى النبوّة لغلام، جاز أن تُعطى الإمامة لغلام أيضاً، ولو لم يكن الأوّل جائزاً لما وقع، وقد صرّح الله تبارك وتعالى بوقوعه بقوله في كتابه الكريم؛ حيث قال في سور مريم[1] ﴿يَا يَحيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ وآتَينَاهُ الحُكمَ صَبِيّاً﴾، وقال تعالى عن عيسى: ﴿فَأشَارَت إليهِ قَالُوا كيفَ نُكَلّمُ مَن كَانَ في المهدِ صَبِيّاً * قَالَ إنّي عَبدُ اللّهِ آتَانِيَ الكتابَ وَجَعَلَني نَبِيّاً﴾[2].

وقد استشهد الإمام الجواد بقوله [تعالى]: ﴿وآتَينَاهُ الحُكم صَبِيّاً﴾

---

(١) مريم: ١٢.

(٢) مريم: ٢٩ ـ ٣٠.

لمن استغرب إمامته وهو صبيّ، فعن كتاب «بصائر الدرجات» بسنده عن عليّ بن أسباط، قال: ((رأيتُ أبا جعفر عليه السلام قد خرج، فأحددتُ النظر إليه، وإلى رأسه ورجله؛ لأصف قامته لأصحابنا بمصر، وكأنه عليه السلام شعر من نظراته إليه استغرابه من إمامته في هذه السنّ فخرّ عليه السلام ساجداً، وقال: إنّ اللّه احتجّ في الإمامة ما احتجّ به في النبوّة، قال اللّه تعالى: **﴿وآتيناهُ الحُكمَ صَبِيّاً﴾**، وقال تعالى: **﴿حتّى إذا بَلَغَ أشُدَّهُ، وبَلَغَ أربَعينَ سَنَةً﴾**[1] فقد يجوز أن يُعطى الحكمة وهو صبيّ، ويجوز أن يُعطى الحكمة وهو ابن أربعين سنة)).

[العمر الطويل ليس بمستحيل]:

السؤال الثاني: إنّ لازم ما دلّ على بقاء الإمام المهديّ حتّى الان أن يكون قد تجاوز سنُّه الشريف الألفَ سنة، وكيف يعقل أن يُعمّر الإنسان هذا العمر الطويل؟ وكيف يصحّ أن يعتمد على مادلّ على ذلك؟

والجواب: أنّ طول عمر الإنسان ليس من الأمور المستحيلة التي يحكم العقل بعدم إمكان وقوعها، كاجتماع النقيضين، أو ارتفاع النقيضين، أو اجتماع الضدين، أو ارتفاع الضدّين الذين لاثالث لهما، وإذ لا يلزم من طول عمرالإنسان أيُّ محذور من هذا القبيل، بل هو أمر مخالف للعادة، فإذا قام الدليل عليه نتمسّك به.

هذا على نحو الإجمال، وأمّا على نحو التفصيل، فنقول:

إنّ السائل: إما أن يكون مُسلماً يؤمن بالقرآن الكريم، أو يهودياً أو

(١) الأحقاف: ١٥.

نصرانياً يؤمن بالتوراة أو غير مؤمن بدين على الإطلاق، وإنّما يؤمن بالحسّ والعلم الطبيعي فحسب:

فإن كان السائل من المسلمين فنقول له: كيف تنكر طول عمره الشريف؟! والقرآن الكريم يقول في سورة العنكبوت[1]: ﴿**وَلَقَد أرسَلنَا نوحاً إلى قَومِهِ فَلَبِثَ فِيهِم ألفَ سَنَةٍ إلاّ خَمسِينَ عَاماً**﴾؛ أي أنّ المدّة التي قضاها مع قومه منذ أُرسل بالنُّبوّة إلى الطّوفان ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، ولم يذكره[2]حين البعثة، ولا المدّة التي قضاها بعد الطوفان، وقد اختلفت كلمات المؤرّخين في ذلك، والمشهور أنّ مجموع عمره الشريف (٢٥٠٠) سنة، فإذا أمكن أن يبقى نوح ألف سنة على أقلّ تقدير، فكيف لايمكن ذلك لمهديّ آل محمد؟!

كما أنّ ظاهر القرآن الكريم امكان أن يعيش الإنسان إلى يوم القيامة؛ ففي سورة الصافات[3] قال تبارك وتعالى عن يونس: ﴿**فَلَولا أنّهُ كانَ مِنَ المسبِّحينَ لَلَبِثَ في بَطنِهِ إلى يَومِ يُبعَثُونَ**﴾، فلو كان البقاء إلى يوم القيامة مستحيلاً، لما أمكن بقاء يونُس، كما هو واضح.

وإن كان السائل من اليهود أو النصارى، الذين يُؤمنون بالتوراة، فيقال له: إنّ التوراة قد أخبرت بطول عمر كثير من السابقين، منهم ذوالقرنين، فقد قالت: إنه عاش ثلاثة آلاف سنة، فإذا أمكن ذلك لذي القرنين ولغيره

---

(١) العنكبوت: ١٤.

(٢) أي ولم يذكر مقدار عمره حين البعثة.

(٣) الصافات: ١٤٣ـ ١٤٤.

من السابقين، فكيف لايمكن لمهديّ آل محمد؟!

وإن كان السائل ممّن لايؤمن بدينٍ سماويّ فنقول: إنه ثبت علمياً إمكان إطالة عمر بعض الحيوانات (٩٠٠) ضعف عن عمرها الطبيعي، كما صرّح بذلك طبيب انجليزي في «مجلّة الهلال» (في الجزء الخامس من السنة ٣٨، ص ٦٧، في عدد مارس، سنة ١٩٣٠)، فإذا أمكن لطبيب أن يطيل عمر الحيوان كذلك، أفلا يمكن أن يطيل الله عمر وليّه بالأسباب العاديّة مدّة طويلة؟!

ولقد صرّح بعض الأطبّاء: أنّ الموت ينشأ عن المرض، لا عن الشيخوخة، ولقد ذكر سيّدنا العمّ في كتاب «المهدي» مقالاً (في الجزء٣) عن مدّة عمر الإنسان، وعنوان المقال: «هل يخلد الإنسان في الدنيا»، وقد أثبت هذا الكاتب أنّ الشيخوخة ليست من أسباب الموت وإنّما هي الأمراض، وإليك بعض فقرات ذلك المقال:

(لكن العلماء الموثوق بهم يقولون: إنّ كلّ الأنسجة الرئيسية من جسم الحيوان تقبل البقاء إلى مالا نهاية له، وأنّ في الإمكان أن يبقى الإنسان حيّاً ألوفاً من السنين، إذا لم تعرض عليه عوارض تصرم حبل حياته، وقولهم هذا ليس مجرّد ظنّ، بل هو نتيجة تجارب علمية مؤيّدة بالامتحان).

ثم بعد أن استدلّ الكاتب المذكور على ذلك ببعض التجارب، قال ـ جواباً عن سؤال: إنه لماذا يموت الإنسان؟ ولماذا نرى أنّ عمره لا يتجاوز المائة إلاّ نادراً جدّاً؟ ـ ما يأتي:

(غاية ما ثبت من التجارب المذكورة: أن الإنسان لا يموت؛ لأنه عمّر كذا من السنين ـ سبعين، أو ثمانين، أو مائة، أو أكثر ـ بل لأنّ العوارض

تنتاب بعض الأنسجة، فتتلفها، ولارتباط بعضها ببعض تموت كلّها، فإذا استطاع العلم أن يزيل هذه العوارض، أو يمنع فعلها، لم يبقَ مانع يمنع استمرار الحياة مئات السنين).

إذن فطول العمر ليس سبباً للموت، كما تُوهّم، ولا ريب أنه عليه السلام محافظ على صحّته، وذلك بتطبيقه القواعد الصحّيّة الإسلاميّة؛ من ناحية الهواء، والأكل، والشرب، ولعُلوّ نفسه السامية عليه السلام لا يدع مجالاً للمصائب أن تؤثّر على صحّته الغالية، فيكون محفوظاً من جميع الأمراض، وسالماً من جميع الميكروبات، فلا بُعد في بقائه هذا العمر الطويل.

[ما الفائدة من وجود الإمام مع طول غيبته؟]:

السؤال الثالث: ما الفائدة من بقائه غائباً كلّ هذه السنين؟ وما الذي تستفيده منه الأمّة أيّام غيبته؟

والجواب عن ذلك من وجوه:

أوّلها: ما يظهر من بعض الأخبار المرويّة في كتب الفريقين: من أنّ الأئمة من آل محمد هم الأمان لأهل الأرض ولأجلهم تنزل البركات، فوجوده هو السبب لجميع البركات؛ إذ لولا وجوده الشريف لارتفع الأمان، و لانقطعت البركات وممن روى ذلك من علماء إخواننا أهل السنّة العلاّمة الشيخ سليمان ـ المعروف بخواجه كلان، من أكابر علمائهم في القرن الماضي ـ في كتابه «ينابيع المودّة»[1] ـ عن كتاب «فرائد السمطين»

(١) ينابيع المودة: ٤٧٧، لكنه نقله عن الإمام الصادق عليه السلام، عن أبيه، عن جدّه عليّ بن الحسين عليهما السلام.

لأحد علمائهم أيضاً ـ أنه يروي مسنداً عن مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام أنه قال:

((**نحن أئمة المسلمين، وحجج اللّه على العالَمين، وسادات المؤمنين، وقادة الغُرّ المحجَّلين، وموالي المسلمين، ونحن أمانٌ لأهل الأرض، كما أنّ النجوم أمان لأهل السماء، وبنا يُمسك السماءَ أن تقعَ على الأرض، ولولا ما على الأرض منّا لساخت بأهلها**)).

ثاني فوائد وجوده الشريف: أنه متى ما التفت الناس إلى واجبهم، وأصلحوا أنفسهم، وصاروا أهلاً لأن يقودهم إمامهم يكون الإمامَ القائد. وكفى هذا ثمرةً لوجوده الشريف.

ومثاله العرفي: أنه إذا قُدّم للمريض دواء، ولم يكن متمكّناً من شربه، أو كان ممتنعاً من ذلك، وكانت حياته متوقّفة على ذلك الدواء، فلا إشكال في أنّ وضع الدواء إلى جنبه من أفضل الأشياء وأفيدها له؛ لكي يشربه حينما يتمكّن إن كان عاجزاً، أو حينما يقتنع بفائدته إن لم يكن مقتنعاً.

فبوجود الإمام عليه السلام تتمّ الحجّة على العباد، ولا يكون لهم الحجّة على اللّه، ولقد ذكر ذلك مولانا أمير المؤمنين عليه السلام «في الجزء الثالث من شرح النهج[1]: ((**أللّهمّ لا تخلو الأرض من قائم للّه بحجّة إمّا ظاهراً مشهوراً، أو خائفاً معذوراً؛ لئلاّ تبطل حجج اللّه وبيّناته**)).

(١) شرح نهج البلاغة ٥: ٤٣٥/ ح١٤٣.

الفائدة الثالثة: أنه عليه السلام قد يقوم في أيّام غيبته ببعض الأُمور النافعة للأُمّة: فكم من كُربة دفعها عن شيعته، وكم من بليّة رفعها عن أوليائه، فمن ذلك ما يُحكى عن حاكم ظالم في البحرين: أنه جمع أهل البحرين وسألهم عن مسائل عجزوا عن جوابها فالتجؤوا إلى إمامهم عليه السلام، فعلمهم الجواب، وأنقذهم من الهلاك.

ولقد صرّح بذلك مولانا أمير المؤمنين عليه السلام قال ـ كما في «ينابيع المودّة»[1]: ص٤٣٧» ـ **((منّا المهديّ الذي يسري في الدنيا بسراج منير، ويحذو فيها على مثال الصالحين؛ ليحلّ رَتْقاً،[2] ويعتِقَ رِقّاً، ويصدَعَ شَعْباً،[3] ويشعَب صَدْعاً،[4] في سترة عن الناس لا يصُرُ القائف[5] أثره، ولو تابع نظره))**.

[كيف يظهر الإمام مع انتشار الظلم؟]

السؤال الرابع: إذا كانت غيبته لأجل خوفه من أعدائه وعدم توفّر الأنصار له بقدر الكفاية ـ كما تصرّح بذلك الأخبار ـ فكيف يظهر في زمان يمتلئ بالظلم والجور؟ ومن المعلوم أنّ الظلم والجور، كلّما ظهر وانتشر، يكثر أعداء الإمام، ويقلّ أنصاره.

والجواب: أنه لا ملازمة بين امتلاء الأرض ظلماً وجَوراً وبين قلّة أنصار

---

(١) ينابيع: ٤٣٧.

(٢) الرّتْق: ضدّ الفَتْق.

(٣) أي يشقّ جمعاً.

(٤) أي يجمع تفرّقاً، والصدْع: الشقّ في شيء صلب.

(٥) أي المتتبِّع للأثر، قاف يقوف قَوْفاً فهو قائف.

المهدي عليه السلام؛ لوضوح أنّ كثرة الفساد قد توجب قوّة المسلمين، وتنبُّه أهل الدين إلى لزوم المحافظة على دينهم والدفاع عنه، كما ظهر لنا ذلك بالوجدان في السنين التي ظهرت فيها قُوى الإلحاد، فقد أوجب ذلك تنبُّه الناس إلى إسلامهم في الجملة، فإذا زاد الظلم والفساد حتى ملأ الأرض - كما في الأخبار - زاد انتباه المؤمنين، ونمت فيهم قوة وعزيمة للدفاع عن دينهم وعقيدتهم، والاجتماع تحت لواء الإمام المهديّ لإحياء الإسلام.

وبتعبير آخر: أنّ الإسلام لم يضعف لقلّة المسلمين، أو لارتدادهم عن دينهم، بل لعدم التفاتهم إلى لزوم الدعوة إلى دينهم وإلى قرآنهم، وغفلتهم عن نظامهم الذي اختاره اللّه لهم، وتناسيهم أنّ معنى المسلم من سلّم أمره للّه، وأخذ من ربّه جميع ما يحتاج إليه من عقيدة ونظام، وطبّق جميع عباداته ومعاملاته وعلاقاته الاجتماعيّة والسياسيّة على وفق الإسلام، فإن الغفلة عن كلّ ذلك أدّت بالمسلمين إلى أن يأخذوا نظامَهم من أعدائِهم، ومبادئَهم ممّن خدعهم، ويتركوا الدعوة إلى دينهم واتّباع ما فيه من نظم صالحة لا تنجح الأمّة في الدُّنيا والآخرة إلاّ باتباعها، فلعلّ القلّة من المؤمنين في ذلك العصر يلتفتون إلى ذلك، وإلى فشل جميع النظم التي جاء بها البشر لحلّ مشاكلهم، وأنه لامُنقذ من الفقر والمرض والاستعمار وسائر المشاكل الداخلية والخارجية، إلاّ الإسلام الذى يرفع لواءه الإمام المهديّ عليه السلام، وكيف لا يعالج الإسلام الفقر، ونظامه الاقتصادي لا يُبقي فقيراً، ولا يفقر غنيّاً؟!

وكيف لا يمحق الاستعمار ونبيّ الإسلام صلّى اللّه عليه وآله يقول:

((**الإسلام يعلو، ولا يُعلى عليه**))[١] وكتاب الإسلام ودستوره ونظامه القرآن الكريم [يقول][٢]: ﴿**ولَنْ يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ على المُؤْمِنِينَ سَبيلاً**﴾[٣].

وكيف لا يجمع كلمتهم الإسلام ونبيّه يقول: ((**كلّهم من آدم وآدم من تراب**))؟!

وكيف لا يُنقذهم من التمييز العنصري؟! وإمام المسلمين أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول:[٤]

النّاسُ من جهة الأنسابِ أكْفاءُ أبوهُمُ آدَمٌ و الأمُّ حوّاءُ

(١) الوسائل ١٧: ٣٧٦/ ح ١١ باب (١) من ابواب موانع الارث.

(٢) إضافة يقتضيها السياق.

(٣) النساء: ١٤١.

(٤) ديوان الإمام على عليه السلام أميرالمؤمنين: ٧.

سيرته عليه السلام

سيرته عليه السلام أعدل سيرة وأفضلها وأنفعها للمجتمع؛ لأنه عليه السلام يسير على سيرة جدّه سيّد البشر وأفضل الكائنات نبيّنا الأعظم صلّى اللّه عليه وآله، ويمشي على سُنته، كما دلت على ذلك الأخبار المعتبرة الواردة من الطرفين، والتي يرويها علماء الفريقين، ولنقتصر على ذكر بعض الروايات التي يرويها أكابر المُحدّثين والحُفّاظ من إخواننا أهل السُّنّة:

فمنها: ما عن كتاب «عقد الدرر» يروي بسنده: ((**أنّ أحد الرواة سأل الإمام محمد الباقر عليه السلام عن المهديّ بِمَ يسير؟ قال عليه السلام: بما سار به رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله**)).

وثانيها: ما عن كتاب «الفتوحات المكيّة»[1]: أنّ النبيّ صلّى اللّه عليه وآله ذكر المهديّ عليه السلام فقال: ((**يقفو أثري لا يخطي**)).

وثالثها: ما عن صحيح أبي داود[2] (ص٨٨) عن أُمّ سلمة زوج النبيّ

---

(١) الفتوحات المكيّة لابن عربي الباب السادس والستون وثلاثمائة ـ المطبوع ضمن موسوعة الإمام المهدي «عج»: ٣٣/ سطر ١٠، و ٣٦/ سطر ٢٩ ـ ٣٠.

(٢) صحيح أبي داود ٢: ٢٠٨ كتاب المهدي.

صلّى اللّه عليه وآله في حديث ذكر فيه المهديّ وأيّامه، فقال صلّى اللّه عليه وآله: ((**ويعمل الناس بسنّة نبيّهم، ويُلقي الإسلام بِجرانه إلى الأرض**)).

والجِران: رقبة البعير، فإنّ البعير يُلقي رقبته على الأرض حين جلوسه ومراده عليه السلام: أنّ الإسلام يستقرّ، ويتمّ نوره، وتعلو كلمته، حين ظهور المهديّ عليه السلام، وعمله بسُنّة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله؛ إذ يرى الناس عظمة هذا الدين وسُمُوّ مبادئه وعدالة نظامه وقانونه، فيتّبعون الإسلام، وحينئذ يُطبّق النظام الإسلامي حقّ تطبيقه، ويُلزِم الإمامُ المهديّ باتّباع القرآن وسُنّة النبيّ الأعظم صلّى اللّه عليه وآله، كما ورد ذلك في كثير من الأحاديث المعتبرة عند الطائفتين.

ومن جملة تلك الروايات التي يرويها حُفّاظ أهل السُّنّة ما في صواعق ابن حجر:[١] أنّ النبيّ صلّى اللّه عليه وآله قال: ((**إنّ المهديّ رجل من عِترتي يُقاتل على سُنّتي**))؛ أي يُلزم الناس باتّباع سُنّته، ويقاتل من يأبى ذلك، ولا إشكال في أنه ليس في سُنّته ظلم ولا عَنَت ولا جَور؛ لأنّ سُنّته صلّى اللّه عليه وآله هي سنّة الإسلام الكاملة، ونظامه هو نظام الإسلام العادل، وحكمه هو حكم اللّه الذي ارتضاه لعباده، فإذا سار المهديّ بهذه السيرة، فسوف لن يبقى جَور إلاّ ويُرفع، ولا ظلم إلاّ ويُبّدل، كما في صحيح أبي داود[٢] وفي غيره من كتب الفريقين[٣] عن النبيّ صلّى اللّه عليه وآله

---

(١) الصواعق المحرقة: ١٦٤.

(٢) صحيح أبي داود ٢: ٢٠٧/ أوّل كتاب المهدي.

(٣) الصواعق المحرقة: ١٦٣، كتاب الغيبة للطوسي: ١١٢.

أنه قال: **((لو لم يبقَ من الدهر إلاّ يوم لَبعث اللّهُ رجلاً من أهل بيتي يملؤها عدلاً كما مُلئت جوراً))**.

وقد استفاض هذا الحديث عند الفريقين، وأنه عليه السلام يملأ الأرض عدلاً، كما مُلئت جوراً، وليس معنى الحديث أنه يحكم بالعدل فقط، بل معناه أنه لا يُبقي في الأرض أيَّ جَور أو ظلم بتطبيقه للإسلام، وإفهامه للناس حقيقته، وإرشادهم إلى ما في الشريعة الإسلامية من محاسن، وأنّ نظامها هو النظام العادل، وأنه لا تُحلّ المشاكل الاجتماعية إلاّ باتّباع الإسلام.

وحين يرى العالَم عدالة هذا النظام، وأنه النظام الوحيد الذي يُسعد الإنسان لا في آخرته فقط، بل في آخرته ودنياه، فسوف يستجيب له، ويدخل الناس في دين اللّه أفواجاً، كما دخلوا في صدر الإسلام، فتعلو كلمة الاسلام، وتملأ كلمة «لا إله إلاّ اللّه» جميع بقاع الأرض، ولا يبقى مشرك فيها، كما دلّت على ذلك الأخبار المعتبرة عند الفريقين:

فعن كتاب «عقد الدرر»[1] للعلاّمة جمال الدين الشافعي في خبر يرويه عن حذيفة بن اليمان، عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في حديث ذكر فيه المهديّ، فقال: **((يرُدّ اللّه به الدينَ، ويفتح له فتوحاً، فلا يبقى على وجه الأرض إلاّ من يقول: لا إله إلاّ اللّه))** ومعنى يردّ اللّه به الدين: أي أنّ الدين ـ عند ظهور المهديّ ـ منسيّ عند الناس، ومعرَض عنه حتّى عند المسلمين.

وعلى هذا الأساس ـ أيضاً ـ قال النبيّ صلّى اللّه عليه وآله: حينما يَظهر

---

(١) عقد الدرر: ٣١ ـ ٣٢/ الباب الثاني في اسمه وخلقه وكنيته.

المهديّ يُظهر الإسلام، فإنه يريد بذلك أنّ المهديّ يُبرز الإسلام بحقيقته، [و][1] يقضي على جميع القوى التي تعمل لإخفائه ومنعه من الظهور على مسرح الحياة، ويُحبط جميع المؤامرات التي مُنيت بها الأمّة الإسلامية، واستهدفت إعماءهم عن شمس الإسلام وهداه، حتى أصبحوا يعيشون في ظلّ أحكام الكفر.

فالإمام المهديّ حين يَظهر سوف يُظهر هذا الكنز العظيم، ويجعل المسلمين يحسّون بمدى الثروة الهائلة التي يملكونها في هذا الكنز الجامع لسعادة الدارين، وإلى ذلك يشير قول النبي صلّى اللّه عليه وآله ـ كما في «عقد الدرر» ـ[2]: ((**ويملأ قلوب أمّة محمد غنًى، ويسعهم عدله**)).

وليست المسألة مسألة إحساس فحسب، بل مسألة استثمار أيضاً، فالإمام لا يجعل المسلمين يحسّون بعظمة الكنز فقط، بل يستثمره بأروع ألوان الاستثمار بتطبيق الشريعة في كلّ الحقول، ويعمّ بذلك العدل، ويسود الرضا والاطمئنان كلّ الناس، وتختم حياة القلق والاضطراب والاستياء التي عاشها البشر على مرّ التاريخ، ولهذا قال النبي: ((**يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض**))[3].

---

(١) في الأصل: (يكون)، والصحيح ما أثبتناه.

(٢) عقد الدرر: ١٦٥/ الباب الثامن «في كرمه وفتوّته».

(٣) عقد الدرر: ١٧/ الباب الأوّل في بيان أنه من ذُرّيّة رسول الله صلى اللّه عليه [وآله] وسلّم وعترته، بتفاوت يسير، البيان في أخبار صاحب الزمان عليه السلام للكنجي الشافعي: ١٢٣/ الباب العاشر في ذكر كرم المهدي عليه السلام، إسعاف الراغبين ـ المطبوع ضمن موسوعة الإمام المهدي «عج»:

فإذا سأل سائل: إذا كان حكم المهديّ مرضيّاً للجميع؛ لأنه يطبّق الإسلام تطبيقاً كاملاً، فلماذا لم يرضَ بعض الناس في عهد أمير المؤمنين عن حكمه مع أنه مثال الحاكم الإسلامي العادل؟

أجبنا على ذلك: أنّ الفرق يكمن في اختلاف العصرين في مستوى التمييز، فإنّ العامّة على عهد أمير المؤمنين عليه السلام لم يكونوا في مستوىً من الرشد والتمييز يتيح لهم إدراك حقيقة الحكم الذي يعيشونه ومكاسبه الروحية والمادّية، وإنّما كانوا على الغالب تبعاً لرؤسائهم المصلحيّين، الذين رأوا في معارضة علي عليه السلام سبيلهم الوحيد إلى الحفاظ على نفوذهم واستغلالهم.

وأمّا في عهد المهديّ فالناس أقدر على التمييز، نتيجة للتجارب المختلفة التي مرّت بها الإنسانية في العصور المتأخّرة.

وكيف لا ترضى الأمّة عن حاكم يقسم بالسويّة، ويعدل بين الرعيّة؟! فلقد ورد عن النبيّ صلّى اللّه عليه وآله أنه قال كما في كتاب «عقد الدرر»[1]: ((**تنعَم أمّتي في زمن المهدي نعمة لم تنعم مثلها قطّ**)) وفي

٣٧٠، نور الأبصار ـ من هذه الموسوعة أيضاً: ٣٨٤/ سطر ٢٨، الإشاعة لأشراط الساعة ـ ضمن الموسوعة أيضاً: ٢٢٦، كنز العمّال الجزء الرابع عشر/ ح ٣٨٦٥٣ و ٣٨٧٠٨ باب خروج المهدي، الحاوي للفتاوى للسيوطي ـ المطبوع ضمن الموسوعة: ١٢٩ و ١٤٠ و ١٦٦.

(١) عقد الدرر: ١٦٩/ الباب الثامن في كرمه وفتوّته، ينابيع المودّة: ٤٨٨، البيان للكنجي الشافعي: ١٤٥/ الباب الثالث والعشرون، نور الأبصار: ١٧١ ، الحاوي للفتاوى للسيوطي الجزء الثاني: ١٣١ـ ١٣٢ و ١٣٦ و ١٤١ و ١٤٢ ـ والأخير من موسوعة الإمام المهدي «عج».

حديث آخر عنه ـ صلى اللّه عليه وآله ـ أنه قال: ((**تنعَم به الأُمة**))[1].

وكيف لا يرضى الناس؟! والإمام المهديّ يرفع عنهم الفقر، كما ورد في الحديث ((**ولا يجد الرجل منكم ـ يومئذٍ ـ موضعاً لصدقته ولا برّه**))؛[2] لشمول الغنى جميع المؤمنين.

وكيف لايرضى الناس، و الأمن يعمّ جميع البلاد، حتى تخرج العجوز الضعيفة من المشرق إلى المغرب، فلا يؤذيها أحد؟! كما استفاض ذلك في كتب الفريقين، ككتاب «ينابيع المودة»[3] وغيره، فذلك هو الحُكم العادل الذي به حياة الأرض، كما أنّ بالظلم موتها.

ففي كتاب «ينابيع المودّة»[4] في تفسير قوله تبارك وتعالى في سورة الحديد[5]: ﴿**إعْلَمُوا أنَّ اللّهَ يُحْيِي الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِها**﴾: أنّ النبيّ صلّى اللّه عليه وآله قال: ((**يُحييها بالقائم عليه السلام، فيعدل فيها، فيُحيي الأرض بالعدل بعد موتها بالظلم**)).

وبهذه السيرة العادلة تعمر الأُرض في أيّامه، كما يدلّ على ذلك ما عن كتاب «إسعاف الراغبين»[6]: أنّ النبيّ صلّى اللّه عليه وآله قال ـ بعد أن

(١) الحاوي للفتاوى للسيوطي الجزء الثاني: ١٣٧ من موسوعة الإمام المهدي «عج».

(٢) كنز العمّال ١٤: ٢٠٤/ ح٣٨٤٠١، والحديث منقول بالمضمون.

(٣) ينابيع المودّة: ٤٣٠ ـ ٤٣١.

(٤) ينابيع المودّة: ٤٢٩.

(٥) الحديد: ١٧.

(٦) إسعاف الراغبين : ١٤٠ / الباب الثاني .

ذكر المهديّ وظهوره ـ ((**ولا يبقى في الأرض خراب إلاّ يعمره**)).

وقد وصف سيرته جدّه أميرالمؤمنين عليه السلام بقوله: ((**المهديّ يعطف الهوى على الهدى إذا عطفوا الهدى على الهوى**[١]**، ويعطف الرأي على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرأي، ويريكم كيف عدل السيرة، ويحيي ميت البلاد والسنّة**))؛[٢] يريد عليه السلام أنّ المهديّ يجعل هواه وفق الهُدى[٣] ورأيه وفق القرآن، و لاغرو في ذلك من مهديّ آل محمد، فهو أشبه الناس برسول اللّه وسيرته خَلْقاً وخُلُقاً، ففي حديث يرويه في «ينابيع المودّة»[٤] عن الرسول الأعظم صلّى اللّه عليه وآله أنه ذكر المهديّ، فقال: ((**أشبه الناس بي خَلْقاً وخُلُقاً**)) وفي حديث آخر: ((**أنه ليس في حكمه ظلم ولا عَنَت**))، وفي آخر: ((**أنه لا يبقى مظلوم إلاّ ورَدّ عليه ظلامته**)).

فمن كانت هذه سيرته لابدّ وأن يكون أحبّ الناس للناس؛ لأنّ من أهمّ أسباب حبّ الحاكم هو سيرته وعدله.

الأبصار : ١٧١ / تتمة في الكلام عن أخبار المهدي .

(١) في الأصل: (الهدى)، والصحيح ما أثبتناه.

(٢) ينابيع المودة: ٤٣٧ .

(٣) في الأصل: (الهوى)، والصحيح ما أثبتناه.

(٤) ينابيع المودة: ٤٨٨ .

علامات ظهوره

ذكرت الأخبار كثيراً من الأمور التي تقع في آخر الزمان بعضها من مقدّمات ظهور إمامنا مهديّ آل محمد ـ عجّل الله فرجه ـ وبعضها من شرائط الساعة ومقدماتها، وقد وقع الخلط ما بين القسمين.

والأشياء المذكوة من مقدّمات ظهوره ـ وهي المسمّاة بعلامات الظهور ـ على نوعين:

أوّلها: هي الأمور التي لابدّ من وقوعها قبل ظهوره، ولا يشترط أن تكون من المقدّمات القريبة: بل المراد من ذكرها بيان أنه عليه السلام لا يظهر مالم تحصل هذه الأمور، ومن هذه الأمور انتهاء حكم بني العبّاس[1]، فإنّ المراد أنّ المهديّ عليه السلام لايظهر في عهد الدولة العبّاسيّة، وليس المراد أنّ انتهاء حكم بني العبّاس من المقدّمات القريبة، وأنه بمجرّد انتهاء حكومتهم يكون الفرج.

ثانيها: الأمور التي تقع قريب ظهوره عليه السلام: فوقوع الأمور

---

(١) كتاب الغيبة للنعماني: ٢٥٩/ ح١٨ ـ الباب ١٤ ماروي في العلامات التي تكون قبل قيامه عليه السلام.

المذكورة في النوع الأوّل مع عدم ظهوره، لا يقدح في صحّتها.

ثم إنّ علامات الظهور ـ على ما يظهر من الأخبار ـ بعضها حتميّة لابدّ من وقوعها، وبعضها ليست كذلك، بل يمكن أن لا تقع، ولا يهمّنا تفصيل الكلام في علامات الظهور، وقد ظهرت في الكتب المعتبرة عند الفريقين، وإنّما نذكر واحدة من تلك العلامات:

وهي خروج الشمس من [المغرب][1]: فقد ذكرها بعضٌ[2] من علامات الظهور، وإن كانت الأخبار التي رأيتها تذكرها من الأشياء التي تقع قبل يوم القيامة،[3] وهي المسمّاة بشرائط الساعة، لا من علامات الإمام المهديّ عليه السلام، وقد استبعد جماعة وقوع ذلك، واستغرب آخرون، وادّعوا عدم معقوليّة ذلك، وطعنوا في الأخبار المشتملة عليها.

وتصدّى جماعة لتوجيه ذلك بدعوى: أنّ الإمام المهدي يظهر من جهة الغرب، وأنّ المراد من الشمس شمس الهداية والإرشاد، وذلك كناية عن الإمام المهدي عليه السلام.

هذا، ولكن العلم الحديث أثبت إمكان ذلك، بل وقوعه في المستقبل، فقد نشرت جريدة الزمان البغدادية في إحدى أعدادها الصادرة في شهر شعبان سنة(١٣٨١): أنه منذُ بداية القرن الحالي أخذ القطب الشمالي يتحرك صوب «الغرنيلاند» ـ وهي على ما يظهر من الخارطة مكان يقع

---

(١) في الأصل: (المشرق)، والصحيح ما أثبتناه.

(٢) ينابيع المودة: ٤٧٦.

(٣) كتاب الغيبة للطوسي: ٢٦٧، صحيح مسلم ٢: ٥٥٨.

في الاتّجاه الجنوبي للقطب الشمالي ـ ومقدار حركته يزيد على نصف قدم كلّ عام، وهذه الحركة ـ كما يقول الاستاذ «وليم موندي» الأستاذ بجامعة «كاليفورنيا» ـ سببها ذوبان الغلاف الثلجي «الغرنيلاند»، ومع استمرار هذه الحركة سوف يوجب انقلاب الكرة الأرضية، ويكون شرقُها غرباً، وغربُها شرقاً.

سبحان اللّه من أين علم ذلك نبيّنا الأعظم صلّى اللّه عليه وآله هذا الاكتشاف العلمي الحديث، وهو في بلد بعيد عن العلم في عصر بعيد عن الثقافة؟! وإنّ هذه الأخبار وأمثالها من علامات نبوّته، والأدلّة على رسالته.

واجبنا في زمان الغيبة

الذي يظهر من الأخبار المذكورة في كتب الفريقين: أنّ من أفضل الأعمال أيام الغيبة، هو انتظار الفرج، وترقّب ظهوره عليه السلام ففي كتاب «ينابيع المودة»[1] عن «مناقب الخوارزمي»، قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله: ((**أفضل العبادة انتظار الفرج**))؛ أي انتظار الفرج لظهور المهديّ.

و لا يخفى كثرة الفوائد التي تترتّب على انتظار الفرج، و لنذكر بعضها:

أوّلها: أنّ المنتظِر للفرج يهون عليه ما يرى من قوّة دول الظلم؛ لأنه يعلم أنه ستظهر دولة الحقّ والعدل دولة مهديّ آل محمد، وأنه سيعلو في أيامها الإيمان وأهله، ويعتزّ بها الإسلام وأتباعه، ويذلّ بها الكفر والنفاق، ويؤمّل نفسه هذا المنتظِر أن يأتي يومٌ يعود القرآن فيه دستور الأمّة في حياتها، ويكون نظامَها الذي تسير عليه، فيهون عليه ما يرى من الظلم

---

(١) ينابيع المودة: ٤٩٤.

والفساد، وانتشار الدعوة إلى الباطل.

ثانيها: أنّ منتظِر الفرج لا بدّ وأن يرغب في أن يكون من أصحاب الإمام المهديّ وأنصاره، فيسعى إلى جعل نفسه أهلاً لذلك؛ بتهذيب نفسه، وجعلها مستعدّة لأن تُقتل في سبيل اللّه الذي يدعو إليه المهديّ، وفي سبيل الدين الذي يحميه المهدي، وفي سبيل الإسلام الذي ينصره المهديّ، وفي سبيل العدل الذي ينشره المهديّ، وفي سبيل الحقّ الذي يؤيّده المهديّ، وفي سبيل القرآن الذي هو القانون والنظام والدستور في أيام المهديّ.

ثالثها: إن لازم انتظار الفرج هو السعي لسرعة ظهوره عليه السلام، وذلك بأن يهيّء الناسَ بأن يكونوا من أعوانه وأنصاره، وأن يطهّروا أنفسهم من أرجاس المعاصي؛ ليكونوا أهلاً لذلك.

رابعها: أنّ لازم انتظار الفرج هو حبّ المنتظِر للإسلام الذي يُظهره الإمام المهدي، وللدين الذي يؤيّده، وللقرآن الذي يطبّقه ويسير عليه، ولازم الحبّ المذكور هو السعي لخدمة الإسلام وإظهاره، ولخدمة الدين وتأييده، ولخدمة القرآن وجعله النظام الذي تسير عليه الأمّة، ولا تهتدي بسواه فهو الذي يُغني عن غيره، ولايُغني عنه شيء.

نعم، إنّ محبّة إمامنا المهديّ أو أحد آبائه الكرام، لازمها الاقتداء بهم في خدمة الدين الذي خدموه، وتأييد الحقّ الذي قُتلوا في سبيله، والتضحية بكلّ ما يملك في سبيل الإسلام الذي ضحّوا بأنفسهم الطاهرة لأجل نصرته.

أيكتفي المحبّ للحسين عليه السلام حينما يسمع المواقف المشرّفة

التي وقفها أصحاب الحسين بأن يقول: ياليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما؟!

كلاّ، فإنّ هذا التمنّي لا ينفع شيئاً، فكلّ منا يتمكّن الآن من نُصرة الحسين بنصرة الدين والعقيدة والإسلام، فإنّ الحسين عليه السلام قتل في سبيل نصرة الدين الإسلامي والعقيدة الحقّة، كما قال الشاعر عن لسانه عليه السلام:

إنْ كانَ دينُ محمدٍ لم يستقِمْ إلاّ بقتلي يا سيوفُ خُذيني[1]

فإنّ نصرةَ الدين نصرةٌ للحسين عليه السلام ولآبائه وأبنائه الكرام؛ لأنّ الحسين عليه السلام لم يكن يطلب الاستيلاء على الحكم لأجل السلطنة والزعامة، بل لأجل إعزاز الدين ورفع كلمة المسلمين، فكلّ من يخدم الإسلام ويسعى في سبيل ترويج الدين، فهو من أولياء محمد وأتباع عليّ وأنصار الحسين، ألا نستمع إلى قول النبيّ صلّى اللّه عليه وآله: **«ليس أوليائي منكم ولا من غيركم إلاّ المتّقين»**، ولا تقوى من دون خدمة الدين وخدمة الإسلام، والدفاع عن الحقّ وعن مبادئ القرآن، وكلّ من يهمل نصرة الدين، ولا يهتمّ برفع كلمة المسلمين، فهو من أعدائهم ومحاربيهم.

نعم إنّ الحرب بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وأبي سفيان، وعليّ عليه السلام ومعاوية، والحسين عليه السلام ويزيد، هي حرب بين الكفر والإسلام، وبين الفسق والإيمان، وبين الفضيلة والرذيلة، وهي مستمرّة حتّى

(١) في رحاب أئمة أهل البيت ٢: ٥٦.

الآن، فأنصار محمد صلّى اللّه عليه وآله وعليّ عليه السلام والحسين عليه السلام هم الذين ينصرون الإسلام والإيمان والفضيلة، وأنصار أبي سفيان ومعاوية ويزيد هم الذين ينتصرون للكفر والفسق والرذيلة، هم الذين لا يهمّهم نصر الإسلام أو ضعفه، ولا حكم القرآن أو حكم الطاغوت، ولا انتشار الفضيلة أو انتشار الرذيلة.

فالواجب علينا جميعاً نُصرة الدين الذي نُصرتُه نصرةُ الحسين، وقد قال عليه السلام: **((ما سمع واعيتنا ـ أهل البيت ـ أحد فلم ينصرنا إلاّ أكبّه اللّه على مَنخَريه في نار جهنم))**[1]، وقد سمعنا واعيتهم، فإنّ قوله عليه السلام في يوم عاشورا: **((هل من ناصرٍ، هل من معين))**[2] لم يكن مختصّاً بالمخاطَبين، بل كان شاملاً لجميع البشر إلى يوم القيامة، فهو عليه السلام يريد من ينصر مبادئه، وهي مبادئ الإسلام، ومن ينصر أحكامه، وهي أحكام اللّه، ومن يحقّق غايته، وهي رفع كلمة الإسلام واتّباع أحكام القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنع التجاهر بالمعاصي، كالتظاهر بالإفطار والسفور والتبرّج وعقد مجالس اللهو والقمار، والحرص على تربية أولادنا وأهالينا تربية إسلاميّة حقيقيّة، وتوجيههم إلى الطاعات ومنعهم عن المعاصي.

وقد ورد في الأخبار استحباب قراءة هذا الدعاء أيّام الغيبة، وهو الدعاء الذي علّمه الإمام الصادق عليه السلام لزرارة، وأمره عليه السلام بأن يقرأه

---

(١) ينابيع المودّة: ٣٣٩.

(٢) مقتل أبي مخنف: ١١٧، ينابيع المودة: ٣٤٤.

الشيعة أيّام الغيبة: ((أللّهمّ عرّفني نفسك،[١] فإنّك إن لم تُعرّفني نفسك لم أعرف نبيّك.

اللّهمّ عرّفني رسولك فإنّك إن لم تُعرّفني رسولك لم أعرف حجّتك.

اللّهمّ عرّفني حُجّتك فإنّك إن لم تُعرّفني حُجّتك ضللتُ عن ديني))[٢].

---

(١) في الأصل: (بنفسك)، وقد أثبتناها كما في المصدر.

(٢) أُصول الكافي ١ : ٣٣٧/ ح٥ ـ كتاب الحجة ـ باب الغيبة.

الفهارس العامة

١ـ فهرس الآيات الكريمة.
٢ـ فهرس الأحاديث الشريفة.
٣ـ فهرس الأشعار.
٤ـ فهرس الأعلام.
٥ـ فهرس الكتب.
٦ـ فهرس مصادر التحقيق.
٧ـ فهرس المحتوى.

١ـ فهرس الآيات

٢ـ فهرس الاحاديث

٣ ـ فهرس الاشعار

الشعر	القافية	الصفحة
١٨ـ ولايــتُهُ بــالأمــرِ مــن عــنــدِ ربِّهِ خليــفــةُ خــيــر الرُّسْلِ من عــالَم العُــلا	اللام	٢٦٣
١٩ـ يُلقَّبُ بــالمهــــديِّ بــالحقِّ ظاهرٌ بسُنَّةِ خــــيــــرِ الرُّسْلِ يحكمُ أوَّلا	اللام	٢٦٣
٢٠ـ إن كــان دينُ مـحـمَّـد لم يستـقِم إلاَّ بقــتـلي يـا ســيــوفُ خُــذيني	النون	٣٠٨،١١٦

٤ـ فهرس الأعلام

٥ـ فهرس الكتب.

٦ـ فهرس مصادر التحقيق

١ـ **القرآن الكريم.**

٢ـ **نهج البلاغة:** ضبط وفهرسة صبحي الصالح ـ طبع انتشارات الهجرة ايران ـ قم.

٣ـ **اثبات الهداة بالنصوص والمعجزات:** للمحدِّث محمد بن الحسن الحرّ العاملي صاحب الوسائل المتوفى سنة (١١٠٤هـ) ـ تعليق واشراف أبي طالب التجليل التبريزي ـ طبع في المطبعة العلمية في قم المقدسة.

٤ـ **الاحتجاج:** لأبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي ـ من علماء القرن السادس ـ ت (٦٢٠هـ) ـ تعليق السيد محمد باقر الموسوي الخرسان ـ كتابفروش قدس محمدي ـ قم ـ ايران.

٥ـ **الإذاعة لما كان أو يكون بين يدي الساعة:** المطبوع في ضمن موسوعة الامام المهدي (عج).

٦ـ **إسعاف الراغبين في سيرة المصطفى وفضائل أهل بيته الطاهرين:** للشيخ محمد الصبّان ـ مطبوع في هامش كتاب نور الأبصار للشبلنجي ـ دار إحياء التراث العربي بيروت.

٧- **الأسفار أو الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة:** للحكيم الفيلسوف ملاّ صدرا محمد بن ابراهيم صدر الدين الشيرازي المعروف بصدر المتألهين ت (١٠٥٠هـ) - طبع شركة دار المعارف الاسلامية.

٨- **الإشاعة في أشراط الساعة** - المطبوع في ضمن موسوعة الامام المهدي(عج).

٩- **اصطلاحات الصوفية:** للشيخ كمال الدين عبدالرزاق القاشاني - تحقيق وتعليق الدكتور كمال ابراهيم جعفر - انتشارات بيدار - قم.

١٠- **الأصول من الكافي:** لثقة الاسلام أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي - ت (٣٢٨/٣٢٩هـ) - تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري - طبع دار الكتب الاسلامية - طهران.

١١- **أضواء على السُّنة المحمدية أو دفاع عن الحديث:** لمحمود أبي ريّة - طبع مؤسسة مطبوعاتي اسماعيليان - ايران - قم.

١٢- **آلاء الرحمن في تفسير القرآن:** للشيخ محمد جواد البلاغي النجفي - الطبعة الثانية - طبع مكتبة الوجداني - قم.

١٣- **أمالي الصدوق:** للشيخ أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي ت (٣١٨هـ).

١٤- **الإمامة والسياسة المعروف بـ «تاريخ الخلفاء»:** لابن قتيبة الدينوري (٢١٣-٢٧٦هـ) طبع ونشر شركة مصطفى البابي الحلبي بمصر - الطبعة الأخيرة (١٣٨٨هـ).

١٥- **الإمام الصادق:** للشيخ محمد أبو زهرة - طبع دار الفكر العربي.

١٦- **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار:** العلاّمة المجلسي محمد باقر بن محمد تقي الاصفهاني - ت (١١١٠هـ) - طبع مؤسسة الوفاء - بيروت لبنان.

١٧- **البرهان في تفسير القرآن:** تأليف العلاّمة السيد هاشم الحسيني البحراني - طبع

مؤسّسة مطبوعاتي إسماعيليان ـ قم ـ إيران.

١٨ـ **البرهان في علامات مهدي آخر الزمان**: تأليف علاء الدين علي بن حسام الدين الشهير بالمتقي الهندي ـ ت (٩٧٥هـ) ـ منشورات شركة الرضوان ـ طهران ـ إيران.

١٩ـ **البيان في أخبار صاحب الزمان (عج)**ـ: تأليف الحافظ أبي عبدالله محمد بن يوسف بن محمد النوفلي القرشي الكنجي الشافعي: المستشد (٦٥٨هـ) منشورات مؤسسة الهادي للمطبوعات سنة الطبع (١٣٩٩هـ).

٢٠ـ **البيان في تفسير القرآن**: لآية الله العظمى السيد أبي القاسم الموسوي الخوئي ـ المطبعة العلمية في قم المقدسة ـ الطبعة الخامسة ـ أوفست.

٢١ـ **تاج العروس من جواهر القاموس**: تأليف محمد مرتضى الزبيدي ـ منشورات دار مكتبه الحياة بيروت.

٢٢ـ **تاريخ الطبري ـ المعروف** (بتاريخ الامم والملوك): تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ـ ت (٣١٠هـ) ـ منشرات مؤسّسة الأعلمي المطبوعات ـ بيروت ـ لبنان.

٢٣ـ **تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام**: تأليف المرجع الديني الاكبر آية الله السيد حسن الصدر ـ منشورات الاعلمي طهران .

٢٤ـ **التبيان في تفسير القرآن**: لشيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن حسن الطوسي ـ ت (٤٦٠هـ) ـ طبع دار احياء التراث العربي. ـ بيروت ـ لبنان.

٢٥ـ **تحف العقول عن آل الرسول**: للشيخ أبي محمد الحسن بن علي الحسين بن شعبة البحراني ـ تحقيق وتعليق علي أكبر الغفّاري. جامعة المدرّسين ـ قم ـ إيران ـ سنة الطبع ـ (١٤٠٤هـ).

٢٦ـ **التفسير الصافي**: تأليف ملا محسن المعروف بالفيض الكاشاني ـ انتشارات

كتابفروشي محمودي.

٢٧ـ **تفسير العياشي:** تأليف أبي نصر محمد بن مسعود بن عياش السلمي السمرقندي المعروف بالعياشي ـ طبع المكتبه العلمية الاسلامية ـ طهران.

٢٨ـ **تفسير القرآن الكريم:** لصدر المتألّهين محمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي المعروف بـ «ملا صدرا» ـ انتشارات بيدار ـ قم.

٢٩ـ **تفسير القمي:** تأليف أبي الحسن علي بن إبراهيم القمي ـ مطبعة مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر ـ قم ـ ايران.

٣٠ـ **التفسير الكبير** ـ للامام محمد الرازي فخر الدين المعروف بالفخر الرازي ـ ت (٦٠٦هـ) الطبعة الثالثة.

٣١ـ **تفسير المنار:** تأليف محمد رشيد رضا ـ مطبعة دار المعرفة بيروت ـ لبنان.

٣٢ـ **تفسير نور الثقلين:** للشيخ عبدعلي بن جمعة الحويزي ـ المطبعة العلمية ـ قم.

٣٣ـ **التكامل في الإسلام:** تأليف أحمد أمين ـ الطبعة الثانية سنة (١٣٨٤هـ) ـ اوفسيت دار الكتب العلمية ـ إسماعيليان ـ قم ـ إيران.

٣٤ـ **تلخيص المستدرك:** المطبوع في ذيل المستدرك للحاكم ـ للإمام الحافظ شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد الذهبي ـ ت (٨٤٨هـ).

٣٥ـ **الدر المنثور في التفسير بالمأثور:** للإمام عبدالرحمن جلال الدين السيوطي ـ طبع دار الفكر للطباعة والنشر ـ الطبعة الأولى ـ؟

٣٦ـ **دروس في علم الأصول:** مقدمة السيد علي أكبر الحائري ـ تحقيق وتعليق مجمع الفكر الإسلامي.

٣٧ـ **دلائل الصدق:** للإمام المظفّر الشيخ محمد حسن ـ الطبعة الأولى ـ سنة الطبع (١٣٩٦هـ) ـ مطبعة دار العلم للطباعة ـ القاهرة.

٣٨ـ **ديوان الإمام علي عليه السلام:** جمع وترتيب عبدالعزيز الكرم ـ طبْع المكتبة الشعبيّة.

٣٩ـ **رجال العلامة الحلي:** تأليف الحسن بن يوسف بن علي المطهّر الحلّي المعروف بالعلاّمة الحلّي (ت ٧٢٧هـ) .

٤٠ـ **رجال النجاشي:** للشيخ أبوالعباس أحمد بن علي بن العبّاس النجاشي ـ (ت ٤٥٠هـ) منشورات مكتبة الداوري ـ قم.

٤١ـ **رسائل الشريف المرتضى:** نشر دار القرآن الكريم مطبعة الخيام ـ قم ـ سنة الطبع (١٤٠٥هـ).

٤٢ـ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم:** للعلاّمة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي ـ (ت١٢٧٠هـ).

٤٣ـ **رياض العلماء وحياض الفضلاء:** للميرزا عبدالله أفندي الاصبهاني ـ من أعلام القرن الثاني عشر.

٤٤ـ **سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب:** للشيخ أبي الفوز محمد أمين البغدادي السويدي ـ من علماء القرن الثالث عشر ـ الطبعة الثانية ـ منشورات الرضي.

٤٥ـ **سنن الدار قطني:** تأليف شيخ الاسلام علي بن عمر الدار قطني (ت ٣٨٥هـ) مطبعة دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان.

٤٦ـ **السنن الكبرى** ـ للامام الحافظ ابي بكر احمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت ٤٥٨هـ) ـ مطبعة دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان.

٤٧ـ **السيرة النبوية:** لابن هشام ـ أبي عبدالله محمد بن عبدالملك بن هشام البصري الحميري طبع دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان.

٤٧ـ **السيرة النبوية:** لابن هشام ـ أبي عبدالله محمد بن عبدالملك بن هشام البصري الحميري طبع دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان.

٤٨ـ **شرح نهج البلاغة:** لابن أبي الحديد المعتزلي (٥٨٦هـ ـ ٦٥٦هـ) ـ تحقيق لجنة إحياء الذخائر ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ لبنان.

٤٩ـ **صحيح أبي داود:** لسليمان بن الأشعث السجستاني (٢٠٢هـ ـ ٢٧٥هـ) ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان.

٥٠ـ **صحيح البخاري:** لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي ـ طبع دار إحياء التراث العربي ـ تحقيق الدكتور مصطفى ديب البغا.

٥١ـ **صحيح الترمذي:** لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة (٢٠٩هـ ـ ٢٧٩هـ) ـ تحقيق أحمد محمد شاكر ـ دار الفكر ـ بيروت ـ لبنان.

٥٢ـ **صحيح مسلم:** للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ـ (ت ٢٦١هـ) ـ مطبعة دار الفكر ـ بيروت.

٥٣ـ **الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم:** دراسة وتحليل للسيد جعفر مرتضى العاملي سنة الطبع (١٤٠٣هـ) ـ قم ـ إيران.

٥٤ـ **الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة:** تأليف المحدث أحمد بن حجر الهيتمي المكّي ـ (٨٩٩هـ ـ ٩٧٤هـ) ـ مكتبة القاهرة ـ شركة الطباعة الفنية المتحدة ـ الطبعة الثانية ـ سنة الطبع (١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م).

٥٥ـ **عقد الدرر في أخبار المنتظر:** تأليف يوسف بن يحيى بن علي بن عبدالعزيز المقدسي الشافعي السلمي ـ من علماء القرن السابع ـ مكتبة عالم الفكر ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى (١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م).

٥٦ـ **عوالي اللآلي العزيزية في الأحاديث الدينية:** للشيخ محمد بن علي بن إبراهيم

الإحسائي المعروف بـ «ابن ابي جمهور الإحسائي» ـ طبع قم.

٥٧ـ **عيون أخبار الرضا:** للشيخ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي الصدوق ـ (ت ٣٨١هـ).

٥٨ ـ **الغيبة:** للشيخ الطوسي ـ (ت٤٦٠ هـ) ابي جعفر محمد بن الحسن ـ اصدار مكتبة نينوى ـ طهران.

٥٩ـ **الغيبة:** للشيخ النعماني محمد بن أبي زينب البغدادي.

٦٠ـ **فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير :** تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني ـ مطبعة دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان .

٦١ـ **الفتوحات المكية:** لمحيي الدين بن عربي أبي عبدالله الطائي الاندلسي (ت ٦٣٨هـ).

٦٢ـ **فلسفتنا:** تأليف آية العظمى السيد الشهيد محمد باقر الصدر (رض) ـ الناشر دار التعارف للمطبوعات الطبعة الثانية عشر ـ سنة الطبع (١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م) ـ بيروت ـ لبنان.

٦٣ـ **الفهرست** ـ تأليف الشيخ ابي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ).

٦٤ ـ **في رحاب أئمة اهل البيت (ع):** تأليف السيد محسن الأمين ـ طبع دار التعارف للمطبوعات سنة الطبع (١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م) ـ بيروت ـ لبنان.

٦٥ ـ **القاموس المحيط:** لمجد الدين الفيروز آبادي ـ مؤسسة فن الطباعة ـ مصر.

٦٦ـ **القرآن محاولة لفهم عصري:** تأليف مصطفى محمود ـ مطبعة دار المعارف ـ بمصر.

٦٧ـ **الكامل في التاريخ:** تأليف عز الدين ابي الحسن علي بن ابي الكرم الشيباني المعروف بـ ابن الاثير. طبع دار احياء التراث العربي ـ سنة الطبع (١٤٠٨هـ

١٩٨٩م) بيروت ـ لبنان.

٦٨ـ **كتاب الخصال**: للشيخ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي ـ الصدوق (ت ٣٨١هـ).

٦٩ـ **كتاب المواعظ**: للشيخ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي ـ الصدوق (ت ٣٨١هـ).

٧٠ـ **كشف العظاء عن مبهمات شريعة الغراء**: تأليف الشيخ جعفر كاشف الغطاء ـ انتشارات مهدوي ـ ايران.

٧١ـ **كفاية الاثر في النص على الأئمة الاثني عشر**: للخزّار علي بن محمد القمي الرازي.

٧٢ـ **كمال الدين وتمام النعمة**: للشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي (ت ٣٨١هـ) ـ طبع جماعة المدّرسين ـ قم ـ سنة الطبع: (١٤٠٥هـ).

٧٣ ـ **كنز العمال في سنن الاقوال والافعال**: للعلامة علاء الدين على المتقي بن حسام الدين الهندي (ت ٩٧٥هـ).

٧٤ـ **لسان العرب** : للامام ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابي منظور الافريقي المصري ـ نشر أدب الحوزة ـ قم ـ ايران ـ سنة الطبع ١٤٠٥ هـ.

٧٥ـ **لوائح الانوار البهية**: المطبوع في ضمن موسوعة الامام المهدي ـ عج ـ .

٧٦ـ **اللوامع الالهية في المباحث الكلامية**: تأليف جمال الدين المقداد بن عبدالله السيوري الحلبي (ت ٨٢٦هـ) ـ طبع تبريز ـ ايران ـ سنة الطبع (١٣٩٦هـ).

٧٧ـ **مباحث الالفاظ** ـ للسيد كاظم الحائري ـ الطبعة الاولى ـ سنة الطبع (١٤٠٧هـ) مطبعة مركز النشر ـ قم ـ ايران.

٧٨ـ **متشابه القرآن ومختلفه** : تأليف محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني (ت ٥٨٨هـ) انتشارات بيدار ـ قم.

٧٩ـ **مجمع البيان في تفسير القرآن** : الشيخ ابوعلي الفضل بن الحسن الطبرسي من علماء الامامية في القرن السادس الهجري ـ منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي ـ قم ـ ايران.

٨٠ـ **مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع:** لابن خالويه.

٨١ـ **مسائل فقهية** : للامام عبدالحسين شرف الدين الموسوي ـ اصدار مكتبة نينوى الحديثة ـ طهران ـ ناصر خسرو مروي.

٨٢ـ **المستدرك على الصحيحين في الحديث:** لأبي عبدالله محمد بن عبدالله المعروف بالحاكم النيسابوري الحافظ (ت ٤٠٥هـ).

٨٣ـ **مستدرك نهج البلاغة:** الهادي كاشف الغطاء ـ مطبعة الراعي في النجف الأشرف الطبعة الاولى (١٣٥٤هـ ق).

٨٤ـ **مستدرك الوسائل:** للعلامة الميرزا حسين النوري الطبرسي ـ تحقيق مؤسسة آل البيت لأحياء التراث ـ طبع بيروت.

٨٥ـ **مسند** الامام احمد بن حنبل: مطبعة دار صادر بيروت ـ لبنان.

٨٦ـ **معاني الأخبار:** للشيخ ابي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالصدوق (ت ٣٨١هـ) منشورات جماعة المدرسين ـ قم.

٨٧ـ **معجم الطبراني (المعجم الكبير):** للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٢٦ هـ ـ ٣٦٠هـ) ـ تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ـ طبع دار إحياء التراث العربي ـ نشر مكتبة ابن تيميّة ـ القاهرة.

٨٨ـ **المفردات في غريب القرآن:** تأليف الحسين بن محمد المعروف بالراغب

الاصفهاني الناشر مكتبة الانجلو مصري.

٨٩- **من لا يحضره الفقيه** : للشيخ ابي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالصدوق (ت ٣٨١) - انتشارات جماعة المدرسين - قم.

٩٠- **الميزان في تفسير القرآن:** تأليف العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي - مطبعة اسماعيليان - قم - ايران .

٩١- **نور الأبصار في مناقب آل بيت النبيّ المختار:** للشيخ مؤمن بن حسن مؤمن الشبلنجي - من علماء القرن الثالث عشر - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.

٩٢- **الهداية:** للشيخ ابي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالصدوق ت (٣٨١هـ).

٩٣- **وسائل الشيعة:** تأليف الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي - منشورات المكتبة الاسلامية - طهران.

٩٤- **وفيات الأعيان وأنباء الزمان أو (تاريخ ابن خلّكان):** لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلّكان (٦٠٨هـ - ٦٨١هـ) تحقيق إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت.

٩٥- **ينابيع المودة** : تأليف الحافظ سليمان بن إبراهيم الحنفي المعروف بخواجه كلان البلخي القندوزي (ت ١٢٩٤هـ).

٧ـ فهرس المحتوى

المقدّمة

٢٥ ـ ٥٨

تفسير سورة الفاتحة

٥٩ـ١٩٥

تفسير سورة البقرة

١٩٦-٣١٠

الامام المهدي في كتب العامة:

الفهارس العامّة

٣١١-٣٧٦